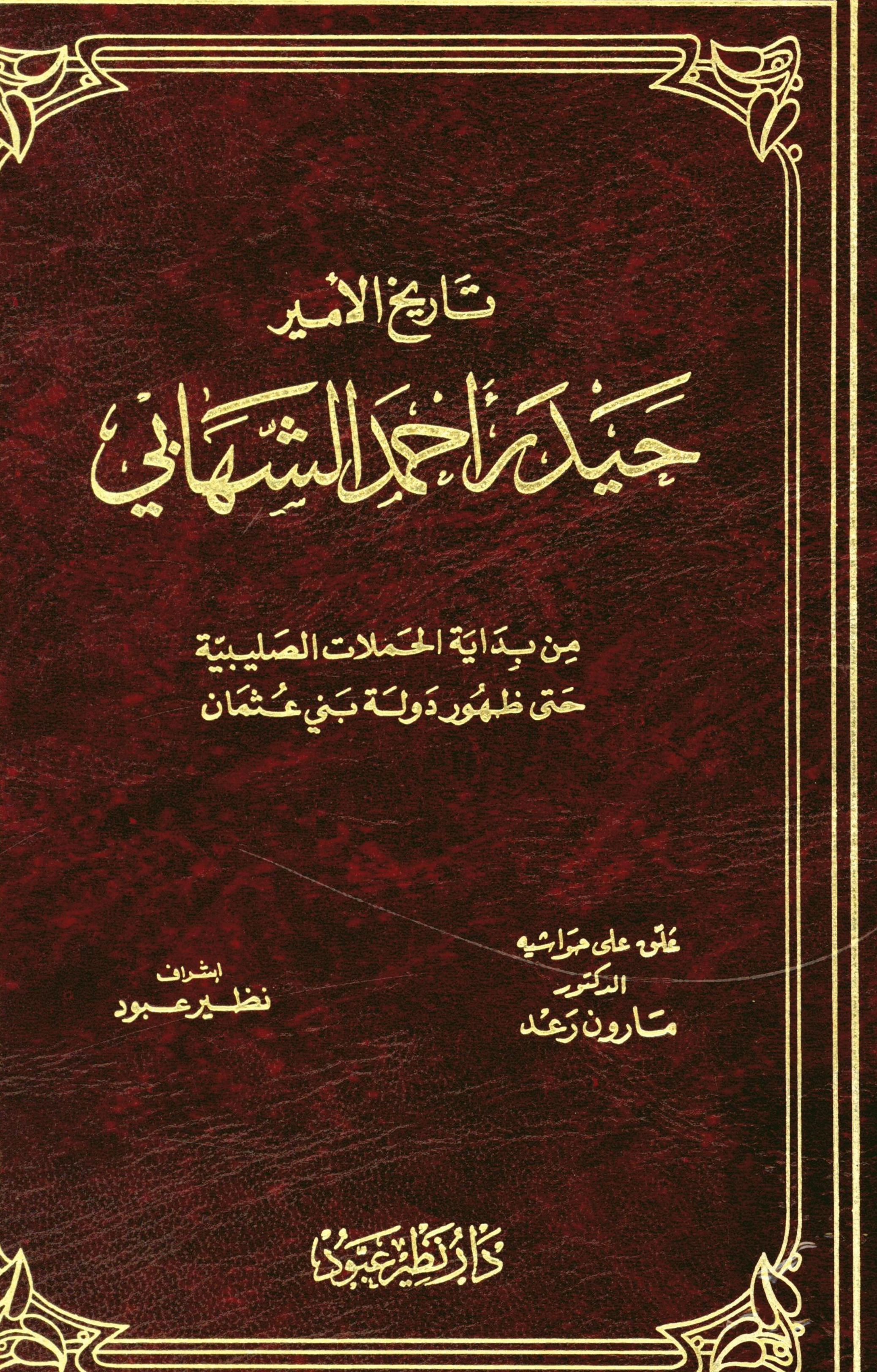


تاريخ الأمير
حيدر أحمد الشهابي
من بداية الحملات الصليبية
حتى ظهور دولة بني عثمان
علق على حواشيه
الدكتور
مارون رعد
إشراف
نظير عبود
دار نظير عبود

تاريخ الأمير

حيدر أحمد الشهابي



تاريخ الأمير
حيدر أحمد الشهابي

من بداية الحملات الصليبيّة حتى ظهور دولة بني عثمان

الجزء الثاني

علّق على حواشيه
الدكتور
مارون رعد

إشراف
نظير عبود

دار
نظير عبود

ص.ب. : ١١/٨٠٨٦ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ ـ ٩٣٤٧١٤

الجزء الثاني
من بداية الحملات الصليبية حتى ظهور دولة بني عثمان

الباب الأول
الدولة العباسية في فترة انحلالها وانهيارها



الفصل الثلاثون

في الحروب الصليبية

قبل ان نبتدئ بوقائع هذه الحروب نذكر الأسباب التي ألجأت اليها. فنقول انه عندما ضعفت قوات الخلافة العباسية، وصار العمال الذين على الولايات يستبدون بالاحكام وكلّ منهم يضاد الاخر، وقامت الدولة العلوية في مصر وتغلبت على كثير من الاقاليم وخضعت لها اكثر الولايات والاقطار. ثم في مثل هذا الوقت ظهرت دولة الاتراك السلجوقية وهاجمت بلاد الشام والقدس واخذتها. فكثرت المظالم على المسيحيين الحجاج، وذاقوا من مرارات العذاب والاضطهاد ما يلين له الصخر الاصم. وكانت ايضاً زادت غيرة كثيرين من المسيحيين لزيارة الاماكن المقدسة في اورشليم وبيت لحم، وقام ابو علي المنصور الحاكم بامر الله وامر بهدم كنيسة القيامة في القدس وبقدر ازدياد الاضطهاد والعذابات على الحجاج المسيحيين بقدر ذلك ازداد عددهم وكانوا يحضرون بالالوف ويرجعون بالمئات، ويحضرون بالمئات ويرجعون بالعشرات، فان المسلمين والاتراك لم يتركوا نوعاً من العذاب والاضطهاد الا وعملوه مع المسيحيين، ومع ذلك كان يزداد عددهم، وهؤلاء يرجعون الى اوروبا ويخبرون اهاليهم وممالكهم عما قاسوه واحتملوه من المسلمين.

ثانياً ان بطريرك القدس نفسه كتب مراراً لجميع الملوك المسيحيين يستنهض غيرتهم للمجيء لمساعدته وانقاذ البلاد من حكم الظالمين، فانهم لم

يكتفوا باضطهاد الشعب بل اتصلت تعدياتهم للبطريرك نفسه، فكانوا يمسكونه بشعره ويجرونه في الاسواق، ويوسعونه ضرباً وعذاباً حتى يسترضيهم بمبالغ من المال فيتركوه.

ثالثاً ان ملك القسطنطينية خاف كثيراً على مملكته من هجوم المسلمين، وكتب يستنهض ملوك اوروبا بأن يأتوا لمساعدته. وليس ذلك فقط بل رضي بطريرك القسطنطينية بأن يقدم خضوعه لبابا رومية اذا كانت ممالك اوروبا تجهز جيشاً لتخليص المملكة اليونانية مما يتهددها من هجوم الاتراك والمسلمين عليها، ولذلك كاتب الملوك الاوروبيين بذلك.

رابعاً قيام بطرس الناسك الخطيب الشهير من امينس وجولانه في اكثر الممالك الاوروبية يخطب ويهيج الشعوب لهذه الحرب.

وفي السنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م تنبأ المنجمون بحدوث طوفان على الناس يقارب طوفان نوح، فاحضر الخليفة ابن عيسون المنجم فسأله. فقال : ان في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت، والان قد اجتمع ستة منها وليس فيها زحل، فلو كان معها لكان مثل طوفان نوح، ولكنني اقول ان مدينةً أو بقعةً من الارض يجتمع فيها عالم كثير من بلاد كثيرة فيغرقون. فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها من البلاد، فأحكمت المسنيات والمواضع التي يخشى منها الانفجار. فاتفق ان الحجاج نزلوا في وادي المناقب فأتاهم سيل عظيم فاغرق اكثرهم ونجا من تعلق بالجبال، وذهب المال والدواب والزاد، فخلع الخليفة على المنجم. وفيها وردت مكاتيب من الكسيس ملك الروم الى اوربانوس الثاني بابا رومية يطلب النجدة منه ومن سائر ملوك النصارى ضد جيوش المسلمين الذين تملكوا اكثر اصقاع الروم، وجدّوا في المقاومة حتى بلغوا القدس، لانه كان قد ورد مكاتيب من سمعان بطريرك بيت المقدس يخبر فيها بالاهانات والمظالم الصائرة على المواضع المقدسة على النصارى، فتوجه البابا المذكور الى بلاد فرنسا وعمل مجمعاً في مدينة كليريمة، وارسل قسيسين الى الملوك يحثهم على استخلاص الاماكن المذكورة من ايدي المسلمين، وارسل غفراناً لكل من يجاهد بهذا السفر.

ولكن بما أنه كان بين الروم والافرنج اختلاف قديم بخصوص قانون الايمان والانبثاق شرع البابا بعمل مجمع بين الملوك لاجل الاتفاق وتجهيز العساكر في مدينة باريز، وحضر فيه علماء ورؤساء من الحزبين. وبعد محاورات شديدة سلم الروم لرأي البابا، واعترفوا بالانبثاق، وصار فرح عظيم عند الجميع. وكثر عدد الذين طلبوا السفر لاستخلاص ارض الميعاد، فمنعوا كثيرين عن ذلك، ولم يأذنوا في السفر الا الى الابطال الاشداء. وفي هذه السنة سار شمس الملوك دقاق صاحب دمشق الى بعض سواحل البحر، فلما بلغ ذلك اخاه الملك رضوان صاحب حلب، وكان بينه وبين اخيه مشاجرة جمع عسكراً عظيماً وصار قاصداً دمشق وهي خالية من العساكر. فاغلق اهلها ابواب المدينة ضده، وركبوا خارج الاسوار، وقاتلوا اشد قتال، فوقع حجر المنجنيق على رأس قائد الجيش فقتل، وسكنت الحرب، وعادوا الى الخيام. وعندما سمع الملك دقاق بقدوم أخيه رجع الى دمشق، فرحل رضوان عنها وارسل يستنجد بالمستعلي صاحب مصر فلم ينجده، فرجع الى حلب وقطع خطبة المستعلي على المنابر، واعاد الخطبة لبني العباس. وفي هذه السنة سار الافضل ابن امير الجيوش الى القدس وهي بيد سكمان ابن ارتق، فحاصرها اشد حصار مدة اربعين يوماً ونصب عليها المنجنيقات. ثم تملكها بالامان، وهرب سكمان من القدس الى الرها ومنها الى مدينة ارفا.

وفي السنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م قصد الافرنج السفر لتخليص القدس من يد الاتراك والعرب نظراً لما كان يلقى حجاجهم من الاضطهادات والمضايقات منهم. ولما بلغتهم كتابات بطريرك القدس، وكتابات من فرنسا ومن ايطاليا ومن جرمانيا، وكل من تحركت همته لهذا الجهاد وضع على صدره رسم صليب احمر، ثم اتخذوا راية مشتركة عليها رسم الصليب فلقبوا بالصليبيين. ولما ارتحلوا شتى البعض منهم في نواحي ادرنه والبعض في بلاد البلغار والبعض وصلوا الى القسطنطينية. وقصدوا ان تكون الطريق على القسطنطينية اولاً لأنها اسهل واقرب. وثانياً لأن ملك الروم كان طلب معونتهم على المسلمين وايضاً كان بتدبير بابا رومية ان يشتروا خضوع بطريركية القسطنطينية بتخليصها ومساعدته على المسلمين. ولكنهم تحملوا مشقة عظيمة

من الجوع والعطش فهلك منهم نحو ثلاثين الفاً. وكثيرٌ منهم قصدوا الرجوع. وكان قواد الجيوش اوجون ابو فيلبس ملك فرنسا وجوفراد (او كدفروا) دوق لورين السفلى. واخواه بلدوين ودومستاق وبلامند أمير ترنته، وروبرت امير نورمندي. وأديمار اسقف فوجوس وبطرس الناسك. فهؤلاء قادوا الجيوش الى القسنطينية، وكان ملك الروم في ذلك الاوان الامبراطور الاكسيوس، فاستقبلهم بكل اكرام ولكنه لم يخل من المكر والحسد، وصار الشرط بينه وبينهم ان جميع ما يتملكونه من المسلمين في بلاد الروم قبل دخولهم الى بلاد الشام يكون له. وفيها قتل ملك خراسان ارسلان ارغون ابن الب ارسلان ابن اخي السلطان ملكشاه، قتله غلام تركي له. فقيل له لمَ فعلت هذا، فقال : لاريح الناس من ظلمه، ثم ملك بركيارق خراسان، وسلمها الى أخيه الملك سنقر.

وفي السنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م خرجت عساكر الافرنج من القسطنطينية وكانت تنوف عن الستماية الف وعبرت البوسفور الى بر الاناضول ولما دخلت الى بلاد المسلمين خرج الى لقاها سليمان ملك الرها في جيش كثير من التركمان، فتواقع الفريقان وكانت النصرة للافرنج، وغُلبت جيوش التركمان وانهزم السلطان سليمان، فحاصر الافرنج نيقية وملكوها وقتلوا من فيها ونهبوا المدينة وبرَّها. وكان السلطان سليمان جمع نحو ماية وخمسين الف رجل، وضرب فرقة من الافرنج وهاجمهم على غفلة، فقتل منهم مقتلة عظيمة. ثم تجمعت عليه الافرنج من جهات مختلفة وكسروه وقتلوا جانباً من عسكره. وكان ذلك في اول تموز (يوليو). ثم سارت عساكر الافرنج الى جهة انطاكية، وتنكريد مع بردويل الملك جمعا جمعاً كثيراً من العساكر وتملكا طرسوس وبلاد كيليكية، وكذلك بلدوين اخوجوفراد سار بقومه الى ما بين النهرين واستمال اليه النصارى الذين في الرها، وقتلوا النائب وسلموا البلد للافرنج. فقوي عزم الافرنج وساروا بامان حتى بلغوا انطاكية. وفي تشرين الاول (اوكتوبر) احاطت العساكر الصليبية بانطاكية وشددوا عليها الحصار وكان الحاكم بها سقمان اوسكمان ابن ارتق، قيل بل حاكمها كان باغي سيان السلجوقي. فلما بلغه ما فعله النصارى في الرها قبض على اعيان

النصارى الذين في انطاكية ونهب اموالهم، وارسل يستنجد بأهل حلب وحماه وحمص وما يجاورهما.

وفي السنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م اجتمعت عساكر المسلمين الى قلعة حارام لنجدة انطاكية وكان عددهم نحو ثمانية وعشرين الفاً، فقصدهم الافرنج ليلاً وباغتوهم عند طلوع الفجر في ٧ شباط (فبراير) فشتتوا شملهم وقتلوا منهم نحو الفي قتيل، وغنموا اموالهم وسلاحهم واوطانهم. وجلبوا رؤوس القتلى، وجعلوها على رؤوس المزاريق قبال انطاكية، فازداد اهلها خوفاً ورعبة، وقويت شوكة الافرنج، الا انهم يئسوا من اخذ المدينة لقلة الزاد عندهم وكثرة الامطار، فرجع كثير منهم الى بلادهم بحراً وقتل البعض منهم في الحصار. والذين بقوا منهم هناك داخلهم الخوف من اخبار العساكر القادمة عليهم من المسلمين، لان انطاكية كانت يومئذ من أعمال بغداد. وفي تلك الايام قدم اليهم كربوغا (ويروي كربوفا) صاحب الموصل بجيش عظيم ونزل بمرج دابق بالقرب من حلب فاجتمعت اليه العساكر الشامية عرباً وتركاً. وقدم اليه السلطان سليمان صاحب نيقية وصاروا جمعاً غفيراً. فضاقت صدور الافرنج منهم، وارتضوا بالهلاك. وبينما هم في اشد الضيق أتاهم كتاب من صاحب احد ابراج انطاكية، وقيل أنه كان نصرانياً، وبه يعدهم انه يسلمهم البرج الذي هو فيه. فسر الملك بيموند بذلك الوعد، وجمع قواد عسكره واخبرهم بذلك. ثم وفد عليهم صاحب البرج ليلاً ودعاهم الى تسليمه لهم، فاجابوه وتعهدوا له بأن يقيموه والياً على انطاكية، ومضى قدامهم والملك بيموند وقومه يتبعونه حتى دخلوا البرج من نافذة، وملكوه، وملكوا كل ما يليه. وعند الصباح نشروا الراية على اعلى البرج ونفخوا في البوق، فتملكوا المدينة بالسيف وكان ذلك في شهر ايار (مايو)، وهرب باغي سيان فصادفه رجل ارمني فقتله واعطى رأسه للافرنج. فقويت عزائم الافرنج في افتتاح انطاكية، ولكنهم ذهلوا لما رأوها خالية من الذهب والذخيرة والمؤونة، ولولا النجدة التي أتتهم من بلدوين صاحب الرها لهلكوا جوعاً. وكان كربوغا قبل ما بلغه ان الافرنج تملكت انطاكية ارسل جماعة من عسكره تسبقه الى انطاكية، ولما بلغه دخول الافرنج انطاكية زحف بجيوشه واقام عليها الحصار، ومنع عنها الذخيرة، فصار الافرنج

في شدة عظيمة من الجوع فاكلوا الدواب والجيف المائتة، وعزموا على محاربة كربوغا وانقسموا الى عسكرين وبقي القتال بينهم ثلثة أيام وثبتوا في الحرب، فانكسرت عساكر كربوغا وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ونهبوا ما كان معهم وانهزم كربوغا. وكانت هذه الموقعة في ١٨ شهر حزيران (يونيو) من هذه السنة. وبعد هذه النصرة وقع الوباء في الافرنج وكان ثقيلاً جداً حتى ان كل يوم كان يخرج منهم نحو اربعين جنازة وطالت مدته نحو ثلاث سنين. فبلغ عدد الموتى الذين ماتوا بالطاعون نحو اربعين الفاً، فاضمحلت قوة الافرنج، وكان النظام قد بطل ولم تعد الجنود تطيع صوت قوادها، وابوا حمل السلاح والكفاح. فالتزم بيموند ويروى (بوهموند) الى احراق منازلهم ليخرجهم منها، وخشي من احراق المدينة كلها بهذا السبب واشتد الخطب وظهر جلياً أنه لا فائدة ان لم تحصل مساعدة فوق العادة، ولذلك حصلت جملة حوادث ظنها كثيرون انها معجزة. ذكر المؤرخون ان قسيساً لومباردياً قام في الوسط وقال : أوحيَ الى برؤيا أنه لا تنتهي السنة الثالثة من تلك الحروب الا بأخذ اورشليم. وقال اخر أنه شاهد المسيح نفسه وصحبته البتول مريم وبطرس الرسول وسمع من فمه ما كان يوبخ به الصليبيين على انقيادهم للنساء العربيات، واخذ منه وعداً اكيداً انه في خمسة ايام سينجدون. فتجددت امالهم وعاشت ارواحهم من هذا الكلام. واغتنم الفرصة قسيس اخر اسمه برثلماوس قسيس ريموند، وقص عليهم امراً عظيماً من رؤيا. وقال : حضر عندي القديس اندراوس وقال لي : ان في كنيسة القديس بطرس سنان الرمح الذي طعن به الشرطي جنب الفادي عندما كان معلقاً على الصليب، احضروه فإن فيه نصراً على الاعداء. ودلهم على المكان المطمورة فيه، فحفروا كثيراً حتى وجدوه ملفوفاً بمنديل حرير مزركشاً بالذهب، وعندما طارت الاخبار في كل المدينة وفرحوا جداً بنجاحهم. ثم تعاهدوا ان لا يفارقوا بعضهم بعضاً حتى يملكوا بيت المقدس. وفي مدة اقامة الافرنج في انطاكية تملكوا قرية البيري وساموا لها اسقفاً، ثم زحفوا الى معرة النعمان. وكانت مدينة كبيرة واهلها ابطال في الحرب، فحاصروها ثلثة ايام ثم دخلوها. واستتر اهلها في المغائر التي تحت الارض فاضرموا فيهم النار ومات منهم نحو عشرة واخذوا اموالهم.

وفي السنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م لما رأى المصريون ضعف الاتراك ساروا الى مدينة بيت المقدس وحاصروها وبها الامير سقمان وايليغازي ابنا ارتق التركماني، وابن عمهما سونج ونصبوا عليها اربعين منجنيقاً ونيف، وملكوها بالامان، وخرج منها سقمان واصحابه، واستناب المصريون فيها رجلاً يعرف بافتخار الدولة.

وفي هذه السنة بعد ما رتبت الافرنج امور انطاكية عزموا على المسير الى بيت المقدس فسافر منهم في البحر اناس وتملكوا جبل طرسوس وجبلة، وبقية الجيش سارت في البر. وفي سبعة من شهر نيسان (ابريل) اجتمع الفريقان بارض مدينة عرقة. واقاموا عليها الحصار مدة شهرين وحضر اليهم نصارى جبل لبنان وقدموا لهم الذخائر. وارسل لهم صاحب طرابلس الذخائر والتقادم وخمسة عشر الف دينار فداءً عن طرابلس وعرقة وجبيل فارتحلوا وساروا الى قيسارية طرسوس. ثم قصدوا اللدّ، فوجدوا المسلمين قد هدموا كنيسة القديس جرجس التي بناها يوستنيانوس ملك الروم. ثم نازلوا الرملة فملكوها وقصدوا بيت المقدس، ونزلوا بالقرب من المدينة. وكان صاحبها سقمان ابن ارتق التركماني وابن عمه سونج نايبه من قبل خليفة مصر. ولما بلغهما قدوم الافرنج حصنا المدينة في الذخائر والات الحرب، وطردا النصارى الى خارج المدينة، وسلبا اموالهم لئلا يفعلوا كما فعلت نصارى الرها. ولما احاطت الافرنج بالمدينة رأوها حصينة جداً، ونصبوا عليها المجانيق وصنعوا برجين من خشب يكشفان على السور. وفي شهر تموز (يونيو) زحفوا ليلاً من البرج الواحد من جهة الوادي بين باب العمود وبرج الزاوية، ونصبوا برجاً اخر عند باب صهيون ولصقوهما بالسور. فاحرق المسلمون البرج الذي في باب صهيون، واهلكوا من فيه، ولكن الافرنج حكموا على البلد من البرج الاخر ودخلوا المدينة بالسيف. وقيل انهم قتلوا داخل الحرم وفي المدينة ما ينوف عن سبعين الفاً، واخذوا قناديل الذهب والفضة التي كانت داخل الحرم، وسلبوا من المدينة اموالاً لا تحصى. وكان لبيت المقدس في يد الاسلام ٤٦٢ سنة منذ فتح اورشليم عمر ابن الخطاب الى ان استرجعها الافرنج. وكان لما بلغ خليفة مصر حصار بيت المقدس سار بعشرين الفاً لنجدة المدينة، فوصل ثاني يوم

تملكها الافرنج، واجتمع ايضاً من الشام والعربان نحو عشرة الاف، فخرجت الافرنج اليهم، وانتشب القتال بينهم فانهزم الاسلام الى عسقلان وقتل منهم مقتلة عظيمة. واحرقت الافرنج ما حول عسقلان وقطعوا اشجارها، ثم رجعوا الى بيت المقدس واقاموا غوفراد (كودفروا دي بويون) ملكاً على القدس، ولم يضع على رأسه اكليلاً اكراماً للذي تكلل بالشوك في هذه المدينة. واظهروا ورعاً كثيراً وشكراً جزيلاً لحصولهم على النصر. واقام غوفراد تنكريد والياً على يافا ولما يليها، وطبرية وما حول بحيرة جنيسارت وبلاد الجليل. ورتب امورها، وعمر جملة كنائس في الناصرة، وطبرية، وجبل طورطابور واكفاها بالوقوفات. وفي هذه السنة وقع الحرب بين السلطان بركيارق وبين اخيه السلطان محمد فانهزم بركيارق الى اصفهان ولم يدخلها. ثم سار الى خراسان واجتمعت عساكر الواثق بالله نحو خمسة وعشرين الف رجل مع السلطان محمد، ودخل خراسان على اخيه سنقر، واقام بجرجان وتكاثرت العساكر في خراسان فعمَّ الغلاء تلك الاصقاع حتى اكلت الناس الميتة والكلاب.

وفي السنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م اجتمع اكابر الافرنج واساقفتهم وساموا برتوس بطريركاً على بيت المقدس، وارسلوا كتابات الى ملوك النصارى يخبرونهم بالانتصار الذي حصل لهم، ويباركون للبابا الذي تخلف بعد اوربانوس، ويسألونه الاسعاف. وبعد ذلك رجع بلامند البرنس الى انطاكية، وبلدوين اخو الملك غوفراد الى الرها على طريق البقاع، وتفرقت الامراء على الاماكن التي تملكوها وبقي من الابطال في بيت المقدس الملك غوفراد وتنكريد عظيم الفرسان، ومعهم الفان من المشاة، ومائتا فارس. فسار بهم الملك الى سواحل البحر واوقعوا الحصار اولاً على حيفا وبعد اخذها انتقلوا الى عكا، فوجدوا اهلها مستعدين للقتال وعندهم كلما يكفيهم من الذخيرة والمؤونة والات الحرب، فتركها وقصد البلاد التي عبر نهر الاردن، وغزا تلك البلاد ونهبها ورجع بغنائم كثيرة الى اورشليم. ثم انه مرض ومات، فحزنت الافرنج عليه حزناً شديداً لكثرة شهامته وشدة غيرته. ووصل خبره الى اخيه بلدوين صاحب الرها فاخذ معه الف رجل وتوجه الى انطاكية، وارسل زوجته

في البحر الى يافا ومن هناك صعدوا الى اورشليم، فمسحه البطريرك وتتوج باكليل الملك، وهو الثاني من ملوك الافرنج في بيت المقدس[1].

وفي السنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م نزلت العربان الى نواحي اللد وكانوا يقطعون الطرق ويقتلون من يستفردونه، فسار اليهم الملك بلدوين وقتل منهم خلقاً كثيراً وطردهم الى خارج الاردن. وفي هذه السنة كانت الاستعدادات في جميع ممالك اوروبا النصرانية للسفر الى القدس، واهتم كثيرٌ من الامراء وقصدوا القسطنطينية كل واحد منهم برجاله. ولما وصلوا الى القسطنطينية غدر بهم الكسيوس ملك الروم وسفرهم بطرق عسرة، وكتب الى شمس الملوك دقاق ملك دمشق يخبره بقدومهم، فجمع العساكر الشامية والعربان وحضر الى الشام جناح الدولة صاحب حماه وكمنوا لهم في الطريق، وقتلوا منهم ما ينوف عن خمسين الف، وهرب الباقون وقد تشتتوا لعدم خبرتهم في البلاد، وما وصل منهم الى انطاكية الا القليل وهم بحالة الذل والهوان. وكان الكسيوس ملك الروم يظهر للافرنج الحب العظيم ولكن في باطنه يضمر لهم

---

(١) بعد عرقا التي كانت تابعة لفخر الملك ابن عمار والي طرابلس (لم يحارب الصليبيون انما والاهم وقدم لهم كل ما يحتاجون اليه من مؤن وذخائر) تابع الصليبيون سيرهم نحو بيت المقدس على الطريق الساحلي، فوصلوا الى البترون وجبيل التابعتين لابن عمار فلم يحصل لهما اي سوء. وفي البترون حصل اول لقاء مباشر بين الصليبيين والموارنة الذين قدموا للفاتحين الادلاء والمساعدات المختلفة. وعندما وصلوا الى بيروت اقتدى حاكمها الفاطمي بزميله ابن عمار في طرابلس، وقدم لهم الاعانات والمساعدات المختلفة. وبعد ان امضوا ليلة واحدة في بيروت توجهوا نحو صيدا ولكن الحاكم الفاطمي هناك ابدى مقاومة بسيطة ثم استسلم، وبدأ الصليبيون ينتشرون في احياء المدينة وجوارها بكل أمان وسلام. ثم انتقلوا الى صور ومنها الى عكا. وفي ٧ حزيران ١٠٩٩ وصل الصليبيون الى القدس وسقطت بعد حصار دام شهراً واحداً واحتلوها بالقوة، وحدثت فيها مجازر رهيبة. ثم جعلوها عاصمة لهم بعد ان ضموا اليها قسماً كبيراً من فلسطين. وقد حكم غودي فروا دي بويون هذه البلاد مدة سنة، وانتقلت السلطة بعده الى اخيه بولدوين الذي نُصب ملكاً على مملكة القدس اللاتينية سنة ١١٠٠ وكان ذلك يوم عيد الميلاد.

السوء ويريد اهلاكهم لسبب أنهم لم يصدقوا معه بما وعدوه به أعني في قسمة البلدان التي فتحوها كما صار بينهم الاتفاق والعهود، ثم أن ريموند امير تولوز خرج بعسكر من انطاكية وباغت طرطوس وملكها، وارسل واعلم بردويل الملك أن اهالي بيروت وصور وصيدا وعكا ماسكون الطريق عليهم عند نهر الكلب، فقدم الملك بجيشه وفتح لهم الطريق الى بيت المقدس. وفي هذه السنة قدم اهل جنوا في البحر بعدة مراكب الى يافا وصعدوا الى القدس، وصار الاتفاق بينهم وبين بلدوين الملك بأن جميع ما يتملكونه في بلاد الشام يكون لهم الثلث والثلثان للملك. فساروا الى حيفا ووضعوا عليها الحصار براً وبحراً فملكوها بالامان، ثم ساروا الى قيسارية اسطرتون (هي قيسارية التي على شاطئ البحر الى الشمال من يافا والجنوب من حيفا) ونصبوا حولها ابراجاً من خشب. وبعد خمسة عشر يوماً ملكوها بالسيف وقتلوا اكثر اهاليها، وساموا عليها اسقفاً يدبرها، ثم انتقلوا الى الرملة فرأوها خالية من سكانها. وفي هذه السنة قدمت العساكر من الديار المصرية الى حرب الافرنج وكانوا نحو ثلثين الفاً، ولم يكن عند بردويل غير الفين من الافرنج، التقى العسكران بارض الرملة والتحم القتال بينهما، فقتل قائد جيش المصريين وانهزمت جيوشه وقتل منهم ما ينوف عن الخمسة الاف ومن الافرنج نحو مايتين. وفيها توفي المستعلي بالله الخليفة العلوي صاحب مصر، وكانت خلافته سبع سنين وعمره ثمانية وعشرون سنة، وولي بعده ولده ابو علي المنصور وبويع له بالخلافة وعمره حينئذٍ خمس سنين، ولقب الآمر باحكام الله، ولم يكن قادراً على ركب الفرس وحده لصغر سنه فقام بتدبير دولته الافضل ابن امير الجيوش واتقن الاحكام باحسن قيام. وفيها سار محمد عن بغداد ورجع برقيارق من واسط والتقاه بروذروار، وكانت جنودهما متقاربة العدد فتصافيا ولم يقتتلا، ومشى الامراء بينهما بالصلح على ان يكون برقيارق السلطان ومحمد الملك، ويكون لمحمد من البلاد اذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل، والباقي لبرقيارق، وتحالفا على ذلك وافترقا، ثم انتفضا والتقيا عند الري، وتحاربا فانتصر برقيارق على محمد وهرب محمد الى اصفهان ونهبت خزائنه، ثم سار برقيارق وحصره في اصفهان وضيق عليه ففر من اصفهان مستخفياً، وشيع

برقيارق خلفه عسكراً فلم يظفروا به ورحل برقيارق الى همذان.

وفي السنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م اجتمع اهل عسقلان مع عسكر المصريين وجملة عددهم جميعاً نحو عشرين الفاً وساروا الى ناحية الرملة. فلما بلغ ذلك صاحب القدس ركب حصانه على غفلة مع بعض اناس قلائل الذين لحقوه على ظهور الخيل لكي يمنع اهل عسقلان عن التنكيد، فوجدهم اكثر مما ظنهم ووَدّ ان يرجع الى الوراء فلم تطاوعه شهامته، فحاربهم مدة وقتل كثيرٌ من الفريقين، ثم أنه انهزم مع الذين برفقته ودخل قلعة الرمل، وصاروا تحت خطر عظيم، فدخل اليهم ليلاً رجل غني من العرب واخبر الملك بأن المسلمين كانوا مستعدين لحصار البرج وقتل جميع من فيه، فخرج الملك ليلاً برفقة ذلك الرجل حتى نزل به الي سروج، ومن هناك سار في المركب الى يافا ففرح به جماعته فرحاً عظيماً. وارسل فجمع العسكر ومضوا الى لقاء العدو فكسروهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ورجعوا منصورين. ويذكر مطران صور ان ذلك الرجل العربي الذي عمل هذا المعروف مع الملك وخلصه من يد الاعداء كوفئ على ما كان تفضل به سابقاً بزوجته، وذلك ان الملك لما كان في الحرب خارج الاردن وكسر الاعداء فكانت امرأة هذا الرجل مع جماعتها في الحرب، ولما انكسروا صدف ان ساعتها دنت لتلد، فامر بلدوين ان لا يؤذيها احد بل يعطوها فراشاً من النهيبة، وأكلاً، وقربتي ماء وناقتين مرضعاتٍ، وخادمة تخدمها. فلما سمع بذلك بعلها شعر بجميله وقصد مكافأته في هذه الوقعة. وفيها دخل تنكريد امير طبرية بجماعته الى جهة انطاكية، فحاصر حماه واللاذقية وملكها بالسيف. وفيها كانت وفاة الملك شمس الملوك دقاق. ملك الشام فخطب طفتكين اتابكه لابن دقاق، وكان طفلاً وامرت زوجة اتابك طفتكين جاريتها ان تثقب بابرة مسمومة عنقوداً من العنب، ولما اكله ولدها تهرأ جوفه ومات وولي العهد بعده ولده وكان عمره اربع سنين، واستقر طفتكين بملك دمشق. وفيها توفي كربوغا صاحب الموصل. وكان قد استولى على اكثر اقطاع اذربيجان. وفيها وقع الصلح بين السلطان بركيارق واخيه السلطان محمود ابن ملكشاه وان يكون للسلطان محمود ديار بكر والجزيرة كما سبق.

وفي السنة ٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م لما قدم سبعون غراباً كما سبق من مدينة جنوا، تعاهد اهل جنوا مع بلدوين صاحب القدس ان يغزوا بلاد المسلمين ويكون لهم الثلث وللملك بلدوين الثلثان مما يغنمونه. فقصدوا في هذه السنة مدينة بطولمايس التي هي عكا، وحاصروها براً وبحراً وقتلوا من اهلها عدداً غفيراً. وفي نهاية العشرين يوماً لحصارها تسلموها بالامان. وفيها اجتمعت فرسان الافرنج وبطارقتها اعني الملك بلدوين، والامير بيموند، والامير تنكريد، وبطريرك انطاكية، وبطريرك بيت المقدس وغيرهم لمحاصرة حران بقرب الرها، فغارت عليها الجيوش واشتد عليها الحصار، فاضطر اهلها ان يسلموها بالامان لاجل مضايقتهم واحتياجهم للميرة والذخيرة. وبعدما خرج اهل المدينة منها صار الخلاف بين بيموند والملك بلدوين، فان كلا منهما يريد ان تكون المدينة خاصته، فانقسم العسكر الى فريقين، واجتمع عليهم اهل المدينة بعد ما كانوا خرجوا منها، ووثبوا عليهم فشتتوا شملهم، وهزموا عسكرهم هزيمة قبيحة لم يكن اقبح منها، وقتلوا منهم نفراً كثيراً، وغنموا امتعتهم واسروا بلدوين الملك واخرين من القواد، ورجع الباقي مخزيين الى الرها. وفيها قصد بيموند صاحب انطاكية العودة الى اوروبا، فدخل فرنسا وتزوج قونسطنسا ابنة فيلبس ملك فرنسا. وفيها ايضاً دخل روبرتوس بطريرك بيت المقدس الى رومية ليوضح قدام صاحب كرسيها عن الاحتقار والمكارة التي احتملها من ارنولفوس ومن بلدوين الملك. وفيها حنق الملك بلدوين على الست زوجته وطلقها مخالفاً الشريعة المسيحية، فاضطرت الملكة ان تنزع ثياب العز وتلبس الثوب الرهباني في دير من اديرة القدس، ثم أنه بعد قليل اغواها الشيطان وسافرت الى القسطنطينية لتزور اهلها فنزعت ثياب رهبنتها، واسلمت نفسها للقبائح وللافعال الرديئة المضادة لناموس الله وناموس الملوك. وفي هذه السنة كان دخول توما مطران كفرطاب الى جبل لبنان، فبقي اربع سنين في جبة يانوح وسنتين في جبة بشرّي، وقصد ان يزرع تعليمه الفاسد في تلك الجهات، فلم يقبل احد تعليمه الا خوري فرشع كما هو واضح من الشرح الذي يتقدم العشر مقالات.

وفيها كانت وفاة السلطان بركيارق (وقيل تركيارق) ابن ملكشاه صاحب

العراق وبلاد العجم. وبويع بالخلافة بعده الى ولده جلال الدولة، وكان له من العمر اربع عشرة سنة فقام مملوكه بتدبير امره. ولما بلغ ذلك اخاه السلطان محمداً قدم طالباً بغداد، ولما وصل اليها حاصرها وقاتلت اهلها اشد قتال وبقي الحصار ثلثة اشهر، فوصل خبر وفاة بركيارق الى جكرميش والي الموصل، فعلم أنه لم يبقَ له اطاقة على الحصار، فارسل الى السلطان محمد يطلب منه الامان، فاعطاه الامان وخرج اليه، ولما نظر اهل الموصل ان جكرميش مقدمهم سار الى السلطان محمد جعلوا يبكون ويضجون، ودخل السلطان محمد الموصل واعطاهم الامان. وفي الغد مدَّ جكرميش سماطاً اطعم جميع عساكر السلطان، وحمل اليه من الهدايا والتحف شيئاً عظيماً، فخلع عليه السلطان واقامه نائباً في الموصل، ثم سار السلطان الى بغداد واستقر بها. وفي هذه السنة كان اول ظهور الاسماعيلية بالشام، فتملكوا حصن افامية، وقطعوا الطرق. وفيها توفي سلطان المغرب والاندلس يوسف الذي بنى مدينة مراكش، وتملك ولده عوضاً عنه. وفيها انتزع السلطان محمد ملكشاه من الاسماعيلية قلعة اصبهان.

وفي السنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م كانت وفاة ريموند امير أو كونت تولوز، وكان شهماً شجاعاً في الحرب، ودفن عند جبل الغرباء بقرب طرابلس. وفيها جمع رضوان ملك حلب جيشاً كبيراً ونزل بهم الى ارض انطاكية لمحاربة الافرنج فقتل وحرق وهدم ضياعاً كثيرة. ثم خرج اليه تنكريد وحاربه فكسره كسرة عظيمة وغنم خيله وجميع امتعته. وفيها ارسل خليفة مصر نحو خمسة عشر الف رجل لمحاربة الافرنج، فخرج بلدوين ملك القدس بنحو الفين من المشاة وخمسماية فارس الى لقاهم، وكان بطريرك بيت المقدس يتقدم امام العسكر، وهو يشجعهم، فالتقى العسكران بين الرملة ويافا وتحاربا فقهر الافرنج المسلمين، وقيل أنه قتل من الافرنج بهذه الوقعة نحو ستين نفساً فقط ومن المسلمين نحو اربعة الاف رجل، وبينهم حاكم عسقلان. وامسك الافرنج حاكم عكا وغنموا اموال المصريين وجمالهم وخيولهم وحميرهم، ثم أنهم بعد ذلك استفكوا حاكم عكا بعشرين الف درهم. اما المهزومون من العسكر فهربوا الى يافا وقصدوا العودة الى مصر في المراكب فثارت عليهم

الرياح، واضطروا الى الرجوع الى ارض المسيحيين فمسكوا منهم عشرين مركباً ونحو الفين من النوتية غير الذين قتلوا.

وفي السنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م انتزع السلطان محمد ابن ملكشاه قلعة اصبهان من الاسماعيلية، وقتل ابن غطاس رأس الاسماعيلية وسلخه حياً واخرب القلعة. وفيها سار الجاولي الى الموصل، فخرج اليه جكرميش ولما اصطفّا للحرب حمل عسكر الجاولي وكسر اهل الموصل، وقبضوا على جكرميش واحضروه امام الجاولي، فأمر بحفظه ثم زحف على الموصل، وامر ان ينادوا اهل الموصل بأن يسلموا البلد ويفدوا اصحابهم، ولما علم اهل الموصل ولوا عليهم زنكي ابن جكرميش، وكان ينادي اهل المدينة ان يفتدوه ويسملوا المدينة فلم يردوا عليه جواباً، ولما رأى الجاولي انهم لم يسلموه المدينة قتله. فارسل اهل الموصل الى الملك فلج ارسلان بن سليمان ابن قتلميش السلجوقي صاحب مدينة قونية يستدعونه لنصرتهم فحضر اليهم بعساكر، ولما بلغ الجاولي قدومه رحل عن الموصل. وبعد يومين وصل فلج ارسلان الى الموصل وملكها ونزل بالمقرفة (وقيل بالفروقة)، وخرج الى لقائه زنكي ابن جكرميش ودخل البلد بكل اكرام، وخلع على زنكي وولاه مكان والده، واسقط الخطبة الى السلطان محمد، ورجعت الخطبة في المنابر لنفسه، وأحسن الى العسكر، ثم رفع عن البلد الرسوم المحدثة من المظالم. وبعد ذلك طلب الحرب وهو بالرحبة، والتقاه على نهر خابور وتقاتلا فكانت الكسرة على عسكر فلج ارسلان، وجاز ارسلان في نهر خابور فغرق، وخلا الجو لزنكي واستقر بالحكم وحده بلا منازع.

وفي السنة ٥٠١ هـ = ١١٠٧ م قال ابن الحريري ان بلدوين الافرنجي حاصر صور وبنى قبالها حصناً، فبذل له واليها سبعة الاف دينار فرحل عنه ونزل على صيدا فكشف عنها عسكر دمشق، ثم عطف عسكر دمشق ونزل الى طبرية وهي في يد الافرنج، فخرج اليهم صاحبها غرفاس فاسره المسلمون. ثم غزا طفتكين بعسكر دمشق طبرية واعمالها فخرج اليهم ابن اخت بلدوين حاكم طبرية، فانكسرت الافرنج واسر مقدمهم فعرض عليهم ان يطلقوه فيطلق لهم خمسماية اسير ويعطيهم ثلاثين الف دينار فابى طفتكين. فذبحه، ثم هادن

بلدوين طفتكين اربع سنين، ثم تجمع جمهور كبير وسار من دمشق الى مصر فاخذتهم الافرنج وانقطعت السبل. وفيها قتلت الاسماعيلية قاضي اصفهان وقاضي نيسابور يوم العيد فسنده طائفة منهم بمدينة شيراز يحلجون القطن، ثم وثبوا على شيراز وملكوها، فخرج اولاد منقذ واصعدتهم النساء بالحبال من الطاقات فاقتتلوا هم والاسماعيلية بالخناجر ولم ينجُ من الاسماعيلية احد.

وفي السنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م قصد رايمندوس امير طولوما العودة، وابقى مكانه ابن اخيه يوردان متولياً على الاماكن التي كان اكتسبها في بلاد الشام. وحال وصوله تأهل (تزوج) من ابنة فريننداس ملك فرنسا، فثبت معها مدة يسيرة وتوفي. فحضر ولده بيلتراوندوس مع اهل جنوا، وفي حضوره وجد ابن عمه يوردان محاصراً لمدينة طرابلس، وصارت خصومة شديدة بين بيلتران وبين ابن عمه الذي كان تسلم تلك المواضع من ابيه، فدخل بينهما فرسان الافرنج واصلحوا بينهما، على ان عرقة وطرطوس وما يليهما تكون ليوردان، واما طرابلس وجبيل وجبل الغرباء وما يليها تكون تحت تصرُّف بيلتران. وان يوردان يكون خاضعاً لملك انطاكية وابن عمه لملك القدس.

الفصل الحادي والثلاثون

ذكر اصل الامراء المعنيين
وفي هذه السنة نذكر الامراء آل معن وكيفية ابتدائهم

فالامراء آل معن ابتداؤهم من العرب الايوبية، وهم بطن من بني ربيعة التي كانت منازلهم في نجد وديار ربيعة، فقام من بعض ساداتهم رجل يقال له ايوب، وكان فارساً شجاعاً ملازماً الغارة على الجواد للنهب والسلب، وثقل جانبهم وعظم امرهم بين قومهم فنهض اليه سادات ربيعة واخرجوه حسداً من بينهم، فرحل وسكن الجزيرة الفراتية وتكاثرت بنوه واخلافهم، وكان يقال لهم العرب الايوبية في ذلك الوقت نسبة لايوب الذي هو اصلهم، ثم قام فيهم ربيعة اميراً من بني ايوب ورحل من الجزيرة ونزل في الديار الحلبية، ثم مات وقام ولده معن. وبعد سنين ظهرت الافرنج وتملكت انطاكية، فجعل الامير معن يغزوهم ويطلق الغارة عليهم بالعرب الايوبية فعظم امرهم.

وفي السنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م تملكت الافرنج مدينة طرابلس، وذلك بعد حصارها خمس سنين، ونصبوا قريباً منها حصناً، فخرج صاحب طرابلس ابن عمار فهجم على الحصن وقتل كل من كان فيه واخربه، وارسل في البحر يطلب النجدة من مصر فقدم اليهم شرف الدولة ومعه اغلال كثيرة. لكن في هذه السنة جدد الحصار على المدينة بيلتران ابن الامير ريموندس ومعه الجنويون، وقدم الى نجدتهم ايضاً بلدوين ملك القدس، فقويت شوكة

الافرنج، وضعفت قلوب المسلمين. وعمل الافرنج ابراجاً من خشب وحديد على عجل والصقوها بصور المدينة وملكوها، وقتلوا منها خلقاً كثيراً بعد ان كان فني من فيها من شدة الضيق والجوع والقتل، وكانت المدينة مملوءة من المسلمين والعلماء. وكان فتح مدينة طرابلس في ١٠ حزيران (يونيو) من هذه السنة.

وفيها سار تنكري (لعله تنكريد) صاحب انطاكية غازياً، فملك طرسوس وادنه ونزل على حصن الاكراد فسلمه اهله اليه. وذكر ابو الفرج انه في هذه السنة تملك الافرنج بيروت.

وفي السنة ٥٠٤ هـ = ١١١٠ م زحف الافرنج الى جهة بانياس فملكوها وكانوا قد تملكوا جبيل بالامان لعدم القوت، وكان في جبيل ابن عمار صاحب طرابلس فهرب منها الى دمشق، فاكرمه طغتكين واقطعه الزبدانة. وفيها استولى الافرنج على حصن عكار وحصن المنيطرة، وتقرر ان يحمل اهل حصن مصياف وحصن الاكراد للافرنج قطيعة مقررة معينة في كل سنة. ويقول ابن الحريري ان الافرنج اقاموا على هذا العهد مدة، ثم نكثوا العهد وغدروا. وفيها توفي قراغا صاحب حمص، فملكها بعده ولده صمصام حرجان. وفيها جمع ملك القدس جيوشه وقصد مدينة بيروت فحاصرها مدة شهرين براً وبحراً، وكان في المدينة الامير شجاع الدولة وجماعة من اقاربه، ولما تعذر على الملك بلدوين فتحها، استنجد بافرنج السواحل وامراء المردة فانجدوه، فنهض افرنج الشمال وتجمعوا مع المردة في جبيل، ونهض افرنج الجنوب وتجمعوا في برج الغازية، ثم نهض الفريقان في يوم واحد الشماليون على طريق الجرد والجنوبيون على طريق الساحل ودهموا الغرب صباحاً فنهبوه واحرقوه وقتلوا واسروا من وجدوه. ولم ينج من اهاليه سوى الغائبين والمنهزمين والمختبئين. فقتل من الامراء الامير موسى ابن ابراهيم ابن ابي بكر بن المنذر واولاده الصغار، والامير قاسم بن هشام بن ابي بكر وولده الامير ادريس، والامير مودود بن سعيد بن قابوس وولداه الامير اسد والامير زهير، والامير مالك بن مصطفى بن عون، والامير عبيد بن معضاد بن حسام والامير يحيى ابن الخضر بن الحسين ابن علي واخوه الامير يوسف والامير علي بن

حليم بن يوسف بن فارس الفوارسي، واولاده واخوته وبنو عمه، فانقطعت بهم سلالة بني فوارس. وفي ٢٣ نيسان (ابريل) اخذوها بالسيف وقتلوا عدداً كثيراً من اهلها، وفيها جملة مراكب من بلاد الغرب قاصدين زيارة المواضع المقدسة، فارموا مراسيهم في مينا يافا، فتآمر معهم بلدوين الملك على اخذ صيدا وشددوا عليها الحصار من جهة البر والبحر، فسلّمها اهلها بالامان وقررت عليهم الافرنج عشرين الف دينار كل سنة لانه كان بها اكثر عامة المسلمين. ويذكر مطران صور انه كان في خدمة بلدوين الملك رجل كان اصله مسلماً ثم تنصر فاقامه والياً على صيدا.

وفي السنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م قدمت جيوش الاعجام من بلاد بغداد الى جهة بلاد الشام بخيول كثيرة كالجراد، فاجتازوا الجزيرة وداسوها وقطعوا الفرات وحاصروا حصن دير بسال مدة شهر، ثم دخلوا بلاد حلب ولم يعفوا عن شيء فارسل الله عليهم جيش المسكوب وهم اكبر اعدائهم. ثم ان الامير تنكريد استنجد بلدوين الملك وبيلتران صاحب طرابلس وغيرهما وزحفوا لمحاربتهم، واجتمع العسكران بقرب شيزر، فلما نظر الاعجام كثرة العساكر رجعوا الى مواطنهم هاربين من غير حرب. يقول ابن الحريري ان الافرنج اخذت حصن الاشارب وحصن روديا بالسيف وهما من اعمال حلب، وان اهل منبج وأهل بالس اخلوا بلديهما. وايقن المسلمون باستيلاء الافرنج على اقليم الشام، وطلبوا الهدنة. فصالحهم رضوان صاحب حلب على قطيعة ثلاثين الف دينار وثياب وخيل، وصالحهم صاحب شيزر على قطيعة عشرة الاف دينار، وصالحهم صاحب حماه على الفي دينار، وصالحهم صاحب صور على اربعة الاف دينار. واستقر امر الافرنج في بلاد الشام وصارت جميع سواحلها بايديهم. ولأجل ذلك سارت مسلمو الشام الى بغداد، وتفانوا وكسروا منبر جامع السلطان، وكثر الضجيج والبكاء والعويل، واستنجدوا بالخليفة، والسلطان غياث الدين محمد، وبطلت الجمعة، واخذ الخليفة في الاهبة، وتهيأ السلطان للغزو، فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق، ويئس اهل الشام، الخلاص وحفظ الاموال ولم تنجدهم عساكر مصر ولا عساكر العراق. فشرعوا في مصالحة الافرنج.

وفي السنة ٥٠٦ هـ = ١١١٢ م في شهر محرم سار الامير مودود صاحب الموصل الى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها الى سروج، وفعل بها كذلك، ولم يحترز من الافرنج بل اهملهم، فلم يشعر الا وجوسلين صاحب تل باشر قد دهمهم وباغتهم، وكانت دواب العسكر منتشرة في المرعى، فاخذ كثيراً منها وقتل كثيراً من العسكر وعاد الى تل باشر. وفيها مات باسيل الارمني صاحب دروب بلاد ابن لاوون، وهو المسمى توغ باسيل اي اللص باسيل لانه سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها الارمن الى الان. وفيها تجمع الافرنج ونزلوا على مدينة صور وكانت ممونة مكفية من جميع الميرة والات الحرب، ونزل عسكر دمشق لينجدها، فطال الحصار عليها نحو اربعة اشهر، وعمل الافرنج برجاً من خشب علوه سبعون ذراعاً، وشحنوه وجروه على العجل، والصقوه بسور المدينة، فاحرقه المسلمون. وقاتل المسلمون حول صور قتال المستميتين، وخاف الافرنج من طغتكين ان يحرق الغلال، فأخذوا من أهل صور مالاً ورحلوا عنهم. وفيها كانت وفاة تنكريد احد فرسان الافرنج وكان ذا شهامة عظيمة، واكتسب مواضع كثيرة من المسلمين في بلاد الشام، فدفنوه في انطاكية. وبعد وفاته تملك روجيار احد انسباء المائت على شرط إذا ما رجع بلومند تكون انطاكية له.

وفي السنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م قدمت جيوش الموصل لاعانة المسلمين وكان عددهم كثيراً جداً يشبه الينبوع الدافق، وكان مودود صاحب الموصل قائد العسكر. فدخلوا الفرات واجتازوا على طريقهم في سهل البقاع حتى وصلوا الى نواحي طبرية، فارسل بلدوين الملك يطلب النجدة من صاحب انطاكية وصاحب طرابلس، وخرج بجماعته لمحاربة المسلمين. وفي محرم التقى الفريقان عند الاردن وكان المسلمون وضعوا كميناً للافرنج في الطريق، واخذوهم على حين غرة، واعملوا فيهم السيف. ويقول مطران صور أنه قتل من الافرنج بهذه الوقعة نحو الف وثلاثماية نفس، واسر المسلمون كثيراً من الافرنج. وذكر ابن الحريري ان واحداً من العسكر اسر بلدوين الملك، واذ لم يعرف انه الملك سلبه، واطلقه جريحاً فنجا. وغنم اهل الموصل في اوطاقه وقويت شوكتهم، ولما وصلت النجدة من طرابلس وانطاكية قويت قلوب

الافرنج، ولم تزل الحرب بين الفريقين دائرة مدة سنة وعشرين يوماً، وقلت المؤونة فسار المسلمون الى بيسان ونهبوا وسلبوا وقتلوا وعلقوا النار في ضياع الافرنج من القدس الى عكا، وانقطعت السابلة والطرق حتى لم يجسر الانسان في القرى ولا في المدن ان يخرج من بيته، وبالاخص عندما كانت العساكر في طبرية. فاجتمع رجال عسقلان، وقصدوا القدس فوضعوا عليها الحصار وحرقوا البيادر (الاجران) وقتلوا من وجدوه خارج السور، ثم شملهم الخوف من قدوم الملك بلدوين ورجعوا ناكصين على اعقابهم. وكذلك اهل الموصل لما بلغهم الخبر ان مراكب الافرنج وصلت الى يافا هربوا الى دمشق، ونزلوا الى المرج الاصغر لأن طغتكين (وقيل طفدكين) لم يأذن لهم بالدخول الى المدينة خوفاً منهم لئلا يتقووا عليه ويأخذوها منه، فصرفهم وامرهم بالعودة في زمان الربيع. ويوم الجمعة دخل طغتكين إلى الجامع وكانت يده بيد مودود صاحب الموصل، فوثب على مودود رجل اسماعيلي (وروي باطني) كأنه يدعو له ويتصدق منه وقتله، ثم مسكوا الباطني واحرقوه بالنار. يقال ان ذلك جميعه كان بتدبير طغتكين لئلا يملك دمشق بجيشه. وارسل ملك الافرنج الى دمشق مكتوباً يقول فيه ان امة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لتتحقق ان الله يبيدها. وفيها قدمت في البحر الى ميناء عكا اميرة صقلية لتتأهل من بلدوين الملك، وذلك لان بلدوين كان قد طلق زوجته الاولى وطلب الزواج على المذكورة لكثرة غناها، فقدمت الى بر الشام باموال جزيلة واسلحة كثيرة. وفي هذه السنة توفي صاحب حلب الملك فخر الملوك رضوان ابن تكش، وملك بعده اخوه تاج الدولة ارسلان وكان اخرس، وقتل ارسلان اخوين له، وقتل ابا ظاهر الصانع وجرد الاسماعيلية عن حلب. ثم ان لولو خادم تاج الملوك قتل ارسلان وتسلم قلعة حلب والمدينة. ثم انه قصد قلعة جبر فقتل بالقرب من بالس، وتولى على قلعة حلب من بعده كتب الجيش ابو المعالي المحلي.

وفي السنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م تسلمت حلب الى الامير بلغراي ابن ارتق، واقام بها خمس سنين، وفي هذه السنة حدثت رجفة وزلازل عظيمة في بلاد قيليقية وحلب والشام، فهدمت حصوناً وعمائر كثيرة. ومات خلائق

كثيرة لا يحصى عددها تحت الردم، والذين هربوا الى البرّ اخذتهم الامراض، وكثير منهم ماتوا بالجنون.

وفي السنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م قدم الى بلاد الشام افسنقر البرسقي نائب الموصل ومعه خمسة عشر الف فارس لغزو الافرنج، فاخذ مرعش بالامان، ووطئ بلاد انطاكية ونزل عند شيزر. فلما بلغ هذا الخبر طغتكين صاحب دمشق داخله الخوف ان الغزوة كانت عليه بسبب مودود صاحب الموصل الذي قتل في دمشق، فارسل مكاتيب وهدايا جزيلة الى بلدوين ملك القدس والى صاحب انطاكية بسبب الهدنة، فاصطلحوا، واستنجد صاحب انطاكية بملك القدس، وصاحب طرابلس وطغتكين بملك دمشق. فأجابوه الى ذلك بسرعة، وزحف بالعساكر الى جهة شيزر، فانهزم البرسقي من قدامهم وعاد كل واحد الى موطنه. وفيها لما تحقق اهل عسقلان سفر الافرنج الى ناحية انطاكية استنجدوا بملك مصر وقصدوا محاصرة يافا، فجاءهم من الديار المصرية سبعون مركباً في طريق البحر، فاحتاطوا بالمدينة من كل جهة براً وبحراً. وكان اهل يافا قلائل فثبتوا بوجه المسلمين بغاية الشجاعة حتى بعد جهد جهيد اضطر المسلمون ان يرفعوا الحصار ويرجعوا الى مصر خوفاً من الافرنج لئلا تأتيهم النجدة. وبعد عشرة ايام خرج اهل المدينة وباغتوا العساقلة ليلاً فوجدوهم منتبهين، وقتلوا منهم عدداً غفيراً. وبعد محاربة سبع ساعات انهزم المسلمون ورجعوا ناكصين الى عسقلان. واما البرسقي فعندما سمع ان عسكر الافرنج والشاميين رجعوا كل الى موطنه اخذه الطمع وعاد بعساكره الموصليه الى نواحي انطاكية، فقتل ونهب وسبى واحرق جميع ما امكنه. فارسل صاحب انطاكية يطلب المعونة من بلدوين الثاني صاحب الرها (هو اخو بلدوين ملك القدس). حينئذ اتكل صاحب انطاكية على الله وخرج بجماعته من المدينة فاجتمع مع امير الرها الذي اسرع لنجدته، وزحفا كلاهما الى مقاتلة الموصليين، فأعطاهما الله النصرة عليهم، وقتلا منهم ما ينيف عن ثلاثة الاف نفس، وغنما اثقالهم، وكل ما اتوا به من بلادهم، وكل ما نهبوه من ارض الشام، وفكوا المأسورين معهم، ودخل بهم صاحب انطاكية بعزٍ عظيم الى مدينته وقسم الغنائم بين العساكر بالسوية. واما النصرة فكان غالبها

من بلدوين صاحب الرها الذي كان ذا شهامة عظيمة، ومن غير فزع دخل في وسط الاعداء وشتت شملهم وفرقهم عن بعضهم.

وفي السنة ٥١٠ هـ = ١١١٦ م قصد بلدوين ملك القدس السفر الى جهة مصر لينتقم من المصريين على ما فعلوه بغزوهم بلاده، واخذ معه جيشاً كبيراً فوصل الى فارام (ويروى فورما) التي على نهر النيل، فدخلها وتملكها واحرق جامعها ومساجدها واذن لعسكره ان ينهبوا جميع ما فيها. ثم ان الملك اصيب بحمى شديدة من مشقة السفر فقصد الرجوع الى بلاد الشام الى بيت المقدس، وعند وصوله الى العريش اسلم الروح بيد الخالق. وقيل ان الحمى حصلت له لانه سبح (عام) في النيل قرب بلبيس وكان عرقاناً فحملوا جسده بحزن شديد الى القدس. وقيل أنهم حنطوه ودفنوا جوفه في رجمة باقية هناك معروفة بقبر بردويل، ودفنوا جسده في كنيسة القيامة، فبكى عليه كل الشعب. وكان ذا شهامة عظيمة، ملك على اورشليم ست عشرة سنة ونصف، واستخلص من يد المسلمين طرابلس وبيروت وجبيل وصيدا وقيسارية وعكا وحيفا والرملة وبانياس وحصن عكار وحصن المنيطرة وحصن الاثارب وحصن روديا في ارض حلب وحرَّان من بلاد الرها، وفارام من بلاد مصر. وكسر هجمات كثيرة من عساكر الشام والموصليين والمصريين وغيرهم وابتنى حصناً في الشوبك، وحصناً بقرب صور. ويذكر ابن الحريري ان في هذه السنة جاء سيل عظيم على سنجار، فهدم اسوارها، واغرق خلقاً كثيراً، وحمل باب البلد مسيرة نصف يوم فطمره السيل، وحمل ايضاً السيل سريراً فيه طفل صغير فتعلق بزيتونة وعاش الطفل وكبر.

وفي السنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م جلس على تخت مملكة القدس بلدوين امير الرها برضا قواد الجيش وكان من انسباء الملك المتوفي ودعي بلدوين الثاني. وفيها عندما سمع خليفة مصر الآمر باحكام الله بموت بلدوين كتب الى طغتكين صاحب دمشق طالباً منه ان يوافيه الى عسقلان بعساكر الشام لاستفكاك ارض القدس من ايادي الافرنج، فخرجت الجيوش من الديار المصرية والشامية في البحر والبر. فالمراكب قدمت الى صيدا والمشاة الى ارض عسقلان، وامر ملك القدس باجتماع الافرنج من انطاكية وطرابلس

والقدس وخرجوا الى لقاء المسلمين في ارض فلسطين، ولم يكن بين الفريقين الا سفر يوم، فلبثوا ستة اشهر احدهما مقابل الاخر، ولم يجسر احدهما ان يقتحم خصمه. اخيراً عادت الجيوش المصرية الى مصر، والشامية الى الشام، وعاد الافرنج الى ارضهم. وفي هذه السنة غزا الامير معن الافرنج، وحصل بينه وبينهم حروب عظيمة انتصر فيها على الافرنج واهلك منهم خلقاً كثيراً كما يذكره اكثر المؤرخين. وفي هذه السنة شاع قدوم كبير الافرنج بلدوين من بيت المقدس الى الجبل الاسود، فمسك الطريق عليه الامير معن ومعه جماعة من الاتراك من اصحاب غازي امير الترك وهو مشهور. ولما قدم بلدوين بجيش الافرنج التقوا به وحصل بينهم وبينه حرب شديدة، فانكسرت العرب والترك، لان جيش الافرنج كان خمسين الفاً ونيف، وجيش الترك والعرب الايوبية دون العشرة الاف. فلما انكسروا اشتدت شوكة الافرنج واستفحل امرهم في الديار الحلبية، فرحل الامير معن بالعرب الايوبية وقصد الديار الشامية فنزلوا في سهل البقاع. وبعد نزولهم نزل الامير معن الى دمشق. ودخل على طغتكين صاحبها يومئذ المقدم ذكره، فاكرمه غاية الاكرام وسر به وقربه اليه وخلع عليه خلعة واتخذه حليفاً، وجعله من انصاره ثم امره ان يقوم بعشيرته من البقاع ويصعد الى الجبال العالية من لبنان المشرفة على الساحل البحري وينزلها ويتخذها حصناً، ويطلق الغارة منها على الافرنج الذين في السواحل البحرية. وفيها مرض السلطان محمد بن ملكشاه ابن الب ارسلان، ولما يئس من نفسه احضر ولده محموداً وقبله وبكى كل واحد منهما، وأمره ان يخرج ويجلس على تخت الملك، وعمره اذ ذاك اربع عشرة سنة. وكان السلطان محمد عظيم الهيبة عادلاً حسن السيرة شجاعاً[1].

---

(١) اختلف المؤرخون حول اصل المعنيين. لأن اميرهم الأول معن لم يُعثر له في جدول الانساب العربية على نسب اكيد كما يصرح فيليب حتي. وقد جاء هذا الأمير الى لبنان سنة ١١٢٠ بتكليف من طغتكين حاكم دمشق الذي أمره بأن ينتقل مع جماعته الى منطقة البقاع، ومنها الى جبال لبنان المطلة على البحر للقيام بالغارات على الإفرنج الذين كانوا يسيطرون على الساحل. وفي الشوف تخلى المعنيون عن حياة المضارب =

وفي السنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م اتفق طغتكين ملك دمشق مع غازي ملك الترك، ودبيويه امير العرب على قتال الافرنج، وزحفوا بجيش لا يحصى عدده من الشاميين والترك والعرب الى نواحي حلب قاصدين الافرنج الذين بانطاكية، فارسل روجيار صاحب انطاكية يطلب النجدة من بلدوين ملك القدس ومن فنطيوس امير طرابلس. وقبل قدومهما اليه خرج بجماعته الى لقاء الاعداء، فاحتاط به المسلمون واهلكوا كل من استفردوه من جماعته. وقيل ان عسكر المسلمين كان نحو ستين الف خيال، ولم يكن مع امير انطاكية الا ثلاثة الاف من المشاة وستمائة فارس مستعدين للقتال، فداست عساكر المسلمين جميع ما كان بيد الافرنج في ارض حلب وانطاكية. ثم شاع الخبر بقدوم بلدوين الملك الى الجبل الاسود، فشيع الامير غازي عشرة الاف خيال وقسمهم ثلاث فرق ليمنعوا الافرنج عن الدخول الى انطاكية، فوقع قسم واحد بطريق عسكر الافرنج فوثبوا عليه وقتلوا البعض واسروا البعض ولم ينجُ منه الا القليل، ثم دخل ملك القدس وامير طرابلس الى مدينة انطاكية في عز عظيم، واجتمع اليهما كل الذين كانوا قد تبقوا في انطاكية. وكان جملة العساكر ثمانية الاف. فخرجوا من انطاكية، وترتبوا فوق الجبل هكذا : عسكر طرابلس من الميمنة. وعسكر انطاكية من الميسرة، وهجمت عليهم عساكر المسلمين في طبول وزمور وصياح عال، فالتقى العسكران بعضهما ببعض، واشتد القتال، وكانت الغلبة على المسلمين. فقتل من الافرنج سبعماية نفس، ومن المسلمين اربعة الاف ما عدا الاسرى والمجروحين، وهرب الباقون مهزومين الى بلدانهم، ورجع بلدوين الملك ورفاقه منصورين الى انطاكية، وقبلهم اهل المدينة بكل فرح واكرام. واتخذ بلدوين مدينة انطاكية تحت طاعته، وبعد ما مهد امورها عاد الى مدينة القدس بالسلامة. وكانت هذه السنة صعبة كثيراً بسبب الجراد والفار الذي استمر مدة اربع سنين يهلك بقول الارض وزروعها، وفي اثر الجراد عرض الغلاء ثم الوباء. وفي هذه السنة توفي المستظهر بالله

= والخيام، وسكنوا في البيوت الحجرية، ونزلوا في « صحراء بعقلين » التي جعلوها مقراً لهم، واعتنقوا العقيدة الدرزية التي كانت سائدة في هذه المنطقة.

خليفة بغداد العباسي وكان عمره واحداً واربعين سنة وستة اشهر، وخلافته بقيت اربع وعشرين سنة. وهو الثامن والعشرون من خلفاء بني العباس، وكان في ايامه ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة، وهم : تاج الدولة تكش ابن ارسلان وتركيارق ومحمد ابن ملكشاه وكلهم من الاتراك السلجوقية.

الفصل الثاني والثلاثون

في خلافة المسترشد بالله وهو التاسع والعشرون من العباسيين

وبعد وفاة المستظهر بالله بويع بالخلافة الى ولده المسترشد بالله واسمه فضل ابن احمد وكنيته ابو المنصور، وكان ولياً للعهد خطب له ثلثاً وعشرين سنة في حيوة ابيه. وفي هذه السنة نهض الامير معن من البقاع بعشيرته وبرهطه ونزل في جبل الشوف، وكان في ذلك العصر قفراً خالياً من السكان. ولما نزل الامير فيه جعل له مودة مع آل تنوخ امراء عرب جبل لبنان المحاذي بيروت كما سيذكر. وكان الامير فيهم حينئذ الامير بحتر جد الامير زهر الدين (ويروي ظهر الدين) التنوخي الذي سيأتي ذكره. فمال الامير معن اليه واتخذه حليفاً وعضداً على الافرنج، وظن به الخير، فارسل له زهر الدين اناساً من عنده بنوا له ولخاصته منازل جدارية متينة فسكنها الامير معن، واعتزل المضارب لأنه رآها خيراً من المضارب في تلك الجبال الباردة الكثيرة الانواء، وجعل بعد ذلك يحث اصحابه وقومه على البناء والعمائر. فكثر البناء في الشوف وشاع ذلك. فكان يقصده اهل كل ديار استولت عليها الافرنج من حوران وديار الشام وحلب، ومن جوار جبل لبنان واطرافه وغير ذلك، فسكن فيه خلق كثير. وبقي الامير معن اميراً فيه نحو ثلاثين سنة. وهو اصل الامراء آل معن واليه ينتسبون، وصار الجبل ينسب اليهم فيقال جبل بيت معن (اي لبنان). ثم مات الامير معن وقيل كانت وفاته سنة ٥٤٣ هـ كما سيأتي.

وفي السنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م حدثت حرب شديدة بين السلطان محمد وبين عمه السلطان محمود، وخرجت الكرج الى بلاد الاسلام من القفجاق وغيرهم من الامم. فاجتمع الامير ايلغازي ودبيس ابن صدقة والملك طغرلبك وكان له اران ونخجوان وهو من السلاجقة، وساروا الى الكرج حتى قاربوا من تفليس. وكان المسلمون في عسكر كثير يزيد عن الثلاثين الفاً، فالتقوا واصطف العسكران للقتال، فخرج من القفجاق مائتا رجل فظن المسلمون انهم مستأمنون، فلم يحترزوا منهم، فدخلوا بينهم ورموا بالنشاب، فاضطرب جيش المسلمين وظن من رآهم انها هزيمة، فانهزموا ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضاً وقتل منهم عالم عظيم، وتبعهم الكرج عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون، فقتل اكثرهم واسر اربعة الاف، ونجا الملك طغرلبك وايلغازي ودبيس. وعاد الكرج وحاصروا مدينة تفليس، واشتد قتالهم لمن بها، وعظم الامر وتفاقم الخطب، وبقي الحصار الى سنة ٥١٥ وملكوها عنوة. وفي هذه السنة بعد وفاة الامير معن قام ولده الامير يونس على حكم جبل الشوف.

وفي السنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م عصى سليمان بن ايلغازي ابن ارتق على ابيه بحلب، وقد جاوز عمره عشرين سنة، فسمع والده الخبر فسار اليه مجداً، فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج اليه معتذراً، فقبض على من كان عنده من خواص دولته وقتلهم، واراد قتل ولده فلم يطاوعه قلبه، فهرب ولده الى دمشق، وقبض ابوه على من كان اشار عليه بذلك، منهم الامير ناصر الذي كان قد رباه صغيراً، وجعل اليه الرئاسة فجازاه عن ذلك بقطع يديه ورجليه، وسمل عينيه فمات. ثم استناب ايلغازي على حلب سليمان ابن اخيه عبد الجبار، ولقبه بدر الدولة، ثم عاد الى ماردين. وفيها قدم من بلاد الترك الامير غازي بعزم شديد فلم يخش بلدوين الملك من جيوشه ولا من كثرة خيوله، لكنه اتكل على الله تعالى وتوجه الى نواحي انطاكية، فقدر الله ان عرض على غازي عارض شديد، وقبل ان تتواقع العساكر مات فاخذوه ودفنوه في مدينة حلب، وتفرق عسكره، وعاد كل واحد الى موطنه. واما بلدوين الملك فامر عند وصوله الى بيت المقدس ان تتوسع مكائيل الحنطة وسائر الموازين، وترتفع المظلمة التي كانت على التجار بسبب الحنطة.

وفيها اي (سنة ٥١٥ هـ) اقطع السلطان محمود السلجوقي ميافارقين للامير ايلغازي المذكور، وكان بين بلك بهرام ابن ارتق وبين جيوسلين صاحب الرها حرب انتصر فيها بلك، واسر جيوسلين ومعه ابن خالته وليم (كليام) واسر جماعة من فرسانه، ولم يقبل بلك الفدى بالمال وسجنهم في قلعة خرت برت. وفيها توفي ابو محمد القاسم ابن علي بن محمد بن عثمان الحريري صاحب المقامات، وكانت ولادته سنة ٤٤٦ هـ، وكان اماماً في النحو واللغة، وله عدة مؤلفات منها المقامات التي امره بتصنيفها انوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود، وكان الحريري قد الف مقامة واحدة على وضع مقامات البديع وعرضها على انوشروان وكان خصيصاً به، فامره بانشائها واتمامها، والحريري بصري المولد وكان ينسب الى ربيعة الفرس. وفيها قتل مؤيد الدين الحسين بن علي محمد الطغرائي المنشي الدئلي من ولد ابي الاسود الدئلي الاصفهاني، وكان عالماً فاضلاً شاعراً كاتباً منشئاً. خدم السلطان ملكشاه ابن الب ارسلان، وكان متولياً ديوان الطغراء، ثم استوزره السلطان مسعود وجرت بينه وبين اخيه محمود الحرب فاسر الطغرائي وقتئذ، وقتل صابراً، ومن شعره قصيدته الشهيرة التي اولها :

اصالة الرأي صانتني عن الخطلِ وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ

وفي السنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م اتفق طغتكين صاحب دمشق مع امير العرب، وسيرا الجيوش الى جهة طبرية ليسترجعوها من الافرنج، فخرج بلدوين الملك في شهامة عظيمة لمقاتلتهما، واذ لم يستفيدا من ذلك رجعا ادراجهما من غير مقاتلة. واما بلدوين فلكي لا يرجع فارغاً توجه الى الناحية القبلية وحاصر شيروصا، واخذ اكثر المدن العشرة بقرب نهر الاردن، واستملك الحصن الذي مقابل بيسان، وكان ابتناه طغتكين لاجل المحافظة على تلك النواحي، فدكه بلدوين الى الأرض. وفيها توفي توفيق ابن زريق النحوي الطرابلسي وكان شاعراً فدفن في دمشق. وفيها كانت الوحشة بين بلدوين الملك وبين بنطوس صاحب طرابلس، حتى ان بنطوس نكث العهد والطاعة ولاجل ذلك اخذ الطمع امير الترك وصار يغري وينهب ويقتل في نواحي انطاكية، فصدف ان وقع بين يديه جيوسلين صاحب الرها فارسله مغلولا الى

حصن خارج الفرات، فلما سمع بذلك بلدوين توجه الى طرابلس فاعاد صاحبها الى الطاعة من غير قتال، ثم سار الى انطاكية، فانهزم الترك قدامه. وعندما قصد السفر الى الرها ليصلح امورها ويستفك جيوسلين وهو في طمأنينة خاطر، وليس معه غير خاصته فقط صدف انه وقع ليلاً بيد الترك فاخذوه مغلولاً الى عند جيوسلين. ولكن الله من حسن عنايته لم يتركهما بل ادخل الى الحصن خمسين رجلاً من الارمن من سكان تلك النواحي، فقتلوا الحراس وهموا في اخراج الاسرى. لكن للوقت شاع الخبر في الضياع القريبة وكان كلهم مسلمين، فاخبروا امير الترك واسرعوا في القدوم الى الحصن واحتاطوا به فلم يفلت من الافرنج الا جيوسلين وبرفقته اثنان اخران. ولما وصلوا الى الفرات قطعوه سباحة على ظرفين، وارسلوا الى انطاكية والى بيت المقدس لكي ينجدوهم، وقبل ان تقدم الافرنج لنجدتهم شدد المسلمون الحصار على الحصن، وامروا البنائين ان يثقبوا حيطانه، فالتزموا بتسليم الحصن. وعند ذلك قبضوا على الارمن وسلخوا بعضاً منهم ونشروا بعضاً ارهاباً للغير، وقبروا بعضاً منهم وهم احياء حتى ابادوهم عن اخرهم، ونقلوا الملك بلدوين مغلولاً الى مدينة حرّان التي بقرب الرها. ولما سمع خليفة مصر ما جرى للملك بلدوين وتحققه، جهز العساكر في البر وارسل سبعين غراباً (مركباً) في البحر ليستخلص بلاد القدس من الافرنج، واما الافرنج فاختاروا أوسطات صاحب صيدا وقيسارية ليكون حافظاً للملك في غياب بلدوين الملك. وجمع هو والبطريرك نحو سبعة الاف رجل وتوجها من قيسارية الى يافا التي كانت تحت الحصار من المصريين الذين قدموا في البحر. فلما تحقق المصريون قدوم الافرنج دخلو المراكب وهربوا مقلعين. ثم وصل عسكر المصريين وكانت جملته ستة عشر الف مقاتل، فهجم الافرنج على المصريين كالاسود الكاسرة، فقتلوا منهم نحو سبعة الاف وغنموا جميع ما وجدوا معهم، ورجع الباقون مهزومين. وفيها كانت وفاة اوسطات الحافظ، فاختار الافرنج بدله غوليلمس صاحب طبرية وكيلاً عن الملك. وفي هذه السنة خرج من بلاد البندقية ميخائيل اميرها باربعين قارباً وثمانية وعشرين مركباً قاصدين مساعدة النصارى الذين في بلاد القدس، فقدموا الى جزيرة قبرص وارسوا فيها. فلما

بلغهم خبر مجيء قوارب مصر الى سواحل بر الشام استعدوا لقتالهم. ووجهوا اليهم اولا المراكب وهم راسون مقابل مدينة عسقلان، فظن اصحاب قوارب مصر انها مراكب الوسق، لذلك قطعوا مراسي القوارب واسرعوا الى نهبهم. فادركتهم حالا قوارب البندقية واحتاطت بهم وقتلوا منهم جمعاً غفيراً لا يحصى عدده حتى احمرت مياه البحر من دم قتلى المسلمين على مسافة ميلين كما قيل، وان الفضاء امتلأ من رائحة جيف القتلى، وغنم منهم اهل البندقية اربعة قوارب وخمس فلايك، ثم اقتفوا آثار المهزومين حتى وصلوا الى العريش، فصادفوا عشرة مراكب موسوقة من نحو الشرق اقمشة وبهارات فغنموها وقتلوا من قتلوا من النوتية، واسروا الباقين وعادوا بهم مسرورين الى جهة عكا. ثم اجتمعوا واتفقوا على استفكاك صور وعسقلان اللتين كانتا باقيتين بعد بيد المسلمين وصار الشرط ان جميع ما يستخلصونه يكون ثلثه لاهل البندقية والثلثين لملك القدس. وان اهل البندقية يقدرون ان يعمروا في القدس وفي غيرها كنيسة وفرن وخان (وكالة) وحمام من غير مشورة ولا جمرك ولا ضيم. وان في مدينة صور يكون لاهل البندقية حق في الدخول والخروج والبيع والشراء بدون رسم عليهم، وان يرتبوا لهم كيل وموازين مثلما عندهم في نفس البندقية. وفيها كانت وفاة ايلغازي ابن ارتق بميافارقين وملك مكانه اولاده حسام الدين تمرشاه على ماردين وولده سليمان على ميافارقين، وبقي ابن اخيه سليمان ابن عبد الجبار على حلب كما سبق. فلما رأى بلك ابن بهرام ابن ارتق ضعف ابن عمه سليمان ابن عبد الجبار سار الى حلب وملكها بالامان.

وفي السنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م سارت الجيوش الافرنجية الى اخذ مدينة صور، وكانت مدينة منيعةً مملوءةً من آلات الحصار والذخيرة، وكان فيها عسكر غفير ولها تجارة مع سواحل بلاد كسروان، وهي في قلب البحر ولا تتصل بالبر الا من جهة الشرق. حينئذٍ احاطت بها الافرنج براً وبحراً، ونصبوا حولها الابراج والحصون الخشبية العالية، فكانوا يكشفون المدينة وابراجها الشامخة، وداوم الافرنج ضرب النقض والاحجار والمنجنيقات والات الحصار

عليها ليلاً ونهاراً. وكان اهل صور يحامون عن نفوسهم وحريمهم واولادهم، فاستنجدوا بخليفة مصر وملك دمشق فما استفادوا شيئاً، لأن الافرنج من حين وضعوا الحصار دبروا ان امير البندقية يكون حافظاً طريق البحر لئلا تأتيهم النجدة من مصر ومن صاحب طرابلس، ورتبوا جيشاً من اهل البندقية ان يحفظ طريق البر، فقدم مرتين طغتكين مع عساكر الشام، ولم يدعهم الافرنج ان يقطعوا النهر، فيئس اهل صور من النجدة وامتلأت قلوبهم رعبة من الجوع ومن شدة الحصار فسلموها بالامان، حينئذٍ ملكتها الافرنج بفرح عظيم وغنموا جميع ما كان فيها، وقسموا لاهل البندقية الثلث كما صار الشرط بينهم. وعندما كان الافرنج محاصرين صور غارت اهل عسقلان مرتين على القدس فلم ينالوا غرضهم. وسار بلك امير الترك الى اخذ هيرابوليس المدينة، فقتل صاحبها، وتأمل بأخذها عن قريب. فوثب جوسلين صاحب الرها فقتله. وارسل اناس برأسه الى انطاكية، ومن هناك الى العسكر الذي كان محاصراً صوراً ففرحت بهم جميعاً. وفيها استفك الملك بلدوين نفسه بمال وعاد الى القدس متعافياً.

وفي السنة ٥١٨ هـ = ١١٢٥ م سار بلك ابن بهرام الى منبج فملكها وحاصر القلعة، وبينما هو يقاتل أصابه سهم في رأسه فقتل وتفرق عسكره. وفي هذه السنة ملك اقسنقر حلب وقلعتها. وفيها قدم من خارج الفرات البرسقي بجيش كثير وغزا بلاد انطاكية، وحضر اليه طغتكين ملك دمشق، فملكا بالامان حصن كفرا، وساروا الى حصن صردان فحاصروه مدّة ايام ورحلوا عنه، ثم قصدوا حصن حصرون فقدمت عليهم الافرنج من القدس وطرابلس، وانتشب بينهم القتال، فكانت الكسرة على المسلمين وقتل منهم مقتلة عظيمة. وقيل ان عسكر الاسلام كان ينيف عن الخمسة وعشرين الفاً، وكان عسكر الافرنج مؤلفاً من الفين من المشاة والف ومائة من الخيالة، ثم بعد ذلك رجع الملك بلدوين الى القدس. ذكر في تواريخ الروم أنه في هذه السنة كانت وفاة هيلاكيوس ملك القسطنطينية، وكانت مدة تملكه على الروم سبع وثلاثين سنة واربعة اشهر، وعاش بكل عدل وسلامة، وقد ارتاح شعب الروم بأيام هذا الملك. وفي تملكه تملكت الافرنج بر الشام كما تقدم عنه

الشرح. وبعد وفاة الملك هيلاكيوس توجّت الروم عليهم ملكاً ولده يوحنا الكومينيس.

وفي السنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م كانت وقعة طبرية وذلك ان في هذه السنة جمع بلدوين جميع قواده وسار بهم الى جهة طبرية فسمع خبره طغتكين ملك دمشق وخرج للقاه بعسكر كبير، فغار بعضهم على بعض وثبت بينهم القتال نحو سبع ساعات، فقتل من الافرنج نحو مائة نفس، وقتل من اهل الشام نحو الفين وانهزم الباقون. وفيها سار صاحب طرابلس بجماعته الى نواحي حماة، وقدم الى معاضدته الملك بلدوين. فحاصروا دافانه مدة ثمانية عشر يوماً، وملكوها بالامان. ثم ان الملك عاد الى القدس، وتوجه الى جهة صور فوردت اليه مكاتيب من انطاكية ان اقسنقر البرسقي عبر الفرات وقدم الى بلاد انطاكية بجيوش الموصل، ولم يعفُ عن شرٍّ. فللوقت قاد الملك العسكر الى مقاتلته فرحل البرسقي من قدامه، فوثب عليه واحد من خواصه وقتله. وفيها قدم الى بلاد الشام بيومند صاحب انطاكية، ففرح الملك بقدومه وزوجه ابنته واعطاه في صداقها جبلة واللاذقية. وردَّ بيومند مدينة انطاكية التي كانت لابيه لملك القدس فاستراح باله لان انطاكية كانت بعيدة كثيراً عنه وفي اطراف حكم الافرنج، وجعل كل عنايته في مصادقة ملك القدس. وفيها اخذ بيومند جماعته وغار على قرية كفرا فاستخلصها من المسلمين. وفيها يقول ابن الحريري انه توفي طغتكين ملك دمشق، وكان بطلاً شجاعاً كثير الجهاد وتملك بعده ابنه تاج الملوك بوريد.

وفي السنة ٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م زوج الملك بلدوين ابنته الكبيرة لفولقان امير الشوارنيين، وقدم لها صداقاً عكا وصور. وفيها قتل ستة آلاف رجل اتهموا بمذهب الاسماعيلية. وفيها كما يذكر ابن الحريري قصد الافرنج ان يتملكوا دمشق وذلك لما تحقق بلدوين ملك القدس ان طغتكين مات جمع صاحب انطاكية وصاحب طرابلس وقواد العساكر الافرنجية وساروا بجيش كثير لمحاصرة مدينة دمشق رأس بلاد الشام كلها، فاجتمع عسكر دمشق والتركمان والعرب وباغتوا الافرنج فهزموهم وقتلوا واسروا من اطراف العسكر

خلقاً كثيراً. وقيل انه حدث على الافرنج مطر غزير، وسيل عظيم، وعواصف شديدة، فالتزموا ان يرجعوا ادراجهم مخزيين.

وفي السنة ٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م مات الآمر باحكام الله المنصور خليفة مصر. وكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وكان ظالماً فاسقاً. وقيل أن وفاته كانت بعد هذا بسنة وكان وزيره شاهنشاه ابن الجمالي الارمني حسن الاخلاق وجميل السيرة، فارسل له من قتله واستولى على خزائنه وحواصله، ولم يسمع بمثلها كما يذكر ابن الحريري. وكان ثمن دوابه اثني عشر الف دينار، وقيمة نتاج مواشيه في كل سنة ثلاثين الف دينار. واخذ الآمر من داره مائة حمل دراهم وستة الاف وألف دينار وسبعين ألف ثوب ديباج. وولى على الوزارة بعده البطائحي ولقبه بالمأمون، ثم صلبه بعد اربع سنين، ثم توفي الآمر وتخلف بعده ابن عمه عبد المجيد وكنيته ابو الميمون ولقب الحافظ لدين الله وهو الحادي عشر من الخلفاء الفاطميين.

وفي السنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م سار رضوان صاحب حلب الى قيليقية (كيليكية) بجيش كثير، فخرج بيومند صاحب انطاكية ليطرده فوثب عليه رضوان وقتله. وكان بيومند بعد شاباً جاهلاً، فمات ولم يخلف الا ابنة من ابنة بلدوين، ودعا اسمها قونسطنسا، وحزن عليه جميع اهل انطاكية، وبالاخص بلدوين الملك بسبب ترمل ابنته، وعدم وجود من يدير انطاكية. واما زوجته فمن خوفها بأن يحرموها الحكم استنجدت عماد الدين زنكي قائد عسكر الاسلام، ولما سمع بلدوين بذلك سار حالاً الى انطاكية ليرتب امورها، فقصدت ابنته ان تمنعه من دخول انطاكية، وعندما خاب املها طلعت الى القلعة وتحصنت بها، فطلع اليها اكابر انطاكية فطيبوا خاطرها، وحضروا الى ابيها فلم يظهر انه حانق عليها بل اعطاها جبلة واللاذقية التي قدمها لزوجها في صداقها، واعطاها محافظة انطاكية تحت نظارة اناس امناء، ثم رجع الى بيت المقدس. وفي حال وصوله اصيب بحمى شديدة، وللوقت خرج من القصر ودخل على البطريرك فارسل واستحضر فولقان (فولك دي انجو) زوج ابنته الكبيرة ورؤساء البيعة وأعيان الجماعة، فاوصاهم بولده بلدوين وله من العمر سنتان وتوفي وقتئذ. فحزن عليه كل من كان يعرفه ودفنوه بعز في مقبرة

الملوك. وكان بلدوين الملك بطلاً شجاعاً، ملك نحو اثنتي عشرة سنة، وكسر المسلمين في عدة وقعات. واستفك من يدهم مدينة صور. وفيها تتوج فولقان (اوفولك دي انجو) ملكاً على القدس برضى الأمراء والاعوان، ثم توجه الى طرابلس ثم الى انطاكية ورتب امورهما واصلح بينهما، ومنع زنكي عن التجول في ارض الافرنج، وعاد الى القدس. وحال وصوله بلغه الخبر ان عسكر الموصل دخل الفرات ووصل الى قنسرين ليطرد الافرنج، فاسرع بالعودة اليهم وقتل منهم اكثر من ثلاثة الاف نفس، وغنم العسكر خيلهم وعبيدهم وخيامهم، وعادوا مسرورين الى مواطنهم. وفي هذه السنة توفي السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي ملك همدان، وكان حكيماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكرهه ولا يعاقب عليه مع مقدرته، وكان قليل الطمع بأموال الرعية. (واتفق وزيره ابو القاسم النشاباذي واتابكه اقسنقر الاحمديلي على مبايعة ابنه داود فطلبا الخطبة له من المسترشد خليفة بغداد، واختلف على ذلك هو وابن عمه مسعود ثم فصل بينهما خليفة بغداد وجعل الخطبة للسلطان سنجر).

وفي هذه السنة وقعت الالفة بين سمعان صاحب كسروان، والامير يوسف صاحب جبيل، وقدم الأمير يوسف الى سمعان عدداً من الخيل والجمال. وبعد مدة وجيزة كانت وفاة الأمير سمعان فتخلف مكانه خاله احد حفداء المقتول في قب الياس في ايام عبد الملك ابن مروان صاحب الشام، وكان ذا سطوة وبأس، فسار الى القسطنطينية ودخل على ملك الروم فاكرمه واثبت عليه امارة كسروان وكان اسمه كسرى. وقيل أن الملك سماه كسرى، ومن ذلك الوقت سميت كسروان وكانت قبل ذلك تسمى بلاد المردة.

وفي السنة ٥٢٦ هـ = ١١٣١ م قال ابن الحريري في ٢١ رجب توفي تاج الملوك بدري ابن طغتكين ملك دمشق، وذلك انه وثب عليه اسماعيلي فجرحه ومات من ذلك الجرح، وملك بعده ابنه شمس الملوك اسماعيل. واوصي بأن بعلبك وأعمالها تكون لولده شمس الدولة محمد. وفيها يقول ابن الحريري ان عسكر حلب الاسلامي غزا اللاذقية واسر من الافرنج سبعة الاف، وأخرب اللاذقية. وفيها صارت الفتنة بين الافرنج لسبب صاحب يافا فسار

اليهم فولك دي انجو الملك لأجل الصلح وحفظ الطاعة فسار شمس الملوك صاحب دمشق على غفلة من الافرنج الى حصن بانياس فملك المدينة بالسيف وتسلم القلعة في الأمان، وغنم امتعتهم واسر كثيرين منهم. وفيها تزوجت قونسطنسة (ابنة بيومند او بوهمند) صاحب انطاكية الامير ريموندس برضى الملك وامراء الافرنج، وترك رايموندس انطاكية لاجل زوجته. وكان المذكور شاباً جميل المنظر محباً لاهل العلم وبطلاً في الحروب، قنوعاً بنفسه وكريماً لغيره. وفيها بنى الملك حصناً منيعاً في بيت جبريل (قيل انها هي بير سبع) ليمنع اهل عسقلان من الجولان بارض الافرنج، وامر الخليفة صاحب مصر ان كل ثلاثة اشهر تتجهز النجدة الى عسقلان من الرجال والميرة والات الحرب ليضعفوا قوة الافرنج. وفيها تملك اسماعيل ملك دمشق مدينة حماة وطرد منها زنكي الذي كان اخذها من سونج بالغدر. وانتقل اسماعيل في الجيش الى سيجر، فنهب البلد وحاصر القلعة وعاد عنها لاجل المال الذي على صاحبها وسار الى دمشق. وفيها جمع عماد الدين زنكي ابن سنقر عساكر التركمان، وقصد طرابلس، فخرج اليه صاحبها بجماعته فتحاربا فوق المدينة، وكانت الهزيمة على الافرنج. فاخذوا بنطس صاحب طرابلس الى الجبل وقتلوه وحصر التركمان الافرنج في حصن بعرين. ثم ان رايموندس ابن بنطس تخلف على طرابلس بدل ابيه، وجمع عسكر الافرنج وخرج لمحاربة التركمان، فاقاموهم عن حصار حصن بعرين، وامسك الذين اشتركوا في قتل ابيه واخذهم واولادهم ونساءهم الى طرابلس واهلكهم جميعاً بانواع مختلفة. وفي هذه السنة لما سمع ملك الروم ان الامير رايموندس تزوج ابنة بيومند (بهومند) من غير مشورته ولا رضاه، وتملك انطاكية، جمع جيوشاً كثيرة وسار الى بلاد الشام بخيول عربية واموال جزيلة لا تحصى. وعند وصوله الى كيليكية تملك طرسوس، ثم ادنه، ثم لسترة (وهي المصيصة) وولى عبده على كل بلاد كيليكية وعلى كل مدنها وحصونها، وكانت تحت سلطنة الافرنج مدة اربعين سنة. ثم انه قصد انطاكية فاحاطت بها الروم من كل جهة، واشتد عليها الحصار، وكان زنكي قد دخل بالتركمان والعربان الى ولاية طرابلس وحاصر حصن منفرنت الذي فوق رافانه. فوصلت هذه الاخبار الى

فولك ملك القدس، فسار بفرسان الافرنج الى جهة طرابلس، فرفع زنكي الحصار عن الحصن وخرج الى لقاهم فهزمهم، وضايقهم في مضيق حرج، واعمل السيف فيهم، وقبض على القومي صاحب طرابلس، واخذ خيام العسكر وخيلهم وجميع المواشي التي كانت معهم، والتجأ الملك فولك الى الحصن مع اناس قلائل. ثم ان زنكي رجع الى محاصرة الحصن فقتل كثيرين وجرح كثيرين. ولم يزل يضايق الحصن ليلاً ونهاراً حتى الزم الذين فيه ان يسلموه لعماد الدين زنكي، بشرط انه يطلق سبيل القومس، ولا يضر باحد من رفاقه، فارتضى بذلك زنكي لانه اتاه خبر بقدوم عساكر الافرنج من بلدان بعيدة لينجدوا ملكهم وحال وصول الافرنج الى وطاء عرقة اجتمعوا بصاحب الرها وصاحب انطاكية اللذين تركا بلدانهما بيد الاعداء، واسرعا الى معاضدة الملك فشكر فضلهما، وجد عملهما وعاد الى القدس. واما الاميران صاحب انطاكية وصاحب الرها فسارا الى انطاكية، واذ لم يكن لهما قوة لمقاومة جيوش ملك الروم ادخلوه بالامان، ووضعوا رايته فوق القلعة بشرط انه يستخلص حلب وشيزر وحماه من يد المسلمين وتكون هذه الاماكن وما يليها لامير انطاكية. وتكون انطاكية لملك الروم وحده. فارتضى بذلك الملك واكرم الامير وخلع عليه خلعاً شريفة وعطايا منيفة، ثم عادوا الى طرسوس وشتى فيها، وبعدما مهَّد امور كيليكية وبلاد الشام عاد الى القسطنطينية. وفي هذه السنة ارسل السلطان سنجر الى عماد الدين زنكي ودبيس ابن صدقة يأمرهم بالحضور الى العراق فساروا اليه ونزلوا شرقي الدجلة. وعبر الخليفة المسترشد بالله الى الجانب، والتقى العسكران بحصن البرامكة فحمل زنكي على خيمة الخليفة، فالتقته البطانة وعظم القتال فانهزم دبيس وعماد الدين وقتل من عسكرهم جماعة، ثم قدم الخليفة الى الموصل وضيق عليها الحصار مدة ثلاثة اشهر، فلم يملكها فعاد الى بغداد.

وفي السنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م يقول ابن الحريري : سار اسماعيل ملك دمشق الى حصن الشقيف وتملكه بعدما امتنع عليه، واخذه من الضحاك ابن جندل رئيس وادي التيم، فعظم ذلك على الافرنج، وقصدوا بلاد حوران، فناوشهم شمس الملوك بجمع كثير ثم اغار على بلادهم من جهة طبرية

فرحلوا عائدين ثم تهادنوا. وفيها استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الاكراد الحمادية وعلى القلاع العكارية (وروى الهكارية) وكواشي. وفيها تقرر الصلح بين المسترشد خليفة بغداد وبين عماد الدين زنكي، ثم سار المسترشد بالله الى حرب السلطان مسعود ومعه جماعة من الامراء، فواقعهم السلطان مسعود عاشر رمضان فخانت الامراء الخليفة، واحاط به عسكر السلطان محمود، وقبضوا عليه، واتوا به الى السلطان مسعود فوكل به جماعة وقام بما يجب عليه من خدمته. ثم تقرر الصلح بينهما على مال يؤديه الخليفة ولا يعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره. فرضي الخليفة بذلك وهمَّ بالرجوع الى بغداد، فدخل عليه اربعة وعشرون رجلاً من الباطنية، وقتلوه وقطعوا انفه وأذنيه وتركوه مرمياً في الخيمة عرياناً. وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة اشهر، وقتل على باب مراغة ودفنه اهلها وكان عمره ٤٣ سنة.

الفصل الثالث والثلاثون

في خلافة الراشد وهو الثلثون من العباسيين

وبعد قتل المسترشد بويع بالخلافة الى ولده المنصور ولقب بالراشد بالله. وكان المسترشد بايع له بولاية العهد في حياته فجددت له البيعة بعد قتله.

وفي السنة ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م وثب الاسماعيلية على الملك اسماعيل ابن البوري صاحب دمشق فقتلوه، وكانت مدة دولته ثلاث سنين. وتملك دمشق بعده اخوه محمود وتلقب بشهاب الدين، واتابكه معين الدين معز. وفيها تسلم شهاب الدين محمود ابن بوري حمصاً وقلعتها. وفيها سار فولك ملك القدس الى خارج نهر الاردن ليأخذ الحصن الذي على رأس الجبل المقابل جبل جلعاد، وكان معه عدد غفير من الذين قدموا الى زيارة القدس، وقصد الملك ذلك الحصن لانه كان يجتمع فيه المسلمون من بلاد موآب وعمون وجلعاد، ومن هناك كانوا يتجولون في ارض القدس. وكان مركز الحصن منيعاً جداً لان داخل بابه مغارة، والطريق التي تؤدي اليه ضيقة، وبعد حصار شديد تملكه الافرنج. وفيها كانت الوقعة عند حبرون بين الافرنج واهل عسقلان وكانت الكسرة على الافرنج. وفيها سار الى بعرين فجمع الافرنج جيوشهم وملوكهم وجرى بينهم قتال شديد، فانهزمت الافرنج الى حصن بعرين، وعاد زنكي الى حصار الحصن وضيق عليهم حتى طلبوا الامان، فقرر على تسليم الحصن خمسين الف دينار. وفيها سار ملك الروم الى بلاد الشام

ثاني مرة وكان معه اولاده وجيش عظيم. وفي حال وصوله الى ايطاليا مات له ولدان، فوكل بهما اخاهما اسحق ليأخذهما ويدفنهما في القسطنطينية. ثم سار الى طور بسير التي بقرب الفرات، فخرج للقاه جوسلين امير الرها فطلب منه رهناً لاجل حفظ الطاعة. فارهن جوسلين ابنته اذ لم يقدر ان يقاوم قوة ملك الروم، ومن هناك انتقل الملك الى جهة انطاكية، وارسل قصادة الى الامير لكي يدخل خيامه داخل المدينة كما سبق العهد. فضجت اهل انطاكية كلها بصوت واحد ان هذا الشيء لا يكون، وان اذن له بالدخول فيخلونها كلهم او يبذلون نفوسهم دونها فحنق الملك من كلامهم، وابقى فتح المدينة لوقت اخر، وعاد الى كيليكية ليشتي عسكره فيها. وفي هذه السنة وثب غلام ارمني على دبيس ابن صدقة فقتله، وكان ذلك بتدبير السلطان مسعود.

وفي السنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م اجتمع الملوك واصحاب الاطراف ببغداد، وخرجوا عن طاعة السلطان مسعود، وسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر اذربيجان الى بغداد، ووصل اتابك عماد الدين بعده من الموصل، وخطب للملك داود ببغداد فلما بلغ السلطان الخبر جمع العساكر وسار الى بغداد وحاصرها خمسين يوماً ونيف، ولم يظفر بها، فعزم على العودة الى همذان، فوصله طرنطاي صاحب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد اليها. فاختلفت كلمة الامراء المجتمعين ببغداد، فعاد الملك داود الى بلاده وتفرق الامراء، وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر اليه الخليفة الراشد وسار معه الى الموصل في نفر يسير من اصحابه، ودخل السلطان مسعود الى بغداد واستقر بها، وجمع القضاة والشهود والفقهاء. وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد له وفيها بخط يده، انني متى جندت او خرجت او لقيت احداً من اصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الآمر، فافتوا بخلعه وقطعت خطبته من بغداد وسائر البلاد، وكانت خلافته احد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً. وفي هذه السنة كان ابو علي المهندس المصري موجوداً بمصر قيماً بعلم الهندسة، وكان فاضلاً فيه وفي الادب، وله شعر يلوح عليه الهندسة فمن شعره :

تقسَّم قلبـــي في محبـــة معشر بكـل فتـى منهـم هواي منـــوط
كأن فؤادي مركـــز وهـــــم له محيـط واهـواي لديـه خطـــوط

ولـه ايضاً

اقليدسٍ العلـم الـذي هو يحتـوي ما في السماء معاً وفـي الافـاقِ
هو سلَّـــم وكأنمــا اشكالـــــه درجٌ الـــى العليـــاء للطـــــراق
تزكـــو فوائـــده علـــى انفاقــه يا حبـــذا زاكٍ علـــى الانفـــاق
ترقـى به النـفس الشريفـة مرتقـى اكـرم بذاك المرتقـــى والراقـــي

الفصل الرابع والثلاثون

في خلافة المقتفي ابن المستظهر وهو الحادي والثلثون من العباسيين

لما قطعت خطبة الراشد بالله تقدم السلطان مسعود لكتابة محضر يذكر فيه ما ارتكبه الراشد من اخذ الاموال واشياء اخر تقدح في الامامة، ثم كتبوا فتوى هكذا « ما تقول العلماء في من هذه صفته هل يصلح للامامة ام لا ». فافتوا ان من هذه صفته لا يصلح ان يكون اماماً، فاستشار السلطان جماعة من اعيان بغداد فيمن يصلح للخلافة، فذكر الوزير محمد ابن المستظهر ودينه وعقله ولين جانبه وعفته، فأُحضر المذكور وأُجلس في الميمنة. ودخل السلطان والوزير وتحالفا، وقرر الوزير القواعد بينهما. وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء والقضاة وبايعوه ثاني عشر ذي الحجة ولقب بالمقتفي لامر الله.

وفي السنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م فارق الراشد المخلوع اتابك زنكي من الموصل، وسار الى همذان وبها الملك داود، وفيها دخل الى اصفهان، فلما كان اخر رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته، فقتلوه وهو يريد القيلولة، وكان في انتقاهٍ من مرض برأ منه، ودفن بظاهر اصفهان بشهرستان وكان عمره اربعين سنة.

وفي السنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م وصل اتابك زنكي الى حماه وارسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه امه ليتزوجها، واسمها زمرد خاتون

ابنة جاولي، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق على نهر بردى، فتزوجها وتسلم حمص مع قلعتها. وان ما حمله على التزوج بها ما رآه من تحكمها في دمشق، فظن أنه يملك البلد بالاتصال اليها، فلما تزوجها خاب امله ولم يحصل على شيء، فاعرض عنها. وفيها ملك حسام الدين تمرتاس ابن ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاخ، اخذها من بعض بني مروان وهو آخر من بقي منهم له ولاية. وفيها سار ملك الروم الي براغة، وهي على ستة فراسخ من حلب فملكها بالامان في شهر رجب، ثم غدر باهلها وقتل منهم واسر وسبى. ويقول ابن الحريري ان قاضيها تنصر ومعه اربعمائة نفس، ثم رحل عنها بمن معه الى حلب فنزل على قويق، وزحف على حلب، وجرى بينهم قتال شديد، فكسر المسلمون الروم، وقتلوا منهم بطريقاً عظيم القدر، ثم رحلوا الى الأثراب فملكوها، وتركوا فيها سبايا براغة، وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم. ثم سار ملك الروم الى شيزر ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، فخرج اليه زنكي بمن معه واوقع بمن في اثراب، فقتل الروم، وخلص اسرى براغة وسباياها. وارسل صاحب شيزر الى زنكي يستنجده، فركب زنكي وعسكره ونزل بجانب العاصي بين حماه وسيجر حتى رحل ملك الروم عنها، وارسل ملك الروم مكاتيب محبة الى فولك دي انجو ملك القدس يعلمه بأن في خاطره ان يزور المدينة، فأوجس فولك منه، ولكنه لم يجسر ان ينهيه عن ذلك، فاجابه ان البلاد مقحطة والاسعار غالية، ولا يمكن لمدينة القدس ان تقوم بما يلزم لجيشه، بل اذا قصد زيارتها فليصحب معه عشرة الاف نفس حتى يخرج هو بنفسه الى ملتقاه، ويتقبله بكل كرامة تليق بجلالته. فاقتنع ملك الروم بذلك، وأكرم نوابه بخيرات كثيرة. وعندما عاد ملك الروم الى طرسوس وخرج الى الصيد، حدث له جرح في يده بنشاب مسم، فمات منه وحزن عليه كل الجيش، وتملك عوضه ابنه مناويل، ومشى مناويل خلفه وحمل جسده ودفنه. اما الافرنج فاطمأنت خواطرهم من كل جهة، ولم يبق لهم في بلاد القدس الا مدينة عسقلان. فبنى الملك فولك برجاً منيفاً بقرب اللد، وحصناً اخر في حدود ارض الفلسطينيين بقرب عسقلان. وبعد مدة عمر غزة وشيدها بالاسوار والابراج، فضعفت قوة الاعداء، وامنت البلاد من

غاراتهم. واما الست زوجة فولك أو فولقان فبنت لاختها ديراً في بيت عنيا، واقامت له حصناً منيعاً ليصونه من الامم الغريبة، وانعمت على ذلك الدير باوقاف وعطايا جزيلة. وفي هذه السنة توالت الزلازل بالشام واخربت كثيراً من البلاد ولا سيما حلب، حتى فارق اهل حلب بيوتهم وخرجوا الى الصحراء.

وفي السنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م وثب المماليك على شهاب الدين محمود ملك الشام فقتلوه، وقدم اخوه جمال الدين محمد من بعلبك فتسلم دمشق واعطى مدينة بعلبك لمعين الدين اتز. فلما رأى ذلك عماد الدين زنكي سار الى بعلبك فملكها بالامان، وعصت عليه القلعة اياماً، فامنهم وسلموه القلعة، فلما ملكها غدر بهم وقتلهم عن اخرهم.

وفي السنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م قويت شوكة عماد الدين زنكي وسار الى دمشق، فخرج اليه محمد صاحبها وتواقعا فانهزم عسكر دمشق، وقتل منهم خلق كثير. وزحف زنكي بأهل الموصل وكاد ان يأخذ البلاد. ثم ارسل الى صاحبها محمد ابن بوري، وبدل له حمص ببعلبك، فلم يرضوا ولم يأمنوه بسبب غدره باهل بعلبك وثبت نازلا على داريا حتى مرض محمد صاحب دمشق ومات، وتولى على دمشق ولده مغير الدين اثق. فطمع بالاكثر زنكي على اخذ المدينة وزحف عليها واشتد القتال، فاستنجد مغير الدين صاحب دمشق بفولك ملك القدس، ولاجل تصديق القول وعده ان يقدم لعسكر الافرنج كل شهر عشرين دوكة ذهب، وانه متى ارتحل زنكي عن دمشق تكون بانياس لفولك ملك القدس، وارسل له اولاد امراء دمشق ليكونوا عنده رهناً. فرضي بذلك ملك القدس، وجمع امراء العساكر عند طبرية وزحفوا على زنكي فانهزم من قدامهم وهرب. ثم أنهم طلبوا ان يستولوا على بانياس فاستعلموا ووجدوا ان الذي كان حافظها من قبل مغير الدين سلمها بيد زنكي. ثم احاطت الافرنج ببانياس ونصبوا حولها برجاً من خشب وشددوا عليها الحصار حتى ملكوها بالامان. واما زنكي فعاد الى محاصرة دمشق واحرق عدة قرى من المرج وارتحل عنها. وفيها ملك زنكي شهرزور واخذها من

صاحبها ابن ارسلان التركماني، وفيها اخذت الاسماعيلية حصن مصياف وجبلة.

وفي السنة ٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م خرج الملك فولك يتنزه في بساتين عكا وكان صحبته جماعة، فوثب عليه احد خواصه فقتله وكان له في الملك احدى عشر سنة. وفيها وقعت الفتنة بين جوسلين وبين الامير صاحب انطاكية، فطمع بهما عماد الدين زنكي وقصد فتح الرها. وكان جوسلين في دير بسال الذي يبعد عن الرها مسافة يوم، فارسل جوسلين يستنجد ببلدوين الملك والامير، فتأخر عنه الامير بسبب العداوة التي كانت بينه وبين جوسلين، فحاصر زنكي الرها ثمانية وعشرين يوماً وشدد عليها الحصار حتى ملكها بالسيف، وضرب اهلها بالسيف قبل ان يصل بلدوين الملك لنجدتها. وفي اخر هذه السنة توفي خرقان ملك الخطا وهو الذي هزم السلطان سنجر واستولى على بخارا وسمرقند، وكان طاغياً جباراً وكان عدد جيشه ثلاث مائة الف.

وفي السنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية من السلجوقية.

وفي السنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م اصطلح عماد الدين زنكي مع السلطان مسعود، وسار زنكي بعسكره الى ديار بكر فتملك طنزه وسعود وخيران وحصن الروق وحصن تفليس وحصن باسا وحصن ذي القرنين، واخذ من بلاد ماردين كلما هو بيد الافرنج حملين والموزر وتل موزر وحصون شب جان. وفيها اخذ المسلمون الحصن الذي في وادي موسى النبي، حيث ضرب الصخرة واخرج منها للشعب العطشان ماء، وهو في بلاد الشوبك، وكان بيد الافرنج. فسار الى ذلك الحصن بلدوين الملك وشدد عليه الحصار فما قدر على اخذه، وعندها قصد الافرنج ان يحرقوا الزيتون الذي في تلك الوادي بعد ان يقطعوه، فاضطر اهل البلاد ان يسلموا الحصن بالامان ولا يخسروا النتاج الذي يأتيهم كل سنة من الزيتون.

وفي السنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م سلم زنكي سروج وسائر الاعمال التي كانت بيد الافرنج بشرقي الفرات. ونزل على البيري وحاصرها فسمع ان نايبه

قتل بالموصل فرحل عنها. ثم ان نجم الدين صاحب ماردين تسلم البيري من الافرنج. وفيها قدم صاحب بصرة التي في بلاد العرب الى عند بلدوين الملك وطلب منه نعمة ان يسلمه بصرة، فرضي بذلك بلدوين. وزحف بالعسكر الى بلاد الشوبك فاحتمل مشقة عظيمة من الشاميين ومن اهل البلاد، ولا سيما من زيادة الحر وعدم وجود الماء في الطريق، وعندما وصلوا وجدوا ان زوجة الرجل صاحب بصرة سلمت المدينة للمسلمين، فرجعوا الى القدس مهزومين. واما قائد جيش المسلمين فامسك الرجل صاحب المدينة، وسمل عينيه واستولى على جميع امواله. وفي هذه السنة ظهر الجراد في بلاد الشام. وفي هذه السنة ظهرت البدعة في بلاد جبيل وكسروان من رجلين كانا يقولان ان الله تعالى لم تكن له روح مخلوقة وطبعه غير قابل الاوجاع والالام ووقع الانشقاق والاختلاف بين نصارى تلك البلاد. وحين بلغ الملك الظاهر برقوق جهز العساكر، وغزا نواحي كسروان واقام الحرب عليها سبع سنين. وأحرقت عساكر المسلمين تلك القرايا التي في بلاد جبيل وكسروان، وقطعت الاشجار الى ان تولى الملك صلاح الدين يوسف اول ملوك الايوبيين، ولم يبق مكان عامر سوى حصن معراب، وهربت نصارى كسروان وبلاد جبيل الى نواحي بلاد الشوف، وصارت بلاد كسروان برية مقفرة. واما بلاد جبيل والبترون فكانت آهلة برجالها في نواحي نهر ابراهيم.

وفي السنة ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م حاصر عماد الدين زنكي قلعة جعبر، وكان صاحبها علي ابن مالك العقيلي، واستمر مدة نازلاً عليها فوثب عليه جماعة من مماليكه فقتلوه ليلاً وهو سكران في خامس ربيع اول. وكان عماد الدين زنكي ابن سنقر صاحب الموصل رجلاً شجاعاً مهوباً، حكم على مدائن كثيرة، ولما قتل اخذ ابنه نور الدين محمود خاتم والده وسار الى حلب فملكها، وكان اخوه سيف الدين غازي بشهرزور، فسار الى الموصل واستقر على ملكها. وفيها سمع مغير الدين سلطان دمشق بقتل زنكي فاتى وحاصر حصن بعلبك وتسلمها بالامان، واعطى لنجم الدين ايوب حافظها اقطاعاً وعدة قرى من بلاد دمشق.

وفي السنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م جمع نور الدين ابن زنكي الجيوش

الحلبية والشامية وتوجه لنواحي الموصل لمقاتلة اخيه سيف الدين، فارسل نصارى الرها يعلمون جوسلين بأن الرها كانت خالية من المسلمين، فقطع جوسلين الفرات بجماعته ووصل الى الرها ليلاً، فادخله النصارى من الصور، وتملك المدينة، ووضع الحصار على القلعة التي كانت بيد المسلمين. فجمع نور الدين الرجال من داخل الفرات ومن خارجه، ونصب المنجنيقات والحصار على المدينة، فطلب الافرنج الرحيل لعدم وجود آلات الحصار معهم ولقلة الميرة، وخرج معهم نصارى المدينة بنسائهم واولادهم، فوثب عليهم نور الدين واهل القلعة واخذوهم في الوسط، ولم يعفوا عن كبير ولا عن صغير منهم، فقتلوا الجميع وغنموا كل ما كان معهم. ولم يفر الا جوسلين ونفر قليل من جماعته دخلوا شيمشاط، والاخرين هربوا الى مواضع اخرى، ثم دخل بلاد الافرنج وفتح مدينة اريحا بالسيف، وحصن مامولا وبصرفوت وكفرلانا. وفيها كتب مغير الدين ملك دمشق الى الامير بحتر ابن شرف الدولة ابن تنوخ المشهورين بامراء الغرب بثغر بيروت ان يتصرف بالقرى التي بالجبل المجاور مدينة بيروت كما كان يتصرف بها والده. وفي هذه السنة عندما ضعفت أحوال الإفرنج في بلاد الشام وأخذت منهم الرها ارسلوا مكاتيب ومراسيل الى بابا رومية، فارسل المذكور مكاتيب الى ملوك الافرنج وبلدانهم ينذرهم ويحثهم على السفر الى بلاد الشام فامتثلوا كلامه. وتجهز غوفراد (كودفرا امبراطور النمسا). والملك لويس ملك فرنسا مع جملة امراء ومقدمين وشعب لا يحصى عدده من اصقاع مختلفة. فقدم اولاً امبراطور غوفراد الى جهة القسطنطينية وكان بصحبته ثلاثماية الف مقاتل ونيف، ولما وصلوا الى القسطنطينية ترحب بهم مناويل ملك الروم وارسل معهم قوم منافقون لكي يضلوهم في الطريق، فاجتازوا بهم في بلاد الميترنيط وادخلوهم الى بلاد ليقاونية على طريق البرية، وتركوهم ليلاً ورجعوا. وشاع الخبر عنهم ان جيشهم غطى الارض (بالاموات). فارسل سلطان ايقونية يطلب النجدة من بلاد المسلمين ويعدهم بكثرة الاموال، فاتت اليه الجيوش من ارمينية وكبدوكية وقيليقية وماردين والموصل لنجدته. لما كان جيش الافرنج معذباً ومهاناً من مشقة الطريق وخالياً من الذخيرة ومتفرقاً في الاماكن المقفرة،

وثبت عليهم عساكر المسلمين وغنموا اموالهم وخيولهم وقتلوا واسروا خلقاً لا يحصى عدده. ونظراً لعدم معرفتهم المسالك كانوا يسلمون انفسهم من غير قتال، وارادوا الرجوع مع الامبراطور الى نيقية. وبعد ذلك سار لويس ملك فرنسا في البحر، ولما وصل الى القسطنطينية وكان معه نحو سبعين الف مقاتل التقاه ملك الروم بكل اكرام وقدم له الهدايا والذخائر، ثم سار الى نيقية واجتمع بالامبراطور ملك النمسا، فتوجها معاً الى ازمير، ومن هناك الى افسس ثم الى اللاذقية. وفيها توفي عماد الدين زنكي ابن سنقر، وتملك ولده ايلغازي على الموصل. وكان شجاعاً مهوباً وتملك في حياته مدناً كثيرة، وكان حاضراً تلك الموقعة التي صارت مع الافرنج. وفيها سارت عساكر الملك الظاهر برقوق الى محاربة اهالي جبل لبنان الملقبين بالمردة، فاحرقت عساكر الاسلام بلاد كسروان وداسوا الاراضي الوعرة الصعبة حتى لم يبق في تلك النواحي ساكن، وهربت النصارى سكان كسروان الى جبل الشوف وقطنوا في تلك القرايا وعمروها كما سبق.

وفي السنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م انتقل لويس ملك فرنسا بجيشه إلى جهة اللاذقية وعندما وصلوا الى النهر وقف عسكر المسلمين بازائهم يمنعهم عن الدخول، فامتدوا الى المخاضة وقطعوا النهر وزحفوا على الاعداء فكسروهم وغنموا اموالهم. وبعدما اجتازوا اللاذقية قصدوا طلوع جبل عال عند العصر وهم متعبون من رداءة الطريق وصعوبة الطلوع، فاعترضهم في طريقهم عسكر الاعداء فشتت شملهم وكسرهم كسرة عظيمة. ثم بعد جهد جهيد ومن قلة المؤونة وصعوبة الطرق دخلوا بلاد الشام. وفي وصولهم الى نهر العاصي خرج الامير صاحب انطاكية وحاشيته فاستقبلوهم بكل العز والاكرام، واكرمهم بالتحف والعطايا، وبالاخص لكون زوجة الملك لويس كانت ابنة اخي الامير وكانت برفقته. ثم ان ملك فرنسا سار في طريق البر من انطاكية، وكونراد في طريق البحر ووصلا كلاهما الى زيارة مدينة القدس فاستقبلهما ملك القدس بفرح لا يوصف وفيها اجتمعت ملوك الافرنج الثلاثة مع امرائهم وجيوشهم واتفقوا على استخلاص مدينة دمشق، وساروا معاً الى طبرية، ثم الى بانياس، ثم الى داريا التي تبعد عن دمشق مسافة اثني عشر ميلاً. ذكر ابن سباط ان

عددهم كان ستين الف راجل وستة الاف فارس وقيل عشرة الاف. فبرز عسكر دمشق وكان عدده نحو المائة الف راجل فالتقيا واقتتلا فقتل من المسلمين نحو مائتي رجل، فتحاربا ثانية في اليوم الثاني، وقتل خلقٌ كثير من الفريقين. وفي اليوم الخامس من وصول الافرنج لقرب دمشق، وصل سيف الدين ايلغازي صاحب الموصل بعشرين الف راجل لنجدة دمشق، ووصل اخوه نور الدين محمود بنحو عشرة الاف رجل من حلب وحماه. وكان اهل دمشق دهمهم الرعب، وفرشوا الرماد، وفتحوا المصاحف في الجوامع، واستغاثوا بالله وهم مكشوفو الرؤوس. ولما وصلت تلك النجدة واشتد القتال ذلت قلوب الافرنج ووقع الاختلاف بينهم، فانهزموا وقتل منهم الوف كثيرة، وقتل ايضاً من المسلمين خلقٌ كثير ومن جملتهم شاهشاه ابن نجم الدين ايوب. ومن هذه الوقعة ذلت الافرنج وطمع بهم الاعداء. ثم ان كونراد الامبراطور رجع في البحر الى بلاد المانيا، وفي حال وصوله توفي وتخلف بعده في الملك ابن اخيه قادريك امير الصابوبية الذي هو ايضاً كان برفقته في زيارة القدس. وكذلك ملك فرنسا بعدما عيد في القدس عاد الى مملكته. وقيل ان كثرة الزنا والفحش الذي اجراه الافرنج كان سبباً حتى منعهم الله ان يستملكوا مدينة دمشق. ذكر في تواريخ الروم ان في هذه السنة كانت وفاة الملك يوحنا هيلاكيوس الكومنيس ملك الروم. وكانت مدة تملكه اربع وعشرين سنة وسبعة اشهر، وعاش في المملكة كما عاش والده بكل عدل وسلام مع الشعب. وبعد وفاة الملك يوحنا تملك على شعب الروم ولده مانوئيل.

وفي السنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م كان الغلاء العظيم الذي عم الخلق من خراسان الى الشام والى الغرب. وفي تلك السنة ظهرت شهب وعلامات مريعة في الفلك، ووقعت صاعقة في جبل صهيون، واخرى على هيكل كنيسة القيامة. ذكر ابو الفرج انه بهذه السنة توفي سيف الدين غازي ابن اتابك زنكي صاحب الموصل بها من مرض حاد، ولما اشتد مرضه استدعى اوحد الزمان ابا البركات من بغداد، فحضر اليه ورأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجع الدواء، وتوفي في آخر جمادي الاخرة وكانت ولايته ثلاث سنين. وولي امر الموصل

والجزيرة بعده اخوه قطب الدين مودود، وكان اخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماه، فسار الى سنجار وملكها ولم ينازعه اخوه قطب الدين، ثم اصطلحا واعاد نور الدين سنجار الى قطب الدين، وتسلم هو مدينة حمص والرحبة فأبقى الشام له وديـار الجزيـرة لاخيـه. وذكـر ابن سباط بهذه السنة جمع نور الدين من بلاد الشرق جيشاً عظيماً وسار الى محاصرة قلعة نيبه التي بيد ريموند البرنس صاحب انطاكية. فجمع البرنس خاصته وخرج اليه فتخوف منه نور الدين، وارتحل عن القلعة، فطمع البرنس في نور الدين وقصد طرده بجمع قليل. ثم ان نور الدين احاط به بجيشه الكثير فقتل البرنس، ورواينولد صهر جوسلين صاحب الرها والذين كانوا معهما، واخذ جميع ما كان معهما. وقطع نور الدين رأس البرنس ويمينه وارسلهما الى الخليفة، وارسل نور الدين جماعته تقتل وتحرق وتنهب جميع ما في بلاده، وقويت شوكة نور الدين حتى أنه نزل واغتسل في مياه البحر الذي تحت انطاكية، فضعف ملك انطاكية، ولم يكثر عليه الا البكاءُ وقطع الامل. وفي الرجعة قصد نور الدين قلعة حارام فحاصرها وتملكها. وكان رايموند امير انطاكية شجاعاً شديد البأس مهوباً لكنه قليل السعد وقتل في شهر حزيران (يونيو) بين حماه وحصن الروج حيث كانت الوقعة، فاهتدى النصارى الى جثته واخذوها ودفنوها في انطاكية. ثم ان ملك القدس سار الى انطاكية فمهد امورها وشدد قلوب الناس، وملك على انطاكية ابن الامير رايموند الذي كان اسمه بيموند وكان طفلا، فتزوجت امه ببرنس اخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها، وطلع ملك القدس لمحاصرة قلعة حارام، ثم رحل عنها. وفيها توفي الحافظ صاحب مصر في جمادي الاخرة وكانت خلافته عشرين سنة. فبويع بعده بالخلافة لولده الظافر بامر الله ابو المنصور اسماعيل وهو الثاني عشر من الخلفاء الفاطميين بمصر. وفي هذه السنة توفي الامير معن وتولى مكانه على جبل الشوف ولده الامير يونس.

وفي السنة ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م اخذت العرب مركب العراق، وتشتت الحجاج واستغنت العرب في اموالها. وفي هذه السنة نازل نور الدين دمشق فخرج اليه صاحبها مع وزرائه وخضعوا له ففرق لهم الاموال وخلع عليهم

ورجع الى حلب. وفيها حدث في بلاد اليمن مطر احمر فبقي اثره على الدواب وعلى الارض وعلى ثياب الناس.

وفي السنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م ذكر ابن سباط انه سار نور الدين محمود بجيوشه الى بلاد جوسلين الافرنجي وهي شمالي حلب، وكان جوسلين فارس الافرنج قد جمع الشجاعة والرأي فسار في عسكره نحو نور الدين فاقتتلا، واسر، وقتل من رفاق نور الدين جمع غفير ومن جملتهم السلحدار الذي كان حاملاً سلاح نور الدين، فهجر نور الدين البلاد لاجل كسرته، وجمع التركمان ووعدهم باموال كثيرة ان ظفروا بجوسلين، فطلع جوسلين الى الصيد فباغته التركمان وامسكوه واحضروه الى نور الدين اسيراً فانعم عليهم نور الدين، وقتل جوسلين الذي كان اعظم فرسان الافرنج. ثم ركب نور الدين على بلاد جوسلين وقلاعه فملكها، وهي : تل باشر وعين تاب ودلوك وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلانا ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح منها موضعاً حصنه بما يحتاج اليه من الرجال والذخائر، فذلت الافرنج في بلاد الرها وبلاد انطاكية وبالاخص لسبب العداوة التي كانت بين امرائها. وعندما قتل الامراء اصحابها صارت تحت تدبير النساء، ولما علم بذلك ملك الروم ارسل عسكراً عظيماً لاستخلاص تلك البلدان من يد الافرنج، واجتمع مع اهل توربسال ملك القدس وصاحب طرابلس وجماعة انطاكية، فتأملوا خراب تلك النواحي وبعدها عن القدس نحو خمسة عشر يوماً، فشرعوا ان يسلموها للروم صلحاً لئلا تأخذهم الاسلام بالسيف، فاخلوا توربسال وجميع ما كان للافرنج في تلك الجهات في يد قائد جيش الروم، وخرجت زوجة جوسلين واولادها وجميع الافرنج ونصارى البلد الذين طلبوا رفقتهم، وتركوا مواطنهم بالبكاء والنحيب وساروا الى بلدان لم يدخلوها. فلما سمع نور الدين ان الافرنج سلمت القلاع الى الروم زحف عليها واخذها كلها حتى وصل الى ابواب انطاكية. وفي هذه السنة كانت الفتنة بين بلدوين ملك القدس وبين والدته حتى انقسمت المملكة بينهما. فاخذت الملكة والدته القدس ونابلوس اللتين من ابيها واخذ الملك صور وعكا مع سواحل البحر. ثم

ان بلدوين جمع العساكر وتملك نابلوس بالسيف وزحف الى القدس فهربت والدته الى برج داود وتسلم بلدوين المدينة من أعيانها. ثم انه وضع الحصار على برج داود وضايقه مدة، فدخل بينهما أعيان البلد وصار الاتفاق ان نابلس تكون لوالدته والباقي للملك. وفي هذه السنة توفي الحافظ لدين الله وكان مولده بعسقلان ايام القحط المفرط بمصر لما بعث جده المستنصر بالله عياله الى الشام خوفاً من الهلاك جوعاً. وكانت خلافته عشرين سنة وعمره سبعة وسبعون سنة. وكان وزيره ابو علي ابن الافضل ابن امير الجيوش وتلقب بالفضل، وكان ابو علي عادلاً يميل الى السنَّة، وابطل في الآذان « حيَّ على خير العمل ». واهمل اشعار اللفظ وضيق على الحافظ وحجز عليه. ثم وثب عليه بعض الامرآء فقتله. وتخلف الحافظ بعده. ثم استوزر بعده بهرام وتلقب بتاج الملوك. ثم قتله واستوزر بعده ابا الفتح رضوان، وكان وزيره الى ان مات الظافر بامر الله واسمه اسماعيل ابن الحافظ لدين الله ابن الامير ابي القاسم محمد بن المستنصر بالله وكني بابي المنصور ولقب بالحافظ لدين الله. وهو الثاني عشر من الخلفاء الفاطميين المصريين.

وفي السنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م قتل رايمندوس صاحب طرابلس غدراً، وكان مقتله داخل باب المدينة. وكان حينئذٍ في طرابلس بلدوين الملك وزوجته واختها قرينة جوسلين، فحزنوا عليه حزناً شديداً وحسبوا موته من اسباب قلة سعدهم في ارض الشام. فرتب بلدوين الملك امور طرابلس وسلم تدبيرها ليد زوجة رايموندس ويد ابنها وله من العمر اثنا عشر سنة. وفيها سار بعض المسلمين الذين كانوا سابقاً اصحاب القدس الى استفكاكها من يد الافرنج، فجمعوا عسكراً عظيماً وقطعوا نهر الاردن ونزلوا في جبل الزيتون شرقي المدينة. وكان يومئذٍ بلدوين الملك في نابلس، فخرج عسكر الافرنج من القدس وضايقوا المسلمين في طريق اريحا، وكسروهم وقتلوا منهم عدداً غفيراً لضيقة الموضع ومشقة الطريق، والذين فروا وقعوا بيد بلدوين الملك فاهلك اكثرهم بالسيف. وقيل ان عدد القتلى بلغ خمسة الاف فغنمت الافرنج خيولهم واموالهم.

وفي السنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م قتل العادل وزير الظافر صاحب مصر،

وكانت الوزارة في مصر لمن غلب. فقصد الافرنج مدينة عسقلان التي كانت لخلفاء مصر، فاحتاط بها الجيش براً وبحراً وشددوا عليها الحصار، لأنها كانت متأهبة ومجهزة بالميرة وآلات الحرب. وفي الشهر الخامس أتتها النجدة من مصر سبعين غراباً وعدة مراكب كبيرة موسوقة مؤونة وسلاحاً، فرحلت مراكب الافرنج من امامهم بسبب قلتها. واستنجد الافرنج بالزوار الذين قدموا من بلاد النصارى واكرموهم بالعطاء، فيئس اهل عسقلان وسلموها للافرنج بالامان بشرط أنه يسمح لهم بالخروج بسلام هم ونساؤهم واولادهم واموالهم. وفيها دخل الافرنج عسقلان ووضعوا رايات الملك على اسوارها. واما الملك بلدوين فاكرم فرسان العسكر بالمال وانعم على بعضهم بالعطايا النفيسة. وولى الماريكوس اخاه على تدبير عسقلان. وفيها حاصر نور الدين بانياس مدةً ورحل عنها. وفيها تزوج رنيلدوس قونسطنسة زوجة الامير صاحب انطاكية وتولى على ملكه. وفيها خطب الامير خاصبك للسلطان محمود في السلطنة ورتبها وقرَّرها بين يديه، ثم انه قبض عليه وارسل الى اخيه السلطان محمد يستدعيه اليه. وكان قصده ان يحضر ليقبض عليه ويخطب لنفسه في السلطنة، ولما حضر السلطان محمد من خراسان اجلسه على العرش وخطب له بالسلطنة، ثم شعر السلطان محمد بخبث خاصبك فقتله واستقر محمد بالسلطنة.

وفي السنة ٥٤٩ هـ = ١١٤٤ م كان مقتل الظافر خليفة مصر، قتله وزيره عباس الصنهاجي لما قيل له انه يفسق في ولدك نصر، وضبط امواله وذخائره وخزائنه، وهرب منها الى الشام. فوقع بالطريق في يد الافرنج، فقتلوه واخذوا ما معه من الاموال، واسروا ابنه نصراً، وبنى الظافر في القاهرة ابراجاً وقلعاً حصينة. وكانت مدة خلافته خمس سنين. وتولى بعده ولده الفائز (أو القائم) بنصر الله ابو القاهر عيسى وهو الثالث عشر من الخلفاء الفاطميين، والعاشر بالديار المصرية. وكان وزيره طلائع ابن زيرك ولقب الملك الصالح، وبنى جامع الصالح الذي خارج باب زويلة. يقول ابن سباط أنه لما بلغ الملك نور الدين محمود ان الافرنج تملكت عسقلان خشي انهم يأخذون دمشق، فكاتب اهل دمشق واستمالهم اليه في الباطن، ثم سار اليها وحاصرها، ففتح له

الباب الشرقي ودخل منه وملك المدينة. وحاصر مجير الدين ارتق (آبق) ابن محمد ابن توزي (بوري) صاحبها في القلعة، ثم نزل اليه بالامان واعطاه نيابة حمص. وقبل وصوله اليها عزله عنها واعطاه بالس، فغضب وذهب الى بغداد وسكنها الى ان مات. وتسلم نور الدين محمود القلعة وتلقب بالملك العادل نور الدين محمود. وفي هذه السنة عزل السلطان نور الدين الضحاك عن وادي التيم وولى عليها الامير ظهير الدين التنوخي، والضحاك هو ابن جندل ابن قيس من سلالة جندل البقاعي. والمذكور كان رجلاً من البقاع وحصل له حظ من الملوك الفاطميين حين كانوا متولين على الديار الشامية. واليه تنسب قلعة جندل التي في سفح جبل الشام. وحين عزل الضحاك عن وادي التيم ولاه نور الدين على بعلبك.

وفي السنة ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ م تسلم الملك العادل نور الدين بعلبك وابا قبيس فملكهما. وفيها قدم ملك الارمن بجيش كثير الى بلاد قيليقية، وهو بصحبة ملك الروم وجعلوا يقتلون وينهبون ويهتكون، فكتب ملك الروم الى رنيلدس الامير ليركب لمحاربتهم وطردهم ووعده بخيرات كثيرة، فزحف على العسكر وهزمه، ودخل بهم الى جزيرة قبرص وصاروا يقتلون وينهبون ويفسدون، ولم يعفّوا عن شر فهلكت اكثر مراكبهم في البحر وهم راجعون الى انطاكية. وفيها زحف بلدوين ملك القدس على التركمان والعربان الذين يرعون مواشيهم في حولة بانياس فنهبوا وسلبوا واسروا منهم خلافاً للعهد الذي كان بينهم، فعندما ساروا بهم الى بانياس وثب عليهم نور الدين وخطف جميع سباياهم واموالهم وحضر لبلدة بانياس، فقدم بلدوين الملك بعسكره اليها، فرحل نور الدين عن المدينة فاطمأنت خواطر الافرنج وصرفوا الرجال الى مواطنهم، وبينما هم سائرون في نواحي طبرية نزل عليهم نور الدين وباغتهم عند مخاضة يعقوب على نهر الاردن، فقتل واسر فرساناً كثيرةً من الافرنج. واما الملك ففرَّ مع بعض اناس واحتمى في قلعة صفد، ثم قصد نور الدين ثانية بانياس بالمنجنيقات والات الحرب ورحل عنها خوفاً من الامير صاحب انطاكية، والقومس صاحب طرابلس اللذان سارا اليه بجيش كثير.

وفي السنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م حدثت في بلاد الشام زلزلة عظيمة

خربت بها حماة وحلب وسيجر وكفرطاب وافامية وحمص وحصن الاتراك وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية، الا ان تأثيرها بحماة كان اشد، ولم يبق من اهلها الا القليل، وهدمت الاسوار والقلع، ولذلك تسمت زلزلة حماة وهلك تحت الردم ما لا يحصى. وكان معلم اولاد فارق مكتبه فجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم فلم يحضر احد من أهلهم يسأل عن صبي كان له في المكتب. وكذلك سيجر كانت لبني منقذ يتوارثونها من ايام الصالح بن مرداش صاحب حلب الى هذا الزمان، فصدف ان يوم الزلزلة كان احدهم ختن ابنه فدعى جميع بني منقذ الى داره فجاءت الزلزلة وهكلوا جميعهم في سقطة الدار والقلعة، فمضى نور الدين الى سيجر فعمرها وتولى عليها.

وفي السنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م قصد ثاودوريكس امير فلندرة زيارة القدس وصحبته زوجته اخت بلدوين الملك فترحب بهم الملك، ثم ساروا الى عند القومص صاحب طرابلس، وحضر اليهم الامير صاحب انطاكية وامراء الافرنج فاتفقوا على فتح شيزر التي على العاصي وقدم ملك الروم الارمن لمساعدتهم. فوضعوا عليها الحصار وكانت متهدمة من الزلزلة فملكوها. وتحصن صاحبها في القلعة، فوقع الاختلاف بين ثاودوريكس والامير على تملك المدينة، فنهبوها ورحلوا عنها الى حارم وملكوها وقتلوا صاحبها، وسار جيش الافرنج الى قلعة المغارة التي في حدود جلعاد فملكوها. وفي هذه السنة سار الملك نور الدين بالجيش الشامي الى قلعة المنارة وحاصرها. ولما بلغه قدوم الافرنج رحل عنها فصادف عساكر الافرنج في الطريق، فوقع بينهم الحرب، فانهزمت عساكر الشام من قدام الافرنج. وفيها تزوج الملك بلدوين بابنة اخي ملك الروم ووقع بينهما المحبة والاتفاق.

وفي السنة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م قدم مناويل ملك الروم بعساكره الى بلاد المسلمين لسبب التشكيات التي عرضت له عما فعل الامير في جزيرة قبرص، ولسبب استيلاء ملك الارمن على بلاد قيليقية، فخافت اهل الشام من قدومه، فخرج الامير لملتقاه ماشياً حافياً وعليه ثياب قطنية، فجثا على ركبتيه منكساً رأسه وبرقبته حبل طويل وقدم سيفاً مسلولاً ليسلمه له، فسر الملك من فعله

وصفح عنه وارجعه الى مكانه بكل اكرام. ثم ان الملك بلدوين قدم من اورشليم قاصداً الاجتماع بملك الروم، فارسل الملك مناويل اولاد اخيه واكابر دولته لملاقاته، فاستقبلوه بمحفل عظيم ولما وصل اجلسه ملك الروم بجانبه بكل اكرام، وبقي في ضيافته عشرة ايام، واستعطف خاطره من جهة ملك الارمن، فاعاد عليه كلما كان تملكه من بلاد قيليقية، وحلف له ملك الارمن ان يكون دائماً تحت طاعته. ثم ان ملك الروم دخل مدينة انطاكية بعز عظيم، وبعد مدة رجع الى القسطنطينية، ورجع الملك بلدوين الى القدس. فلما بلغ الملك نور الدين رجوع ملك الروم زحف بالعساكر الشامية الى بلاد ايقونية، وكان سلطانها غائباً فتملك نور الدين اكثر بلاده. وفي غياب نور الدين عن البلاد الشامية غزاها بلدوين ملك القدس، وحينما وصل بقرب دمشق خرج اهلها اليه حاملين هدايا واموالاً كثيرة، وطالبين منه انه يكف شره عنهم فأجابهم الى ذلك. وفيها توفي السلطان سنجر ابن ملك شاه ابن ارسلان. وفي هذه السنة زاد نهر الدجلة عن حد القياس المعتاد وخرج فوق بغداد وغطى الارض وخرب قسماً من السور واغرق قسماً من القطيعة وباب المأمونية. وسرى الماء تحت الأرض الى اماكن كثيرة فوقعت وهربت الناس الى الجانب الغربي، ثم تناقص الماء وبقيت المحلات لا تعرف، فاخذت الناس حدود دورهم بالتخمين. وفيها توفي السلطان محمد ابن محمود ابن محمد ملك شاه، وملك بعده عمه سليمان شاه. وفيها كانت وفاة المقتفي لامر الله خليفة بغداد. وكانت مدة خلافته اربعاً وعشرين سنة وعمره ست وستون سنة.

الفصل الخامس والثلاثون

في خلافة المستنجد بالله والثاني والثلاثون من العباسيين

وبويع بعد المقتفي بالخلافة لابنه ولي عهده يوسف، وكانت للمقتفي حظية لها ولد يُدعى ابا علي، فاحبت ان تكون الخلافة لابنها، فاحضرت عدة من الجواري واعطتهن المدى، وامرتهن ان يدخلن على وليّ العهد يوسف ويقتلنه. وكان ليوسف خصي صغير يرسله مراراً ليستعلم اخبار ابيه، فنظر الخصي الى الجواري وبأيديهن المدى، فعاد الى مولاه واعلمه بذلك. فاستدعى خدامه ودخل الدار وبيده سيف، فلما دخل ثارت به الجواري، فضرب واحدة منهنَّ وقتلها، وهربت الجواري، فاخذ اخاه وامه وسجنهما، وقتل بعضاً من الجواري، وغرَّق البعض منهنَّ، وجلس على سدة الخلافة وبويع له ولقب بالمستنجد بالله.

وفي السنة ٥٥٦ هـ = ١١٦٠ م كانت وفاة الفائز بنصر الله خليفة مصر، وكانت مدة خلافته ست سنين، ولم يكن له عقب فبويع بعده لابن عمه عبد الله بن يوسف الحافظ، وهو الرابع عشر من الخلفاء الفاطميين العبيديين بمصر، وكان طفلاً صغيراً. فأقام بأموره طلاع ابن زيرك ولقب بالعاضد لدين الله وهو اخر الخلفاء العلويين. وفيها كان ظهير الدين ابن بحتر امير من امراء التنوخ حاكماً على ثغر بيروت يسكن في سرحمّول، فولاه الملك نور الدين صاحب دمشق على القنيطرة، والبقاع، وعلى ظهر الاحمر في وادي التيم، وعلى برج

صيدا، وعلى الدامور، وتملك شارون ومجد البعنا وكفرعميه وأقام له معاشاً لاربعماية فارس لاجل مقاتلة الافرنج، وكان ابوه شرف الدولة قاطناً بعرامون الغرب فسدَّ طريق الدامور على الافرنج وكان آل تنوخ هؤلاء اكبر الطوائف التي حضرت من معرة النعمان وسيأتي الشرح عنهم[1].

ذكر آل تنوخ منذ ابتدائهم : انهم ينتسبون على ما يروى الى الملك النعمان ابن المنذر بن ماء السماء الى لخم وجذام، ويقال أنه لما قتل برميذ ابن كسرى النعمان الاكبر، قام ولده النعمان الاصغر بجملة من قبائل العرب، ونزلوا في سفح جبل لبنان الغربي المحاذي لمدينة بيروت، وكان حينئذ قفراً فاستقرت تلك القبائل فيه وسكنوه اياماً. وكان بنو النعمان المذكورون يحكّمون فيهم اميراً، وثبتت الامارة لبنيه من بعده حتى ظهر منهم ظهير الدين أو (زهر الدين) وبه سادت الامارة التنوخية. واخذها ولده حجي، ثم بنوه من بعده. فمن ثم ينسب الامير ظهير الدين بأنه ابن كرامة بن بحتر بن علي بن الحسين بن ابراهيم بن محمد بن علي بن احمد بن عيسى بن جمهر ابن تنوخ واليه ينتسب آل تنوخ. وتنوخ هو ابن قحطان بن عوف بن كندة بن مدحج ابن سعد بن طي بن تميم بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ابن ماء السماء. والامير ظهير الدين المذكور ولاه السلطان نور الدين بهذه السنة على سفح جبل لبنان (او الغرب من لبنان) وعلى البقاع والقنيطرة وبرج صيدا أو الدامور. ووضع السلطان عند هؤلاء الامراء فرساناً ورتب لهم معاشاً وجعلهم لقتال الافرنج. ولما حضر الافرنج نهض الامير ظهير الدين اليهم فانكسر جيشه، وفرَّ هارباً الى ثغر بيروت، فشدد الافرنج الحصار عليها حتى ملكوها. وقبل ان يتولى عليها ظهير الدين التنوخي كان صاحبها الضحاك ابن جندل ابن قيس من ذرية جندل البقاعي، فكان يقال لبنيه من بعده في خارج ديارهم

(١) يذكر الدويهي في تاريخ الازمنة صفحة ٦٣ ان الأمير التنوخي الذي ورد اسمه ظهير الدين ابن بحتر هو زهر الدولة ابن بحتر. كما يشير الى ان عدد الفرسان الذين كانوا في خدمته لمحاربة الإفرنج هو ٤٠ فارساً وليس ٤٠٠ فارس. ومن القرى التي ولاها نور الدين زنكي للأمير المذكور في البقاع هي قرية جلبايا (تعلبايا حسب رأي الدويهي) وليس البقاع بكامله.

البقاعيون نسبة لابيهم جندل البقاعي، وفي ديارهم الجنادلة نسبة الى اسم ابيهم جندل. وجندل هذا كان رجلا من البقاع حصل له الحظ في خدمة الملوك الفاطميين لانه كان ذا شجاعة وعقل، فتولى على بلاد وادي التيم. واليه تنسب قلعة جندل التي في سفح جبل الشام قرب راشيا الوادي، ومن بعض ذريته المقدم فايز. وقد اخذها الامير محسن، وبقيت بلاد وادي التيم لجندل في حياته ولبنيه من بعده الى ان ظهر من ذرية جندل ابو الضحاك المذكور. وكان شجاعاً ذا تدبير ومعرفة طائلة، فاستولى على بلاد جبل عامل وضمها الى بلاد وادي التيم. ولما توفي قام بعده ولده الضحاك، وتولى على ما كان في يد ابيه. وفتح اسماعيل شمس الملوك صاحب دمشق حصن الشقيف سنة ٥٢٨ هـ. ثم التحق الضحاك بعد ذلك بمجير الدين ارتق صاحب دمشق، ولما فتح مجير الدين بعلبك واخذها من نجم الدين ايوب نائب عماد الدين زنكي سنة ٥٤٠ هـ ولى الضحاك ابن جندل عليها. وفيها فتحها السلطان نور الدين سنة ٥٤٩ هـ، ولما اخذت بعلبك منه رجع الى وادي التيم، ومنه اخذ نور الدين وادي التيم سنة تاريخه اي ٥٥٦ هـ، فاعطاها للامير ظهير الدين التنوخي كما ذكر. ومن الامير ظهير الدين اخذها الافرنج كما مر قريباً.

وفي السنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م حاصر نور الدين قلعة حارم وهي حينئذٍ بيد الافرنج مدة ورحل ولم يملكها، ثم سار الى حصن الاكراد بالعسكر ونزل البقعة قاصداً حصار طرابلس، فباغته الافرنج ولم يشعر نور الدين وعسكره الا وقد طلع عليهم الافرنج فقتلوا واسروا اكثر العسكر، فقصدوا خيمة نور الدين فخلص بفرسه ونزل على بحيرة حمص، وحلف بالله ان لا يظلله سقف حتى يأخذ بالثأر. وفيها توفيت هيرينة زوجة ملك الروم فارسل يطلب من بلدوين الملك ان يخطب له ابنة افرنجية، فجهزوا له اولاً اخت القومس صاحب طرابلس، واخرجوا عليها اموالاً كثيرة وجهزوا لها اثنى عشر غراباً لسفر البحر. لكن رسل ملك الروم لم يرضوا بها، وتكلموا في ابنة الامير صاحب انطاكية، وتوجهوا بها الى القسطنطينية بعز عظيم، فحنق القومس بسبب الدراهم التي كان صرفها على تجهيز اخته، وارسل الاثنى عشر غراباً للسلب في بلاد الروم،

فاخربوا الكنائس، وسلبوا الزوار، ونهبوا الاماكن التي على ساحل البحر، ولم يعفّوا عن شر الا عملوه.

انتقال آل شهاب من حوران الى وادي التيم

وفي هذه السنة نذكر سبب قيام الامراء آل شهاب من حوران الى وادي التيم. كان الكبير فيهم في ذلك الوقت الامير منقذ، ولما عزموا على القيام جمع الامير منقذ الامراء بيت شهاب ووجوه القبيلة وقال لهم : انتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين سلطان الديار الشامية والحلبية، والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد ان السلطان نور الدين يتمم ما ينوي عليه وتدوس العساكر حوران. وتعلمون ما لنا عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة، وانا ارى انه يلزم لنا القيام من حوران قبل ظهور حال من تلك الأحوال. فلما سمع الحاضرون ما قاله الامير منقذ قالوا له هذا هو الصواب، وليس فينا احد يخالف مقالك. ثم عزموا على القيام وشدوا ظعونهم وحملوا احمالهم، ورحلوا من حوران بسائر عشائرهم وقصدوا غربي الديار الشامية، ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي. ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران ارسل يسألهم عن السبب الداعي لقيامهم، وارسل لهم الخلع والعطايا النفيسة وطلب منهم ان يرجعوا الى اوطانهم امنين. فكتبوا الى السلطان نور الدين جواباً انه وصل كتاب السلطان ادامه الله وامرتنا بالرجوع الى ديارنا امنين. فامانك شاملنا بكل ديار واينما كنا نحن في بلادك وتحت حكمك مجيبين لكلما تأمرنا به، واما الرجوع فلا سبيل لنا اليه. ونريد من احسانك السماح لنا بذلك بسبب دثار بلادنا وعدم اجتناء اثمارها. ونحن عبيدك واعوانك اينما كنا. ولما وصل الجواب الى السلطان نور الدين اذن لهم بالمسير اينما شاؤوا. وكان الامراء آل شهاب حينئذ عشرة اكبرهم الامير منقذ وهو امير الامراء، والباقون اولاده واخوته وبنو عمه. فاولاده الامير نجم والامير فاتك والامير حيدر والامير عباس واخوته الامير علي والامير غالب. وبنو عمه الامير سعد والامير جابر والامير حمزة والباقون عشائرهم وهم نحو

خمسة عشر الفاً. ثم رحلوا الى الجسر اليعقوبي ونزلوا في وادي التيم، وكان نزولهم في بيداء الظهر الاحمر من الكنيسة الى الجديدة. وقد كانت البلاد المذكورة تحت استيلاء الافرنج، وكانوا جعلوا مقرهم في حاصبيا وحصنوها بالآلات الحربية. ولما سمع الافرنج بنزول آل شهاب في وادي التيم جمعوا جموعهم وكانوا نحو خمسين الفاً ما بين فارس وراجل. وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا. واستمد من ذفاتر صاحب قلعة الشقيف خمسة عشر الفاً. وكان البطريق الذي في قلعة الشقيف يحكم على جميع بلاد عامل سهلها والجبل من ساحل صيدا الى عكا، ولما قدمت الافرنج بعساكرهم مصبح يوم الخميس في ٢١ شهر صفر التقاهم آل شهاب بعشائرهم، وكان الامير منقذ واولاده واخوته واولاد عمه في اول القتال، وفعلوا افعال الابطال. ودام القتال من ضحى النهار الى الزوال، وقتل من الافرنج نحو ثلاثة الاف، ومن عشائر آل شهاب نحو ثلاثماية فارس، وجرح الامير حمزة. وباتوا تلك الليلة يحرسون بعضهم بعضاً الى ان اصبح الصباح. فثار الفريقان الى الحرب والكفاح ودام القتال ثلاثة ايام، ثم استظهرت آل شهاب وفر الافرنج من تلك الارض وتحصنوا في الجبال، فعند ذلك ترجلت الامراء واقتحموا الافرنج مشاة حتى صاروا على رؤوس الجبال، واشتد القتال وعظمت الاحوال فولى الافرنج الادبار، وقصدوا الهزيمة والفرار. وتبعهم بنو شهاب بقية ذلك النهار، وتفرقت عساكر الافرنج في تلك الاقطار. فمنهم من هرب الى بلاد الشقيف، ومنهم من سار الى الجولانية (او الحولانية)، واما البطريق قنطورا فقصد حاصبيا وتحصن بها في بقية جيشه. وغنم بنو شهاب خيلهم وسلاحهم، وقد فقد منهم ومن عشائرهم نحو ستماية فارس. ثم ساروا الى حاصبيا ونزلوا قربها، فعند ذلك رمتهم الافرنج بالنبال، وصبر بنو شهاب الى الليل، وبنوا تلك الليلة متاريس تقيهم من النبال، وعند الصباح اخذوا يتراشقون بالسهام، فرمتهم الافرنج بالمجانيق والصخور الكبار، وثاني ليلة هجم بنو شهاب بعشائرهم ونقبوا الحيطان، ولما لاح الصباح طلب الافرنج الامان، فامنهم الامير منقذ على ان يخرجوا من غير سلاح، وبقي قنطورا وخمسماية رجل متحصنين في القلعة. وبعد عشرة ايام هجم عليهم اولئك الرجال ودخلوا القلعة وقتلوا من

فيها، ولم ينجُ منهم احد، واستولوا على ما فيها من الاموال. ثم كتب الامير منقذ الى السلطان نور الدين يبشره بالفتح والظفر وارسل له رأس قنطورا ورؤوس اصحابه، ففرح السلطان فرحاً جزيلاً وكتب جواباً للامير منقذ يتضمن التهنئة، وانه يقيم في البلاد التي فتحها، وتكون له ملكاً، وارسل له خلعة سنية مع مربي اولاده رستم بيك الداودار. ولما وصل الى حاصبيا خرج الامير منقذ والامراء انسباؤه للقائه، وكان اليوم يوماً عظيماً بالفرح والسرور. ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالافرنج في حاصبيا ارسل للامير منقذ يطلب منه الصلح، وكان في ذلك الوقت الامير يونس المعني ابن الامير معن حاكماً على جبل الشوف. فلما سمع بقدوم بني شهاب الى بلاد وادي التيم وانتصارهم على الافرنج سر غاية السرور، ونهض من الشوف بمحفل عظيم الى وادي التيم. ولما سمع الامير منقذ بقدومه خرج لملاقاته واستقبله احسن استقبال، وبقي عنده ثلاثة ايام ورجع الامير يونس الى الشوف.

وفي السنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م توجه بلدوين الملك الى انطاكيـة، فعرضت له حمى شديدة، فحملوه الى طرابلس، ثم الى بيروت وهناك توفي. وكان بلدوين الملك في جمال البدن وحسن القامة يفوق الوصف. وكان في اخلاقه كريماً طاهراً منكراً للمسكر، سالكاً بحسب الشريعة شجاعاً في الحرب صبوراً على التعب، فحملوا جسده الى القدس وبحزن عمومي دفنوه في مقبرة سلفائه. وتخلف بعده الماريكوس (المرك) اخوه لكن الماريكوس كان تزوج في هذه السنة. وفيها كانت المخاصمة في مصر بين ضرغام وبين شاور البدوي بسبب الوزارة. فانهزم شاور وسافر الى الشام ليستنجد نور الدين صاحب دمشق. فالماريكوس ملك القدس لما رأى الفتنة بمصر وان الخليفة لم يرسل له المال الذي تعهد له به زحف بجيوشه الى مصر وتواقع العسكران بقرب بلبيس، وكانت الكسرة على المصريين فغنمت الافرنج اموالهم واسروا وقتلوا منهم مقتلة كبيرة، ورجع الماريكوس منصوراً الى القدس. واما شاور البدوي فاستعطف خاطر نور الدين، فارسل معه العساكر الشامية مع اسد الدين شيركوه، وعدة امراء توجهوا معه الى مصر. فضرغام لما تحقق قدوم العساكر الشامية استنجد بملك القدس ووعده بازيد ما كان يعطي لاخيه بلدوين. وقبل

ان تأتيه النجدة تواقع مع شاور ومع شيركوه فظفر بهما ضرغام. وفي هذه السنة ارسل الامير يونس المعني الى الامير منقذ الشهابي يدعوه الى محله للزيارة والضيافة. فنهض الامير منقذ من حاصبيا وصحبته الامير محمد وكان ولده ولداً نجيباً وعمره نحو ست عشرة سنة، وكان شاباً جميلاً فصيح اللسان، ولما وصل الامير منقذ الى منبع الباروك التقاه الامير يونس المعني احسن ملتقى وبقيا في ذلك المكان ثلثة ايام يغتنمان اللذات والانشراح ثم ذهبا الى قرية بعقلين واقام الامير منقذ عنده نحو شهر باطيب عيش. وكان للامير يونس ابنة يقال لها السيدة طيبة وكانت احسن بنات زمانها، فنظرها الامير محمد وانشغف بها، وعندما كانا جالسين على السماط للاكل اعطى الامير يونس للامير محمد لقمة وقال له خذ هذه طيبة، فاجابه : نعم الطيبات للطيبين. ففهم الامير يونس المعنى واجابه أنا ازوجناكها يا محمد، فنهض الامير محمد، وقبل يده وتم عقد السيدة طيبة على الامير محمد. ثم أنه رجع الامير منقذ الى حاصبيّا، وزاد الحب بين آل معن وآل شهاب.

وفي السنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م يقول ابن الحريري انه كانت وقعة عظيمة بقلعة حارام التي فوق انطاكية بين نور الدين والافرنج فانكسر المسلمون واحاط بهم العدو. وفيها يقول مطران صور ان اسد الدين شيركوه تداخله الطمع على وزارة مصر فأقام الحصار على بلبيس، وجاهد ضدها حتى ملكها. بسبب ذلك بعث شاور البدوي رسلاً مع كتبٍ الى الماريكوس ملك القدس، وعاهد بالف الف دينار يحملها اليه ويعضده على شيركوه، فسار الماريكوس بالجيش الى الديار المصرية، واقتبله شاور بكل الاكرام والفرح، فحاصروا بلبيس وتسلموها بالامان. ثم وضع الماريكوس الحصار على القاهرة واضرم فيها شاور النار، ولم تزل توقد فيها اربعة وخمسين يوماً، فخشي المسلمون على مصر ان تحكمها النصارى. وفي هذه السنة هرب شاور وزير العاضد صاحب مصر من ضرغام الذي نازعه على الوزارة الى الشام ملتجئاً الى نور الدين ومستجيراً به وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه. وتعهد ان يكون له ثلث مدخول البلاد. فتقدم الملك نور الدين بتجهيز الجيوش، وقدم عليها اسد الدين فتجهزوا وساروا معاً، وشاور في صحبتهم.

ووصل اسد الدين الى مدينة بلبيس فخرج اليهم اخو ضرغام بعسكر المصريين فقاتلهم فكسروه فانهزم وخرج ضرغام من القاهرة فقتل وقتل اخوه ايضاً. وخلع على شاور واعيد الى الوزارة واقام اسد الدين بظاهر القاهرة. فغدر به شاور، وعاد عما كان قرره ووعد به نور الدين. وارسل الى الافرنج يستمدهم فساروا الى تلبية دعوته ونصرته وجهزوا العساكر وساروا، فلما قرب الافرنج من مصر فارقها اسد الدين وقصد مدينة بلبيس وجعلها حصناً يتلجيء اليه. فحاصرت بها العساكر المصرية والافرنج حولها ثلاثة اشهر فلم يبلغوا منها غرضاً، فراسل الافرنج اسد الدين في الصلح والعودة الى الشام. فأجابهم الى ذلك وتوجه الى الشام.

وفي السنة ٥٥٠ هـ = ١١٦٤ م نزل نور الدين إلى طرابلس عندما كان الافرنج في مصر قاصداً ان يتملكها. فخرجت اليه الافرنج من المدينة وكسروا عسكره وغنموا كل ما كان معه. وهرب نور الدين مهزوماً بلا سيف، ثم أنه جمع رجال المدن وعربان البر وسار بهم الى قلعة حارم، وجاهد على فتحها، وكان القومس صاحب طرابلس وقتئذٍ في انطاكية وقوطان حافظ قيليقية، وطور قائد جيش الارمن، وطلعوا جميعهم لمقاتلة نور الدين فرحل نور الدين عن حارم وابتعد، فلما رأوه هارباً اخذهم الطمع ليلحقوه، ثم وضع لهم نور الدين كميناً في وادٍ. واذ هم متفرقون بعضهم عن بعض رجع اليهم على غفلة وقتل منهم مقتلة كبيرة، واخذ منهم نحو عشرة الاف اسير، واسر الامير صاحب انطاكية، والقومس صاحب طرابلس، وقولمان مقدم جيش الروم، وسار بهم مسروراً الى مدينة حلب. ثم ان نور الدين رجع الى قلعة حارم فملكها بالسيف. وفيها في يوم الاضحى ولدت امرأة ببغداد اربع بنات في بطن واحد.

وفي السنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م سار نور الدين الى فتح بانياس التي في جبل لبنان، فنصب عليها المنجنيقات، ووضع لها اللغوم تحت الأرض، وفيما بعد تسلمها نور الدين بالامان، وكان صاحبها بمصر برفقة المريكوس. وفيها يقول ابن الحريري ان نور الدين افتتح حصن المنيطرة وهو في بلاد الجرد قريباً من كسروان. وفيها احترق باب الساعات واللبادين في دمشق، وكان حريقاً هائلاً وذهبت اموال الناس وطلعت النار من دكان هراس.

وفي السنة ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م يقول مطران صور ان المريكوس ملك القدس دخل مصر، فهزم شيركوه ورتب شاور في الوزارة على اتم المراد. ثم ان المريكوس رجع الى القدس في اموال كثيرة، وبادر الى استفكاك الامير صاحب انطاكية. ثم ان الامير دخل الى القسطنطينية ليزور ملك الروم الذي كان قد تزوج اخته، فحظي باكرام جزيل ورجع الى انطاكية بهدايا وتحف كثيرة. وفيها تملك شيركوه قلعة ثيرون بالمكر فقتل صاحبها واطلق الذين كانوا فيها. ثم سار شيركوه الى قاطع الجبل وتملك حصناً اخر.

وفي السنة ٥٦٣ هـ = ١١٦٧ م ذكر ابو الفرج في تاريخه ان في هذه السنة فارق زين الدين علي ابن بسكتكين النائب عن قطب الدين مودود ابن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل، وذهب الى اربل، وكان هو الحاكم في الدولة واكثر البلاد بيده، فلما فارق الموصل الى بيته باربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود. وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة سليم القلب كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة، فلما اراد ان ينشده اياها قال : انا لا اعرف ما تقول، ولكني اعلم أنك تريد شيئاً فامر له بالف دينار ولم يزل زين الدين بإربل الى ان مات بها هذه السنة.

وفيها وهب نور الدين لشيركوه حمصاً وصارت في يد اولاده الى ايام الملك الظاهر. وفيها يقول مطران صور ان شيركوه دخل بنفسه الى بغداد بمكاتيب نور الدين، واخبر الخليفة عن احوال مصر وقوتها وغناها، وانهم اصطلحوا مع الافرنج وحملوا اليهم المال. فسير معه عساكر بغداد وجمع شيركوه العساكر النورية (نسبة آل نور الدين) وسار بهم من الشام الى مصر في طريق القفر، وسار ايضاً المريكوس بجيشه الى معاضدة شاور الوزير. وصار الشرط ان العاضد خليفة مصر يحمل الى ملك الافرنج كل عام اربعمائة الف دينار وان نصف هذا المبلغ يعطى بمصر ويرسل النصف الآخر الى القدس. وعندما صار هذا الاتفاق بين الخليفة وبين ملك الافرنج اجتمع جيش الافرنج مع جيش مصر. وصار القتال بينهم وبين شيركوه اسد الدين وابن اخته صلاح الدين، وجرى بينهم وقعات كثيرة انتهت ان شيركوه طلب الامان

وطلع بمن معه بدون ضرر. فوضعت رايات ملك الافرنج على قلعة الاسكندرية لانهم استخلصوها من شيركوه، فعاد شيركوه الى بلاد الشام حزيناً وملك الافرنج رجع الى عسقلان بعز وكرامة. وفيها قدمت رسل ملك الروم بسبب الاستعداد على استفكاك مصر من يد المسلمين، وصار بين الملكين اتفاق وشروط معلومة، فانتقل ملك القدس بجيش الافرنج الى مصر، وملكوا بلبيس بالسيف في اليوم الثالث من حصارها، وضربوا اهلها بالسيف ولم يعف الافرنج عن قتل النساء والذراري بخلاف شروط الحرب والعهد الذي صار بين خليفة مصر وبين ملك الروم. ثم زحف العسكر الى القاهرة وشدد عليها الحصار. وتعهد الخليفة لملك الافرنج بكرتين من الدراهم، (اي مئتي الف درهم) وقدم له كرة واحدة وطلب منهم ان يرحلوا عن القاهرة ليجمع الباقي فلم يرحلوا. ثم وصلت الى مصر عمارة الافرنج في البحر فتملكوا اتابيس التي على شط النيل، وقتل النوتية شعباً كثيراً، وعند ذلك ارسل العاضد خليفة مصر يستنجد بالملك العادل نور الدين ابن زنكي. وسوّد الكتاب وجعل فيه ضفائر النساء فادرك نور الدين المقصود، واضطرمت حميته وجهز شيركوه ابن مغير السعدي في عسكر نحو عشرة الاف فارس وخمسين الف راجل. ولما اقبلت العساكر النورية مع اسد الدين شيركوه وعدة امراء رحل الافرنج الى بلادهم، وقتل شيركوه شاور الوزير قبل ان يدخل مصراً غدراً. ثم دخل القاهرة في عساكره فخلع عليه الخليفة خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور امير الجيوش، وادخله الى دار الوزارة التي كانت لشاور البدوي. فثبت الملك منصور بالوزارة شهرين وخمسة ايام ومات. وبرضى الامراء النورية ولى العاضد صلاح الدين يوسف ابن ايوب على الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، وصار نائباً لنور الدين بالديار المصرية وكان نور الدين يسميه ويكتب له الاسفاه سلار. ومن ذلك الحين ارسل يوسف واخذه اباه ايوب واهله واعطاهم القطائع بمصر فتمكن من البلاد وضعف امر العاضد. وفيها توفي شاروق التركماني واليه تنسب الطائفة الشاروقية، فسكنوا بظاهر حلب وبنوا عمائر كثيرة تعرف بالشاروقية على شاطئ نهر قويق.

وفي السنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م تملك الملك نور الدين قلعة جعبر، وملك

اسد الدين شيركوه (ويروي شيركويه) مصر، وقتل شاور الوزير. ولما ثبت قدم اسد الدين وظن أنه لم يبق له منازع اتاه مرض وتوفي. وكانت ولايته شهرين. واما ابتداء امره فانه كان هو واخوه نجم الدين ايوب ابنا شاذي من بلد دوين (هي بلدة في اخر حدود اذربيجان بقرب تفليس) واصلهما من الاكراد الروادية، فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز ببغداد، فرأى من نجم الدين ايوب عقلاً ورايأً وكان اكبر من شيركوه، فجعله محافظاً لقلعة تكريت، فسار اليها ومعه اخوه شيركوه. ثم ان شيركوه قتل كاتباً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما، فاخرجهما بهروز من قلعة تكريت فسارا الى زنكي، ولما ملك شيركوه بعلبك جعل ايوب محافظاً لها. ولما قتل زنكي وتسلم عسكر دمشق بعلبك صار هو اكبر الامراء بدمشق، واتصل اخوه شيركوه بنور الدين فاقطعه حمص والرحبة وجعله مقدماً لعسكره. ولما اراد ان يرسل العسكر الى مصر لم يرَ من يصلح لهذا الامر العظيم والمقام الخطير غيره فارسله فملكها. ولما توفي اسد الدين شيركوه طلب جماعة من الامراء النورية ولاية الوزارة للعاضد العلوي صاحب مصر. فارسل العاضد الى صلاح الدين يوسف ابن ايوب ابن شاذي واحضره وخلع عليه وولاه على الوزارة بعد عمه ولقبه بالملك الناصر وكان اسمه يوسف. وكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سناً من يوسف. فاذا تولى لا تكبر نفسه علينا ولا يرفع رأسه مثل غيره. فثبت قدام صلاح الدين يوسف، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين (وكان يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظماً عن ان يكتب اسمه. وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب باسمه وباسم الامراء كافة بالديار المصرية).

واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد. ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته. وفي هذه السنة سارت جيوش الافرنج في البحر الى جهة دمياط، وقدمت اليهم النجدة من ملك الروم بماية وخمسين غراباً للحرب، وستين برشاً موسوقة خيلاً واثنين وعشرين موسوقة ميرةً والات حرب. ثم نصبا الحصار على دمياط التي على شاطئ النيل. وكان

صلاح الدين الوزير قد شحنها بالرجال والات الحرب فثبت الحصار على دمياط نحو خمسين يوماً. ثم رحلوا عنها الى مواطنهم ووصلوا الى عسقلان ثم هبَّ على الاغربة (المراكب) والبرشات ريح عاصف فاهلك اكثرها. واما نور الدين فارسل الف الف دينار واقمشة كثيرة لينحدر بها اهل مصر، وجاز على سواحل بلادهم حتى عادوا اليه. وفيها حاصر نور الدين الكرك مدة ونصب عليها المنجنيقات فاشغلته الافرنج عن أخذها.

وفي السنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م كانت الزلزلة العظيمة في بر الشام دامت نحو اربعة اشهر والناس تشاهد الزلزلة من شدة الريح الذي انحصر تحت الأرض، وخربت انطاكية وجبلة واللاذقية وحلب وشيزر وحماه وحمص، واما طرابلس فصارت خالية شبه المقبرة. وباقي المدن والقرايا التي في بلاد الشام صارت اكثرها خراباً. وذكر ابن الجوزي في تاريخه ان في حلب هلك بهذه الزلزلة نحو ثمانين الف نفس ونيف. واما في صور فكانت سليمة وما حدث في تلك النواحي من الزلزلة الا قليل. وفي هذه السنة مات قطب الدين مودود ابن زنكي ابن اقسنقر صاحب الموصل وعمره اربعون سنة، وكان ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصف، ولما اشتد مرضه اوصى بالملك بعده الى ابنه الاكبر عماد الدين زنكي، ثم عدل عنه الى ابنه الاخر وهو سيف الدين غازي. وسبب ذلك ان القيم على امور دولته فخر الدين عبد المسيح كان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق عبد المسيح وخاتون ابنة حسان الدين تمرتاش ابن ايلغازي والدة سيف الدين على صرف الملك من عماد الدين الى سيف الدين. فرحل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصراً به ليعينه على اخذ الملك لنفسه.

وفي السنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م توجه المريكوس الى ملك الروم واقتبله كأحد انسبائه بكل العز والكرامة، وصار الاتفاق بينهما على استخلاص مصر من يد المسلمين بعهود وشروط تحررت بينهما. ثم رجع الملك المريكوس بالخلع الشريفة، ودخل مدينة صيدا. وفي هذه السنة يقول ابن سباط انه لما بلغ الملك العادل نور الدين تمكن صلاح الدين من مصر، وحكمه بالقصر ارسل يأمره حتماً وجزماً بقطع الخطبة العباسية، فراجعه في ذلك صلاح الدين

بأنه يخاف الفتنة اذا فعل ذلك. فلم يلتفت نور الدين الى ذلك واصر عليه. وكان العاضد خليفة مصر قد مرض، فامر صلاح الدين الخطباء ان يخطبوا للمستنجد خليفة بغداد، ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا لذلك. وقال العماد استفتح صلاح الدين اقامة الخطبة بجامع مصر لبني العباس اول جمعة من محرم في القاهرة، وبعد يومين مات العاضد يوم عاشوراء. قال ابن الجوزي : انه لما وصل الخبر الى بغداد بأن المستنجد خطب له بمصر اقفلت اسواق بغداد للهناء، وعملت القباب، وكانت قد قطعت الدعوة لبني العباس من مصر نحو مايتي وعشرين سنة. وقال ابن الحريري انه لما بلغ ذلك خليفة بغداد جهز قاصده الى نور الدين وصلاح الدين بخلعتين، فلبس نور الدين خلعته وهي فرجية وقباء وطوق بالف دينار، وحصان بسرج خاص، وسيفين ولواء وحصان اخر جنيب. واخرج دست الملك الى الميدان الاخضر. وارسل لصلاح الدين دون ذلك يسيراً، ومعهما اعلام الخطباء عليها اسم المستضيء. ومات العاضد ولم يخلف ولداً وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة ونصف. وبموت العاضد انقرضت دولته، لأن صلاح الدين تسلم القصر بما حواه واعتقل من كان من اقارب العاضد، ومنعهم عن النساء لئلا يتناسلوا. واصطفى صلاح الدين نفائس الذخائر واستمر بيع ما في القصر نحو عشر سنين، ومن ذلك الكتب، وكانت ازيد من مائتي الف مجلد. (ومن جملة النفائس حبل ياقوت كان وزنه سبعة عشر درهماً أو مثقالاً) قال ابن الاثير انا رأيته ووقفت على وزنه وانتهت الخلافة العلوية. وهم اربع عشرة خليفة المهدي والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد. (وكانت مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلجلماسة في ذي الحجة سنة ٢٩٦ هـ الى ان توفي العاضد مايتين واثنتين وسبعين سنة) وكانت عدة الخلفاء الذين تولوا على الديار المصرية والشامية احدى عشر خليفة. ومدة تصرفهم مايتان وسبع سنين. ثم زالت دولتهم. والله وحده الدائم الذي لا يزول حكمه. وفيها توفي الامام المستنجد بالله ابو المظفر يوسف ابن المقتفي بالله، وكان من احسن الخلفاء العباسيين في سيره مع الرعية. وكان عادلاً حليماً يهوى الشعر وارباه وكان شاعراً ومن اشعاره :

وجلنارٍ كاعراف الديوك على غصنٍ يميل كاذناب الطواويس
مثل العروس تجلت يوم زينتها حمر الحليِّ على خضر الملابيس
في مجلس لعبت ايدي السرور به لدى عروس تحاكي عرش بلقيس
تسقي الحيا اربعاً تحيى النفوس بها ما بين مقريٍّ الى باب الفراديس

الفصل السادس والثلاثون

في خلافة المستضئ بأمر الله وهو الثالث والثلاثون من العباسيين

وتخلف بعده ولده المستضيء بامر الله ابو محمد الحسن فبايعه اهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي ابوه اي تاسع ربيع الاخر سنة ٥٦٦ هـ، وبايعه الناس من الغدفي التاج بيعة العامة. واظهر من العدل اضعاف ما عمل ابوه، وفرّق اموالاً جزيلة. وفي هذه السنة غزا صلاح الدين يوسف صاحب مصر البلاد التي تحت حكم الافرنج. وكان عسكره اربعين الف مقاتل ونيف، ووضع الحصار على قلعة شقيف ثيرون وهي في حدود فلسطين (بقرب بانياس)، فقدم اليه المريكوس من عسقلان بالفي رجل. فرحل صلاح الدين الى ايّلة وهي على ساحل البحر الاحمر، فافتتحها واستباح اهلها وكل ما فيها، ثم عاد الى مصر. وفيها عندما توفي العاضد خليفة مصر ارسل الملك العادل نور الدين استناب الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين ابن شاذي ابن مروان ابن ايوب على الديار المصرية، وكان مقام شاذي بتكريت وبها توفي، وله ولدان اسد الدين شيركوه ونجم الدين ايوب. فتولى نجم الدين على قلعة تكريت مدة ثم عزل عنها، وسار باهله الى الموصل. ولما افضت المملكة الى نور الدين ابن زنكي قصده نجم الدين واخوه شيركوه واهل بيتهما، فاكرمهما نور الدين وجعلهما من أعيان اصحابه. ولما ولد لنجم الدين صلاح الدين يوسف كان نور الدين ينزله بمنزلة الولد وينهضه في المهمات. ثم انه جهز

شيركوه الى مصر مع الجيوش الشامية وصار وزيراً بدل شاور البدوي. وبعد موت شيركوه ولى العاضد صلاح الدين على الوزارة بمصر. وعندما مات العاضد نوّبه نور الدين بالديار المصرية، فجدد صلاح الدين الدعوة في مصر واعمالها للخليفة العباسي، واخذ اموال العاضد وملك قصره ودياره، وقبض على اهل بيته واستقر امره. وبعث نور الدين الى صلاح الدين طالباً منه أن يأتي اليه فلم يمضِ، ولكنه ارسل اليه يعتذر ببعض اعذار، فغضب عليه نور الدين وهم بالدخول الى مصر، فخضع له صلاح الدين فسكت عنه. وفي هذه السنة عبرت عساكر الخطا (نوع من التتار) نهر جيحون يريدون خوارزم، فالتقاهم صاحبها شاه ارسلان ابن اقسر (اقسيس) في عساكره الى اموية (وتدعى ايضاً آمو وآمل مدينة مشهورة في غربي جيحون) ليقاتلهم ويصدهم فمرض. فأقام بها وسيّر جيشه مع امير كبير اليهم، فلقيهم فانهزم الخوارزميون واسر مقدمهم، ورجع به الخطا الى ما وراء النهر، وعاد شاه الى خوارزم مريضاً وتوفي فيها، وملك بعده ابنه سلطان شاه محمود. وكان ابنه الاكبر علاء الدين تكش مقيماً في جند (مدينة عظيمة في تركستان)، فقصد ملك الخطا واستمد على اخيه، فسيّر معه جيشاً كثيفاً مقدمه فوما (يروى قوما او قرما) وساروا حتى قاربوا خوارزم، فخرج شاه منها ومعه امه وقصد خراسان، وملك تكش خوارزم.

وفي السنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م سار نور الدين الى الموصل وصلى بجامعه، ثم عند رجوعه فتح مرعش وبهسنا ومزربان وسيواس. وفيها مات طوروس امير الارمن وكان محباً للافرنج، فتخلف بعده اخوه ميلون، وكان يكره الافرنج ويشن الغارة عليهم مراراً والتجأ الى نور الدين، واستنجده عليهم حتى هزم ابن اخيه توماس، وزحف الى المواضع التي كانت بيد الافرنج، فأحرق ونهب وقتل وملك جميع ما كان تبقى بيد فرسان هيكل القدس في بلاد قيليقية. ولاجل ذلك انتقل الملك المريكوس الى نواحي انطاكية، وارسل مرتين يؤنب ميلون الارمني لأنه كان يساعد نور الدين على اهلاك النصارى مع كونه نصرانياً، فلم يرتدع عن ذلك ميلون. فغزا المريكون بلاد قيليقية، وتملك مواضع كثيرة وضرب أهلها بالسيف. وفي هذه السنة سار صلاح

الدين من مصر الى الكرك وغزا جميع ما هو للافرنج عبر نهر الاردن الشرقي، ونهب وقتل وقطع الكروم والشجر، فسار نور الدين من دمشق الى الرقيقة بقرب الكرك، فخاف صلاح الدين من الاجتماع به، فرحل من الكرك وعاد الى مصر، وارسل الى نور الدين معتذراً عن عدم مقابلته بأن أباه مريض ويخشى ان يموت، فتفقد مصر من يده، فقبل نور الدين عذره.

وفي هذه السنة كان قيام آل شهاب من حوران الى وادي التيم كما سبق وكان كبيرهم ومقدمهم الامير منقذ، وذلك في زمن ولاية الملك العادل نور الدين الشهير على الشام، وولاية السلطان صلاح الدين على مصر. فلما عزم آل شهاب على الرحيل قصدوا غربي البلاد الشامية، ونزلوا في صحراء الجسر اليعقوبي، فسمع برحيلهم الملك العادل، وارسل لهم خلعاً وهدايا نفيسة مع خواصه، وكتب لهم بالرجوع لانهم كانوا من اهم اعوانه. فلما وصل كتاب نور الدين اليهم جمع الامير منقذ الامراء واكابر العشيرة واستشارهم بذلك، فاجابوه ان ليس لنا سبيل للرجوع وانه غير لائق بنا فسرَّ الامير منقذ من كلامهم. وعند ذلك كتبوا كتاباً الى السلطان نور الدين قائلين انك امرتنا بالرجوع الى ديارنا مؤمَّنين فامانك شاملنا في كل مكان، ولكن نعتذر اليك في ذلك لان قيامنا وعودتنا غير لائقة بنا لئلا ينسب الينا الضعف والخيانة. واين ما كنا فنحن في بلادك وتحت حكمك، ونحن عساكرك واعوان لك، وسبب قيامنا هو دمار بلادنا وعدم اجتناء اثمارها. فقبل نور الدين اعتذارهم. وكان عدد الامراء عشرة واكبرهم الامير منقذ وعدد عشائرهم الذين تحت امرهم خمسة عشر الفاً. ثم رحلوا من الجسر اليعقوبي ونزلوا في وادي التيم وكان نزولهم من الظهر الاحمر الى الكنيسة.

وفي السنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م يقول مطران صور ان القومس صاحب طرابلس كان له ثماني سنين مأسوراً في حلب، فبادل عن نفسه بالف وخمسماية درهم وعاد الى طرابلس. وقال ابن الحريري ان القومس اعطى نور الدين ثلاث كرات دينار (الكرة مائة الف) وخمس مائة زردية ومثلها اسرى واحصنة. وفيها ذكر الذهبي في تاريخ الاسلام انه وقع بَرَدٌ عظيم فوزنت الواحدة فبلغت سبعة ارطال بالبغدادي. وكان غالب البرد شبه النارنج، فقتل

كثيراً من الناس والمواشي. وفيها نزلت امطار غزيرة دامت اربعة اشهر في الموصل فهدم فيها الفا بيت من المطر وغرقت بغداد بالزيادة وهرب الخلق واستغاثوا بالله. واقاموا الخطبة بالصحراء وهلكت ضياع وهدمت دور كثيرة. وفيها بعث نور الدين يطالب صلاح الدين بحساب ارتفاع مصر (اي ازدياد موسمها) فصعب عليه، ولكن كونه لا يزال تحت يده سكت، وامر بعمل الحساب وبعثه لنور الدين، ومعه تقادم نفيسة منها قطع ياقوت وزنها سبعة مثاقيل، ومائة عقد جوهر، ومائة ثوب اطلس، فلم تصل حتى مات نور الدين. وفي هذه السنة يوم الاربعاء الحادي عشر من شهر شوال كانت وفاة الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي ابن سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر بعلة الخانوق وكنيته ابو القاسم، وكان مولده سنة ٥١١. ومدة ولايته ثماني وعشرون سنة. وكان ملكاً جليلاً ومجاهداً ولم يكن في سير الملوك احسن من سيرته، ولا اكثر تحرياً للعدل منه. كثير الصدقات وحسن الخط. وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ماله الخاص أو من عمل الاقفال الخشبية والكوفيات التي كان يعملها ويخيطها بيده. وفي الحرب كان ثابت القدم حسن الرمي شديد العزم ففتح خمسين حصناً ونيف منها تل باشر وغراز ومرعش وبهسنا وتل خالد وحارم والمرزبان والرها، وقتل امير انطاكية وثلاثة الاف مقاتل معه. واخذ من قومس طرابلس ثلاثماية الف دينار وخمس مائة الف زردية، وخمس مائة حصان وخمسماية اسير. واتسع ملكه ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر ودمشق والعواصم، وبعلبك وبانياس ومصر واليمن، وخطب له في اكثر اقطار الدنيا، وبنى في بلاد الشام اسوار المدن التي هدمت بالزلازل مثل دمشق وحمص وحماه وشيزر وبعلبك وغيرها. ومع شجاعته جمع الصفات الدينية التقوية كالخشوع لله والمواظبة على الصلوات والانعكاف على تلاوة المصحف، ولم يلبس حريراً قط ولا ذهباً ولا فضة، وبنى المساجد والمدارس في دمشق وحلب، وبنى المستشفى والمكتب لليتامى ودار العدل بدمشق، ووقف له الوقوفات. ووقف ايضاً على سكان الحرمين وعلى المرضى والمجانين، وعلى جامع الموصل وغيرها. واقطع امراء العرب لئلا يعترضوا الحج، وامر باكمال سور مكة، واجرى اليها العين التي

تؤخذ من عند قبر حمزة، وبنى جسر كامد اللوز في سهل البقاع، وجدد كثيراً من الجسور والخانات، وقناوات السبل في أعمال دمشق وغيرها، واسقط المكوس وكلما كان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والخيالة (او الفرسان)، ومنع بيع الخمر والمنكرات من جميع سلطنته. وكان مقدار هذا المكوس الذي رفعه نحو ست كرات، ومن ذلك على دمشق وحدها اكثر من خمسين الفاً سنوياً. وفيها سار ملك القدس الى بانياس ووضع عليها الحصار، فارسلت له ارملة نور الدين زنكي مقداراً من الدراهم وعشرين اسيراً فرحل عن بانياس وعاد الى القدس، وحال وصوله اصابه سيلان دم مع حمى شديدة فمات ودفن بقرب اخيه. وكان الملك المريكوس (المرك) ملكاً جليلاً متعبداً صبوراً في الحروب قنوعاً في الاكل والشرب. وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة وخمسة اشهر. وفيها توَّج بلدوين ابنه ملكاً على القدس، وهو بلدوين السابع من ملوك القدس وكان عمره حين تملكه ثلاث عشرة سنة، واعطيت محافظة المملكة الى رجل يدعى ميلون وكان ميلون هذا متكبراً في نفسه قاصداً العجب والعظمة على جميع امراء الافرنج، فكرهه الجميع وبالاخص القومس صاحب طرابلس الذي كان الصغير بالنسبة الى الملك، والافضل بين جميع امراء الافرنج في كثرة المال وقوة الرجال وشدة العزم، ولما اسروه في حلب ارسل وسلم بيد ملك طرابلس جميع ما يملك في حياته وبعد موته ولاجل ذلك كان الاجدر بالقومس المذكور ان يكفل بلدوين الملك لانه كان ابن خالته، وامين على محافظة كل مملكته. وحدث ان وثب على ميلون قوم وهو في عكا وقتلوه غدراً في الليل، فاخذ المحافظة او الوكالة رايموند القومس ابن رايموند ابن فنطيوس ابن بيئران ابن رايموندس الكبير الذي قدم الى بلاد الشام صحبة غوفريد (كودفروا) الملك وتولى على طرابلس الشام. وحكى شرف الدين يعقوب ابن المبارز عن الملك العادل ان في دارهم قفلاً من خشب من عمله في بلاد خوزستان وهي باقية الى سنة خمسين وستماية يتباركون منها. وقصدنا الجهد بهذا المختصر ايضاح محاسنه ودينه وشجاعته وغزواته وفتوحاته ومساجده ومدارسه وبره وعدله ومناقبه التي هي اكثر من ان تحصى او تحصر. وذكر ابن الجوزي في تاريخه ان

الملك نور الدين كان تزوج الخاتون ابنة معين الدين، فطلبت منه زيادة نفقة فغضب وقال قد فرضت لها ما يكفيها واقسم بالله قائلاً انني لأخوض جهنم بسببها. وهذه الاموال ليست لي بل للمسلمين وانا خازنهم فلا اخونهم فيها، ولي بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصّل منها قدراً يسيراً. قال وكان يلعب بالكر كثيراً، فكتب اليه بعض الصالحين ينتقد عليه ويقول انك تتعب الخيل بغير فائدة، فاجابه انني لم اقصد اللعب وانما نحن في ثغر والعدو منا قريب، وربما وقع صوت (اي منـاداة للاستغاثة) فتكون الخيل معتادة على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فاذا طلبنا العدو أدركناه. ولو تركناها لحالها لصارت جماحاً لا ينتفع منها (الفرس الجماح المتروكة بدون ركوب). وكان الملك نور الدين يوماً يلعب بالكريميدان دمشق فجاء رجلٌ ووقف بازائه واشار اليه، فقال الملك نور الدين للحاجب اسأله ما حاجته، فقال : لي مع الملك دعوى محاكمة، فرمى الصولجان من يده وجاء مع الرجل الى مجلس القاضي كمال الدين، فقال الرجل لا تنزعج يا ملك واسلك معي كما تسلك مع احد الناس. ولما تحاكما لم يثبت للرجل حق على نور الدين، فقال الملك نور الدين للقاضي هل ثبت لهذا الرجل عليَّ حق، فقال : لا. فقال نور الدين اشهدوا عليّ انني وهبت هذا الرجل ما ادعى به، وقد كنت اعلم ان ليس له به حق، وإنما حضرت معه لئلا يقال عني انني دعيت الى الشرع فابيت. وحكى القاضي كمال الدين قال : اني بعثت الى نور الدين من فائض الاوقاف مالاً جزيلاً، فقال ردوه اليه وقولوا له ان نور الدين رقبته دقيقة لا يقدر على حمل ذلك وانت رقبتك غليظة تقدر على حمله. ونور الدين اول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه ان الامراء لما قدموا الى دمشق واقتنوا الاملاك استطالوا على الناس وخصوصاً اسد الدين شيركوه، فكثرت الشكاوي الى القاضي، ولم يقدر على الانتصاف من شيركوه فشكا الى نور الدين فامر ببناء دار العدل. فاحضر شيركوه اصحاب ديوانه وقال لهم ان نور الدين لم يبنِ هذه الدار الا بسببي وحدي لينتقم مني، والا فمن هو الذي يمتنع على نور الدين. فالان اذا الزمني احدكم بالحضور الى دار العدل لاصلبنه، فان كان بينكم وبين احد منازعة فاصلحوا

بينهما وارضوهما بما امكن ولو كلفكم جميع ما في يدي، فان خروج املاكي من يدي اهون عليَّ من ان يراني نور الدين بعين ظالم ويساوي بيني وبين احد العوام. فافعلوا وارضوا الخصوم فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي لا أرى احداً يشكو من شيركوه، فاخبره الخبر فسجد وقال الحمد الله الذي جعل اصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم الينا. وكان يقعد في دار العدل في كل اسبوع اربعة ايام ويحضر اليه الفقهاء ويأمر بازالة الحاجب والبواب ويوصل اليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه وكان اذا حضر الحرب شد تركاشين (لا وجود لها في العربية واظنها تركية يراد بها رباط) وحمل قوسين وباشر الحرب بنفسه. فقال له القطب النيسابوري لا تخاطر بنفسك، فأنت عمدة الاسلام والمسلمين. فلو اصبت في معركة، والعياذ بالله تعالى لا يبقى من يقوم مقامك وتذهب البلاد. فقال ومن هو محمود ليقال له هذا ومن حفظ البلاد قبلي الا الله تعالى. وكان اذا مات احد من جنده او قتل وكان له ولد فان كان كبيراً ولاه مكان ابيه، وان كان صغيراً رتب معه من يتولى امره الى ان يكبر، فكان الاجناد يقولون هذه املاكنا ونحن نقاتل عنها لاننا نتوارثها. وما كان يركن الى الامراء بالولاية على الجند بل يتولى عليهم بنفسه. ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يقصر الامراء في حقهم. ويقول نحن في كل وقت في الثغر فاذا لم تكن اجنادنا كاملة العدة دخل الوهم على المسلمين. وكان عمارة اليمني ابن الحسن الملقب بنجم الدين الشاعر موجوداً حين مات نور الدين فرثاه بهذه القصيدة :

هذا ما ذكرهُ الامير حيدر بان عمارة اليمني رثا نور الدين بهذه القصيدة الاتية والصحيح ما يأتي، وهو انه كان في مصر جماعة يريدون اعادة الخلافة الفاطمية والثورة على صلاح الدين، فقبض عليهم صلاح الدين وصلبهم وكانوا من أعيان المصريين، مثل عبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الذي نظم هذه القصيدة في احوال العلويين وانقراضهم راثياً اياهم وليس الرثاء لنور الدين وهي :

رميت يا دهر كف المجد بالشللِ وجيده بعد حسن الحلي بالعطلِ
هدمت قاعدة المعروف عن عجلٍ سقيت نهلاً اما تمشي على مهل

سعيت في منهج فيه العثور فان قدرت من عثرات السعي فاستقل
جدعت مارنك الاقنى فانفك لا ينفك ما بين امر الشين والخجل
يا عاذلي في هوى ابناء فاطمة لك الملامة ان قصرت في عذل
قومٌ عرفت بهم كسب الالوف ومن كمالها انها جاءت ولم اسل
لهفي ولهف بني الامال قاطبةً على فجيعتها في اكرم الدول
بالله زر ساحة القصرين وابك دماً عليها لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما والله ما التحمت فيكم جروحي ولا قرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلةً في نسلِ آل امير المؤمنين علي
مررت بالقصر والاركان خاليةٌ من الوقود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف شامتةٍ من الوشاة ووجه الود لم يمل
اسبلت من اسفٍ دمعي غداة خلت رحابكم وغدت مهجورة النسل
ابكي على ما وهبنا من مكارمكم حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت انس وافدكم واليوم اوحش من رسم من الطلل
كانت روايتكم للمؤمنين وللـ ـضيفِ المقيم وللطاريء من الرسل
وما خصصتم بها اهليَّ ملتكم حتى عممتم به الاقصى من الملل
والله لا فاز يوم الحشر شامتكم ولا نجا من عذاب الله غير ولي

وهي قصيدة طويلة في رثاء الدولة العلوية. ومما قيل في نور الدين :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما حسن المحراب في المحرابِ

وقال غيره

سمعت حديثاً اجمد الصم عنده ويذهل واعيه ويخرس قائله
واني ارى فوق الوجوه كابةً تظن على ان الوجوه تواكله
فلم لا له نبكي ونندب فقده واولادنا ايتامه وارامله

وقال غيره عند دفن الملك العادل نور الدين

خربت ربوع المكرمات لراحل عمرت به الاحداث وهي قفارُ
نعش الملوك العادلين مشرعٌ عميت برؤيا نعشه الابصار
شخص الانام اليه تحت جنازةٍ خفضت براقي قدره الاقدار

فكأنـه تابـوت موسى اودعت في جانبيـه اهابـة ووقـار
وتغاره الحرمانِ والهرمان في تابوته وعلـى الكريـم يغـارُ
غضب الاله على رجال اقدموا جهلاً عليك واخـرون اشاروا

وبعد وفاة الملك نور الدين تولى مكانه ولده اسماعيل وكان عمره اربع عشرة سنة، (ولقب بالملك الصالح وخطب له بمصر والشام وضربت السكة باسمه، وملك ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن زنكي بلاد الجزيرة مع الموصل). وحكى ابن الشاكر عبد الله انه بعد موت الملك نور الدين محمود طمع الملك صلاح الدين يوسف الايوبي في الديار الشامية، وهو اول الملوك الايوبيين بعد الفاطميين، وكان والدهم شاذي ابن مروان ابن ايوب، وكان مقامه بتكريت. وبها توفي وكان له ولدان اسد الدين ونجم الدين. ولما تملك الملك العادل قصده نجم الدين واخوه فقربهما اليه واكرمهما وجعلهما من اصحابه وندمائه ومن مشيريه. وكان صلاح الدين يقوم بخدمة نور الدين ويجلس كأحد حراسه فاقتبس من نور الدين مبادئ كثيرة حسنة وصفات كثيرة حميدة. ولما قدم شاور البدوي وزير العاضد خليفة مصر الى دمشق واجتمع بنور الدين وطلب منه المعاضدة للرجوع الى منصبه، وجهز شيركوه معه كما تقدم فبعث ابن اخيه صلاح الدين معه وعين صلاح الدين وزيراً للعاضد كما ذكرنا واستمر وزيراً الى ان مات العاضد. وناب صلاح الدين عن نور الدين بالديار المصرية، ولما مات الملك نور الدين استقل صلاح الدين بالملك على مصر ثم على الشام ايضاً، وطرد ولد نور الدين منها، واساء الصحبة، وسيأتي ذكر ذلك. وقد اشار المعز لدين الله في ملحمته الى ذكر شاور وشيركوه وصلاح الدين بقوله شعراً :

وقد تم شاوراً امام جيوشكـم فيا بئس وغداً للجيوش تقدما
بجيشٍ عليكم كل بادٍ وحاضرٍ ويستنجد الكفار لكن عليكما
وفي خمس مائة بعد هجرةٍ احمدٍ وخمسين حولاً من زمان تقدما
يسير الى محمودٍ صاحب جلّقٍ وبوعده مالاً وملكـاً عرمرمـا
يكون زعيم القوم شيروك اسمه تميز كلامي وافتهـم وتفهمـا
وقد أبصرت عين الامام ليوسف على الملك فاستولى وبالقصر يحكما

ويرقى صلاح الدين يوسف داركم ومصراً وما تحوى الصعيدين فافهما
ويملك شهاب الشام اعني بمالها وكم من حصون بالفرات تسلما

وذكر كلاماً طويلاً في معنى ذلك اهملناه اختصاراً

وفي هذه السنة بعد نزول آل شهاب في وادي التيم، وكان المتولي سابقاً على وادي التيم ظهير الدين كرامة التنوخي صاحب ثغر بيروت، وما يليها من غربي سفح لبنان، ثم تملكها الافرنج، ولما سمعت الافرنج بنزول آل شهاب في وادي التيم جمعوا عساكرهم من صيداء وصور وعكا الى حاصبيا، وقدمت آل شهاب الى قتالهم مصباح يوم الخميس في ٣١ صفر، والتقى الفريقان. وقاموا بالنبال، وتعاركوا عراك الابل. واول من قدم الى المعركة الامير منقذ واولاده واخوته وبنو عمه، وجعل الامير منقذ يحث قومه واصحابه على القتال، وينادي بارفع صوته اكشفوا ظلام الكفر بضياء الايمان. ولم يزل السيف يعمل في الفريقين حتى الظلام، وقد قتل من الافرنج نحو ثلاثة الاف نفس، ثم افترقا عن القتال، وعند الصباح رجعوا الى الحرب والكفاح، وتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالرماح. ولم يكن الا القليل حتى فرت الافرنج من تلك الأرض، وتحصنوا في الجبال وترجلت آل شهاب، واقتحموا تلك الصخور، فازاحوا الافرنج من تلك الديار وحاصروا الباقين في قلعة حاصبيا.

وفي السنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م سار صلاح الدين بسبعماية فارس الى دمشق، وقيل ان اهل دمشق كاتبوه ليقدم لاخذها فخرج كل من كان في دمشق ولاقوه واكرموه، واخذ القلعة وتولى على جميع اموالها. وعندما ثبت قدمه قرر بها ابن عمه طغتكين ابن شيركوه، وانتقل الملك الصالح ابن نور الدين الى مدينة حلب، وارسل الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يطلب منه النجدة على صلاح الدين. وسار صلاح الدين في مستهل جمادي الاول الى حمص، وكانت حمص وحماه وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في مقاطعة فخر الدين مسعود الزعفراني، وكان ردي السيرة، فاخذ صلاح الدين حمصاً في احد عشر جمادي الاول وترك من يضيّق على القلعة. ونزل الى حماه فملك المدينة في مستهل جمادي الاخر،

ومضى الى حلب وشدد عليها الحصار. فخرج ملك القدس الى جهة بانياس. وكانت ايام البيادر (الاجران) فاحرق الزروع والبيادر، وسار حتى وصل الى داريا قريباً من دمشق. وغزا وادي الجنة التي في ذيل جبل لبنان فنهب وكسب اموالاً كثيرة، وقصدوا حمصاً فرحل صلاح الدين عنها الى حلب واعطى للافرنج المرابيط والكفلاء الذين كان اسرهم نور الدين فرحلوا عنه. وبعد حصار قنطورا كبير الافرنج في قلعة حاصبيا نزل آل شهاب خارج القرية ودام القتال عشرة ايام الى ان نقبوا الجدران واقتحموها بالسيوف فطلبت الافرنج الامان فامنهم الامير منقذ، وخرجوا من دون سلاح. وكان قنطورا كبير الافرنج ومعه ثلاثماية شخص محاصرين داخل القلعة، فما ارتضوا بالتسليم فهجم آل شهاب ونقبوا حائط القلعة بالقداديم والمعاول واستولوا عليها وقتلوا قنطورا ومن معه. ثم ارسلوا رؤوس القتلى الى دمشق الى السلطان صلاح الدين، فسرَّ بذلك سروراً زائداً وكتب الى الامير منقذ يهنئه في ذلك الانتصار، وانه يقيم في البلاد التي افتتحها ويكون اميرها. واطلق له التصرف بها وانهم اي آل شهاب يكونون ولاة عليها الى ما شاء الله. وارسل لهم الخلع السنية والحلل الرسمية صحبة رستم بك الداودار فقبلوا تلك الخلع بالفرح والسرور. ولما بلغ البطريق بفاطر الافرنجي صاحب قلعة الشقيف ما جرى على الافرنج اعتراه خوف شديد، وارسل اليهم يطلب منهم الصلح، فهادنوه على ذلك. وكان في ذلك الوقت الامير على جبل الشوف من لبنان الامير يونس ابن الامير معن المعني فلما بلغه ذلك فرح فرحاً عظيماً.

وفي هذه السنة في ايام المستضيء بامر الله ظهر في علم الطب والحكمة السموأل اليهودي المغربي واصله من الاندلس، وكان فريد زمانه وعالم اوانه وله مصنفات كثيرة واشعار جليلة، ومن اشعاره قصيدة يصف بها قومه بالفروسية اولها.

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميلُ
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيلُ

وكان قد اسلم قبل موته وارتفعت مرتبته وخدم السموأال عند امراء بيت البهلوان في مراغة الى ان مات في هذه السنة.

وفي السنة ٥٧١ هـ = ١١٧٥ م قدم سيف الدولة غازي في العساكر الحلبية والموصلية لمقاتلة صلاح الدين بقرب حماه، فظفر بهم وغنم اموالهم، ثم صار الصلح بين الملك الصالح ابن نور الدين وبين صلاح الدين، واستمر لصلاح الدين ما كان تملكه من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده. ورحل صلاح الدين عن حلب في اخر شوال، وانعم بحمص على ابن عمه محمد ابن شيركوه، واستناب بدمشق اخاه سيف الاسلام طغتكين، وبمصر اخاه العادل. ثم بعث الى المستضيء خليفة بغداد يطلب منه تقلد السلطنة الكبرى وهي مملكة مصر والشام واليمن والحجاز وكلما يفتحه، وتقرر له الملك. وفيها مات ابو القاسم علي ابن الحسين ابن عساكر صاحب التاريخ الكبير وكان فريد عصره. وفيها سار صاحب طرابلس الى بانياس ماراً على بلاد جبيل وحصن المنيطرة، وخرج اليه شمس الدولة اخو صلاح الدين من دمشق وتواقع الفريقان، وكانت الكسرة على شمس الدولة، فانهزم بنفر قليل، وتولى الافرنج على خيامهم وامتعتهم، وغزوا نواحي البقاع، وعادوا بسابلة كثيرة. وفيها امر خليفة بغداد بتنصيب رئيس الرؤساء على الوزارة، وكان قطب الدين قيماز عدواً له فاغلق باب دار الخلافة، وقد طمع في الدولة واستطال ولم يبق معه للخليفة حكماً، واتفق مع الامير تنامش الذي كان قد استولى على البصرة ونهبوا القرايا واحرقوها وقطعوا الطريق، فغضب الخليفة وارسل صندلاً بالعساكر الى لقاهما، فاقتتل الفريقان ولم يقدر صندل عليهما، فارسل الى الخليفة يستمده، فصعد الخليفة على منظرة (مأذنة) الريحانيين، وظهر للناس وقد اجتمع اهل بغداد تحت المنظرة وقال : يا اهل بغداد انا خليفتكم، وقد عصى علي قيماز وكفر بنعمتي وظلم رعيتي، واستحل ما حرمه الله تعالى، فالمال منا لكم والدم لي. فثارت العامة وقصدوا داره ينادون للخليفة يا منصور، وسمع قيماز الضجيج، فقال هذا الصياح لنا ام علينا، فقالوا : علينا. فقال : هلكنا ورب الكعبة. وحمل العوام على اصحابه فطحنوهم، وضربوا ابوابه بقوارير النفط فاحرقوه، واحرقوا جماعة من اصحابه. ودخلوا داره، فهرب هو وتنامش من باب السر في نفر يسير، والعامة خلفهم بالآجر والنشاب والمقاليع. وعبر على عقد المصطنع وهناك هرّاس يقال له ابن النحيل، فضرب

قطب الدين بالمغرفة. وقال له : يا مارق ودخلت العامة الدار وكان قطب الدين قد بسط الانطاع، (اي البسط من الاديم) وفرَّغ عليها المال والجواهر واليواقيت، واطواق الذهب والخلع، واموالاً لم يكن عند الخلفاء ولا الملوك نظيرها، فنهبوا الجميع بحيث ان العوام كانوا يدخلون المطبخ والقدور بحالها فيرمي الواحد في القدر المال في الاكياس ويخرج بها، فاستغنى اهل بغداد، ونادى الخليفة اخر النهار برفع النهب وعزل نسائهم وحرمهم في دوره، ووكل بهنَّ بعض الخدم يحفظهنَّ ويقوم بأمرهنَّ، وحبس الامراء والجند الذين وافقوهم واخذت اموالهم. واما قطب الدين وتنامش فهربا الى الموصل، ومات قطب الدين بظاهرها. وقيل بتل اعفر، وغسل في سقاية ولم يوجد له كفن. وكان معهم جماعة من الامراء منهم حسام الدين تميرك، فجاء الى الشام فاكرمه صلاح الدين واقطعهم الاقطاعات. وكان عماد الدين صاحب سنجار قد نهبهم واستوزر الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وخلع عليه وهو الذي قصده قطب الدين. وفي هذه السنة ذكر في تواريخ الروم بأن مناويل الملك تنازل عن الملك بعد ما تملك ثمان وعشرين سنة، وتملك مكانه ولده الكسيوس الكومونيس.

وفي هذه السنة نهض الامير يونس المعني من الشوف الى وادي التيم بجمهور من اصحابه مهنئاً آل شهاب، ولما سمع الامير منقذ بقدومه خرج الى لقاه مع اكابر قومه والتقى الاميران، وسلم الواحد على الاخر، وقدم الامير منقذ الى الامير يونس اكراماً زائداً، وبقي الامير يونس خمسة ايام، ثم رجع الى الشوف بعد ما قدم له الامير منقذ الجنائب والسلاح. وفي تلك السنة غزا الامير يونس المعني الافرنج الى السواحل وحصل بينهم حرب عظيمة، فانتصر آل معن على الافرنج واهلكوا منهم خلقاً كثيراً. ثم بعد ما راقت البلاد الى آل شهاب ارسل الامير يونس المعني يدعو الامير منقذاً الى زيارته والضيافة. فقبل الامير منقذ الدعوة وسار من حاصبيا الى الشوف وصحبته ولده الامير محمد وكان ولداً نجيباً مليح الصورة فصيح اللسان. وعند وصول الامير منقذ الى الشوف التقى به الامير يونس الى ينبوع الباروك وبقيا ثلاثة ايام، ثم ذهبا جميعاً الى قرية بعقلين حيث كان الامير يونس قاطناً، وكان للامير ابنة اسمها طيبة قد

بلغت من العمر اربع عشرة سنة فخطبها الامير منقذ الى ولده الامير محمد. وعقد عقد الامير محمد على السيدة طيبة. وعقد ايضاً عقد السيدة سعاد ابنة الامير منقذ على ابن الامير يونس، واتصل النسب بينهما.

وفي السنة ٥٧٢ هـ = ١١٧٦ م نازل صلاح الدين الاسماعيلية وخرب بلادهم فتضرعوا اليه، فرحل عنهم ودخل الى مصر، وبنى حول القاهرة سورها الاعظم المحيط بمصر والقاهرة، ومحيط هذا السور تسعة وعشرون الف وثلاثماية ذراع، وصرف عليه اموالاً عظيمة، ولم ينتفع به احد ولم يكمل، وانشأ قلعة الجبل (جيوش القاهرة). وتولى العمل على هذه القلعة قراقش ابن عبد الله وعمل ذلك في مدة سنتين.

وفي السنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م سارت الافرنج الى حصارقلعة حمص، وشددوا عليها الحصار اربعة اشهر فحضر صلاح الدين الى دمشق، ولما بلغ الافرنج ذلك رحلوا عن حمص. وحضر صلاح الدين الى بعلبك وحاصرها ثلثة اشهر، وتسلمها من شمس الدين ابن المقدم علي ابن عوض، وسلمها الى اخيه شمس الدولة تورنشاه، واعطى حماه الى ابن اخيه المظفر عمر ابن شاهنشاه. وفي هذه السنة نزل صلاح الدين بستة وعشرين الف راجل الى غزو الافرنج في الساحل، فاحرقوا الرملة ونهبوا اللد، وقتلوا واسروا جمعاً كثيراً. فارتعبت منهم قلوب الناس، وقصدوا المواضع المنيعة، وصعد اهل القدس الى برج داود. ثم ان الملك بلدوين استغاث بالله ورفع اعلامه، وخرج من عسقلان بثلاث مائة وخمسة وسبعين شخصاً اكثرهم من فرسان الهيكل، وكان عسكر المسلمين في تعب عظيم من السهر والسفر، فوثب عليهم بلدوين وشتت شملهم. وما زال يعمل السيف فيهم حتى غابت الشمس فيئسوا من حالهم ورموا سلاحهم الى الاودية والاوجار. ثم حدث في تلك الليلة برد شديد ومطر دام عدة ايام فهلك بعضهم من البرد وبعضهم من قتل السيف، وبعضهم رمى سلاحه وفر هارباً مع صلاح الدين، وقصدوا العودة الى مصر في القفر. فهلكت دوابهم، وهلك البعض منهم من العطش ومن مشقة الطريق، وغنم الافرنج جميع ما كان معهم. وقبضوا على الذين استتروا في المغائر، ورجع الملك بلدوين مسروراً الى القدس. وفي هذه السنة قتل عضد الدين وزير

الخليفة المستضيء واقيم مكانه ظهير الدين المعروف بابن العطار، وكان جوّاداً حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكناً كثيراً. وفيها كان الغلاء العظيم العام، ثم تبعه الفناء والوباء الشديد ببلاد الشام. وفي هذه السنة سار الامير منقذ الشهابي الى دمشق لمقابلة السلطان صلاح الدين وحين دخل عليه التقاه السلطان احسن ملتقى، وبقي عنده عدة ايام فأكرمه غاية الاكرام، ثم استأذنه بالرجوع فاذن له بعدما خلع عليه واعطاه عطايا سنية، واستمر الامير منقذ مدة حياته في ارغد عيش، وهو اول الامراء الشهابيين في وادي التيم، وفي ايامه توفي الامير يونس المعني وقام بعده ولده الامير يوسف حاكماً على جبل الشوف.

وفي السنة ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م بنى بلدوين برجاً على شاطئ الاردن ببيت يعقوب في وادي قادس، وقيل ان من ذلك الموضع عبر يعقوب اب الآباء نهر الاردن وهو ذاهب الى خاله لابان. (ويدعى الان جسر بنات يعقوب) واحتمل الافرنج مشقات كثيرة من غدر اهل جبل زابلون، وقتل من العربان الذين قصدوا اذيتهم عدد كبير. وفي هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الامام المستضيء بامر الله، وكانت خلافته نحو تسع سنين، وعمره تسع وثلاثون سنة، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية قليل المعاقبة على الذنوب، وكان محباً للعفو. فعاش حميداً ومات سعيداً.

الفصل السابع والثلاثون

في خلافة الناصر لدين الله ابي العباس احمد وهو الرابع والثلثون من العباسيين

ولما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار في اخذ البيعة لولده ابي العباس احمد، ولقب بالناصر لدين الله. ولما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة مجد الدين ابو الفضل ابن الصاحب، وكان جزاء ابن العطار عندهم هو أنهم قبضوا عليه وحبسوه في داره، ثم نقل الى تاج، وقيد وطلبت ودائعه وامواله، ثم اخرج ميتاً على رأس حمال سرا، فثار بعض العامة على الميت، وفعلوا بجثته ما لا يليق ذكره من اهانة وتعرية وجر في الاسواق، والحال أنه كان حسن السيرة كافاً عن اموالهم وعن اعراضهم.

وفي السنة ٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م قصد اهل زبولون خراب البرج الجديد الذي بناه بلدوين ببيت يعقوب، فوقعوا بيد الافرنج الذين كانوا كامنين لهم وقتلوا منهم مائة نفس، ثم صعد اليهم بلدوين الملك ليلاً ووقعت جماعته في كمينهم وقتل من الافرنج عدد غفير ومن جملتهم سلاحدار الملك. ثم أنه قدم صلاح الدين وجاهد على حصار البرج فقتل واحد من امرائه ورحل عنهم. وفي هذه السنة كانت الوقعة بمرج عيون بين صلاح الدين والافرنج. وكان قد وصل اليهم صلاح الدين بغتةً وهم نازلون على شاطئ النهر ليستريحوا من تعب الطريق، فهاجمهم على غفلة، فانهزم الافرنج واخذ منهم نحو مايتين

وسبعين اسيراً واعتقلوهم بقلعة دمشق. وكان من جملة الاسرى اورون مقدم الديوان، فمات في السجن. وآغون صاحب طبرية، وصاحب جبيل، وابن صاحب مرفح وبلدوين. وكل من رام من هؤلاء الاسرى استفكاك نفسه بالف اسير وجملة دراهم فك نفسه ونجا. ثم ان صلاح الدين سار الى برج بيت يعقوب فملكه. وقتل جميع من كان فيه وهدمه الى الأرض. فقال ابو حسن علي ابن محمد الساعاتي في ذلك شعراً :

وقفت على حسن المخاض لانه　　لموقف حق لم يوازنه موقفُ
وما رفعت اعلامك الصفر ساعةً　　الى ان غدت اكبادها السود ترجفُ
ايسكن اوطاناً لنا شين عصبة　　يمين لدى ايمانها وهو يخلفُ
نصحتكم والنصح في الدين واجب　　ردوا بيت يعقوبٍ فقد جاء يوسفُ

وكتب بها صاحب حماه الى صلاح الدين شعراً

لله در صلاح الدين من اسدٍ　　تأبى فريسته الايام ان وثبا
رأيت جلق صفراً لا نظير لها　　فحيها عامرٌ من هو الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها　　واجمع الخلق في اوطانها هربا
احييتها مثلما احييت مصراً فقد　　رددت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت　　سبيله واهان الجحفل الجلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت　　جيوشه حيث كان الجحفل انقلبا
ابت له الضيم نفسٌ حرةٌ ويدُ　　فعاله وفوادٌ قط ماسلبا
مستكثر المدح يتلو في مكارمه　　زهداً ويستصغر الدنيا اذا وهبا
فهو الجواد ولكن لا يقال كبا　　وهو الضريغم لكن لا يقال خبا
فانت اسكندر الدنيا ووارثها　　فاقصد ملوك خراسانٍ ودع حطبا

وفي هذه السنة توفي الملك المعظم تورنشاه الملقب شمس الدولة فخر الدين اخو صلاح الدين لابيه، وكان اكبر من صلاح الدين. ومات وفي نفسه ميل الى الملك، ويرى انه احق به من صلاح الدين، وكان يبدو منه بعض الكلمات في هذا المعنى في حال سكره. ولما بلغ اخاه صلاح الدين ذلك ابعده عنه الى اليمن، فظلم وعسف بسفك الدماء واخذ الاموال ولم تطب له

اليمن، فعاد الى الشام ضدّا لرأي صلاح الدين فاعطاه بعلبك. ثم بلغه عنه شيء قبيح فابعده الى الاسكندرية، فاقام بها منعكفاً على لهوه ولذاته، ولم يحضر حروب اخيه وتوفي بالاسكندرية. وفيها توفي سيف الدين غازي ابن مودود زنكي صاحب الموصل وولى اخاه عز الدين على الموصل، واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده معز الدين سنجرشاه، واعطى قلعة شوس وبلد الحميدية لابنه الصغير ناصر الدين كبك. وكان المدير لدولة عز الدين مجاهد الدين قينار واستقر الامر بدون خلاف.

وفي هذه السنة بعد ما رتب صلاح الدين دمشق وبصرة زحف بالعساكر الى طرابلس، ونزل بارض عرقا بارض قومس طرابلس وبين فرسان الديوانية المتولجين الحصون الشمالية حتى لا يقدر احدهم ان ينجد رفيقه، وغارت جماعته على ايالة طرابلس في ايام الحصاد، فقتلوا ونهبوا، واحرقوا، وامر اغربة (مراكب) مصر ان تسير الى محاصرة ارواد. فلما رأى ذلك القومس صاحب طرابلس ارسل فطلب الهدنة فصالحه صلاح الدين وعاد الى دمشق. وفي هذه السنة ازوج الملك بلدوين اخته الى جويدون ابن اجوس الاسمر من طايفة لوسيان، لانها كانت ترملت ولها ولد يدعى بلدوين ليكون كافلاً له، واعطاه يافا وعسقلان في الصداق. وفي هذه السنة توفي مناويل الذي كان تنزل سابقاً عن مملكة الروم واخلفه ولده الكسيوس. وكان مناويل ملكاً جليلاً محباً للافرنج، وزاد في محبتهم على والده، لكن ابن عمه وخاله اندرونيكس اتفقا عليه مع امراء الروم وسملوا عينيه واماتوه بعدما عذبوه عذاباً يستقبح ذكره. ثم عادوا واعملوا السيف بالافرنج ولم يعفوا عن قتل النساء، ولا عن الذراري ولا عن القسيسين، ولا عن الرهبان بل باعوا منهم للاعجام وللاسلام نحو اربعة الاف، وقتلوا الباقين وسلبوا ارزاقهم، واضرموا النار في بيوتهم وكنائسهم واديرتهم، ودخلوا كنيسة القديس يوحنا وقتلوا جميع المرضى والخدام الذين فيها، وقبضوا على يوحنا الكردينال، وقطعوا رأسه وعلقوه على ذنب كلب. وليس ذلك فقط بل اخرجوا جثث كثيرين من قبورهم واحرقوها في شوارع المدينة، ولم يفلت منهم الا الذين فروا في البحر. ورجعوا باربعة واربعين غراباً (مركباً) عدا عن المراكب التي اضيفت اليهم. فجازوا جميع المدن

والحصون والقرى التي في سواحل بلاد الروم واضرموا بها النار وسبوا وقتلوا من فيها ولم يعفوا عن مخلوق. فانقطعت الافرنج من بلاد الروم ومن بلاد قيليقية والرها وانطاكية. والذين اتقوا الله ساروا بعيالهم الى نواحي جبل لبنان، والذين تبقوا في ارضهم ذلت قلوبهم وضعفت امورهم. وذكر اسقف صور صاحب التاريخ ان هذه الامور لم تصبهم الا لكثرة خطاياهم. فان الذين سلفوا قبلهم كانوا بجيش قليل ينتصرون على جيوش كثيرة لزيادة غيرتهم وصيانة ايمانهم وثقتهم بالله الذي سلكوا بطاعته وحفظوا شريعته. ولاجل ذلك عندما فسدت نوايا اولادهم، وتركوا تقوى الله ارسل الله عليهم اولاً زنكي فتملك الرها واهلك كل من بها، ثم ان نور الدين طردهم من مصر بعد ما اوشكوا ان يتملكوها، ثم ان صلاح الدين وحده تولى على الديار المصرية والشامية، وجميع عيالهم التي كانت متفرقة بعضها عن بعض اهلكها وشتت شملها. ثم استؤصلوا من القسطنطينية بعد ما كانوا تزوجوا ببنات ملوك الروم وامتلأت منهم المدينة والعائلة المالكة.

وفي السنة ٥٧٧ هـ = ١١٨١ م قدم الى دمياط مراكب افرنج فيها نحو الف وخمسماية شخص قاصدين زيارة القدس، فحملهم الريح عنفاً الى جهة مصر فقبض عليهم صلاح الدين مخالفاً العهد الذي صار بينه وبين ملك القدس ثم انه سار في الجيوش المصرية الى الكرك لقتال الافرنج، فقدمت اليه ايضاً الجيوش الشامية من دمشق وبصرة وبعلبك وحمص وغيرها، فداسوا بلاد الجليل في ايام الحصاد، وتملكوا دبورية التي بقرب عاين، وقتلوا اهلها واسروا منها ومن غيرها نحو خمس مائة نفس، ثم زحفوا على مغارة قلعة الشقيف فملكوها بالامان، ثم جازوا بيسان وجنين والغور وبلاد طبرية، ثم ان صلاح الدين اتى الى دمشق، وعاد الى طبرية بنحو عشرين الف فارس، فخرج اليهم بلدوين بسبع مائة نفس لا غير، ونزلوا عند صفورية، وتواقع العسكران بين طبرية والجبل. وكانت الهزيمة على عسكر الشام فقتل منهم نحو الف نفس ورجع الباقون الى دمشق. وفي هذه السنة توفي الملك الصالح اسماعيل بن الملك نور الدين محمود صاحب حلب، فاوصى بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي، فتسلم حلب واعطاها لاخيه عماد الدين

واخذ عوضاً عنها مدينة سنجار (وكان اسماعيل هذا عفيفاً صالحاً تقياً وصف له الخمر في مرضه بالقولنج فمات به ولم يذقه وعمره حين مات تسع عشرة سنة). وفيها توفي الملك فرخ شاه ابن شاهنشاه ابن ايوب وكنيته ابو سعد عز الدين صاحب بعلبك، وكان من الافاضل كثير الصدقات متواضعاً سخياً جوّاداً مقداماً، وكان عمه صلاح الدين قد استنابه بدمشق ثم اعطاه بعلبك وكان فرخ شاه شاعراً فصيحاً ومن شعره في وصف دمشق :

دمشق سقاك الله صوب غمامةٍ وما غائبٌ عنك فذاك رشيدُ
عسى مسعد لي ان ابيت بارضها الا انني لو صحَّ لي لسعيدُ

وكانت وفاته بدمشق ودفن بالقبة المنسوبة اليه في الشرق الشمالي من الميدان، وتملك بعلبك بعده ابنه الملك الامجد. وفيها توفي الملك بوري ابن يعقوب ولقبه ابو سعيد تاج الملوك، وكان ذا محاسن واخلاق ومكارم ولطف طبائع وكرم وشجاعة وفضل وفصاحة، وكان اديباً شاعراً. وله ديوان شعر ومن جملة اشعاره :

اقبل من اعشقه راكباً من جهة الغرب على اشهبِ
فقلت سبحانك ياذا العلى اطلعت الشمس من المغربِ

وفي السنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م سار صلاح الدين في العساكر الشامية الى بيروت، وغزا برها وقطع اشجارها وجاءه من مصر ثلاثون غراباً (مركباً) في البحر، وقدم اخوه في عمارة بحرية، فغزا نواحي دارا وعسقلان، ثم اليوم الثالث نزل بلدوين مع جملة عساكره لمقاتلتهم فرحلوا عن بيروت. ثم قصد صلاح الدين الموصل وعبر الفرات واستملك الرها وحرّان وما يليهما، وشدد القتال على الموصل فلم يقدر على اخذها، فتوجه الى سنجار وملكها، واما الملك بلدوين فقصد مغارة قلعة الشقيف وحاصرها مدة عشرين يوماً، وفي اول الخريف ملكها بالامان. ثم زحف لنواحي دمشق فاخذ بالسيف الغوروداريا واحرقها، وقطع الشجر ونهب البيوت واسر من وجد.

وفي هذه السنة ترك صلاح الدين مصر وتوجه بالعساكر الى بلاد الشام، وعند توديعه في القاهرة انشد الشعراء في الوداع اشياء لطيفة وبينهم فقيه يعلم

اولاد السلطان انشد :

تمنــع من شميــم عرار نجــدٍ فمــا بعــد العشيــة من عرارِ

فتطير منه صلاح الدين، وكان كذلك اذ لم يرجع صلاح الدين الى مصر ابداً.

وفي السنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م تملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب وحاصر حلب وفي خمسة ايام من شهر حزيران (يونيو)، اخذها من عماد الدين زنكي واعطاه سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج عوضاً عنها، ثم أنه أخذ حارم، ثم رجع الى فلسطين وعبر نهر الاردن واحرق بيسان. وارسل لاخيه العادل طالباً ان ينجده بالعساكر المصرية. فوضعوا الحصار على الكرك ولم ينالوا غير التعب. فاعطى حلب وقلعتها واعمالها لاخيه العادل في شهر رمضان، واحضر ولده الظاهر الى دمشق وارسل ابن اخيه ابن تقي الدين عمر الى مصر نائباً عنه. ومن الاتفاق العجيب أن القاضي محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها.

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ مبشرٌ بفتوح القدس في رجبِ

فوافق فتح القدس في شهر رجب سنة ٥٨٣، وقيل ان هذا البيت من جملة الاسباب التي حركت صلاح الدين للاهتمام باتمامه وفتحها في رجب.

وفي السنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م وثب اندرونيكس القائد على الكسيس ملك الروم وخنقه، وتولى على مملكة الروم مكانه. وفيها في شهر تشرين الاول (اكتوبر) سارت زلزلة بعد نصف الليل استمرت اربع ساعات، ذكر في تاريخ ابي الفرج أنه توفي قطب الدين ابن ايلغازي ابن نجم الدين تمرتاش ابن ايلغازي ابن ارتق صاحب ماردين، وملك بعده ابنه حسام الدين وهو طفل صغير، وكان شاه ارمن صاحب خلاط خال قطب الدين، فحكم في دولته بعد موته، وقام بتربيته وتدبير مملكته وكان ديناً جواداً، فاحسن تربية الولد وتزوج امه. وبعد مدة يسيرة توفي ابن قطب الدين وبقي شاه ارمن متولياً على خلاط وماردين.

وفي السنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م كانت وفاة بلدوين الرابع ملك القدس

وتخلف بعده ابن اخيه بلدوين الخامس وله من العمر ست سنوات، وتولى محافظاً على مملكته غوي دي لوزيبان زوج اخته سبيلا صاحب يافا، فلما بلغ ذلك صلاح خرج من دمشق وجمع العساكر المصرية، ونصب المجانيق على الكرك وحاصرها، فتملك طريق الكرك وبقيت القلعة فتجمع عليه الافرنج فارسل يطلب الاقامة فما مكنوه من ذلك وطردوه منها قهراً، فسار الى نابلس واحرقها، ونهب وقتل واسر كل من بتلك النواحي. ثم ان بلدوين عزل غوي عن المحافظة ونصب مكانه دايمون الثاني صاحب طرابلس وكيلا وجوسلين دي كورتناي ناظراً. ذكر في تواريخ الروم ان بهذه السنة سار صلاح الدين مرة ثانية الى الموصل وحاصرها، وكان اصحاب الموصل يعبرون الدجلة ويقاتلون الى الجانب الشرقي، فعزم صلاح الدين على قطع الدجلة عن الموصل الى ناحية نينوى، فلم يمكنه وعلم ان المدة تطول والتعب كثير فاعرض عنه. ورحل الى ميافارقين لانه بلغه ان شاه ارمن تولى على خلاط، فسير اليه العساكر صحبة ابن عمه ناصر الدين ابن شيركوه فنزل قريباً من خلاط، وترددت الرسل بينهما، ورحل صلاح الدين راجعاً.

وفي السنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م قال ابن سباط : اقام صلاح الدين ابنه عثمان نائباً بمصر ومعه اخوه العادل الذي كان بحلب. وفيها اخذ البرنس صاحب الكرك قافلة عظيمة من المسلمين واسر من معها، فصعب ذلك على صلاح الدين وارسل عسكراً يغزو بلاد عكا، ومضى هو بنفسه مع جيش عظيم الى الكرك، ثم انه اخذ طبرية التي كان صاحبها قومس طرابلس، وكان القومس قد دخل تحت طاعته، فاجتمع الافرنج لمقاومة صلاح الدين بخيلهم ورجلهم، ونزل صلاح الدين الى الكرك والشوبك واحرق كرومها، واقام هناك الى ان اجتمعت اليه العساكر برأس الماء. وجهز الغارة على طبرية. فقدم على العساكر الشرقية مظفر الدين كوكي ابن كوجي، وعلى عسكر حلب زين الدين داردم، وعلى عسكر دمشق قيماز النجمي. فساروا مدلجين واصبحوا مقابل صفورية، فخرج الافرنج الى لقاهم فظفروا بهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم سار السلطان صلاح الدين من الكرك ونزل الى الاقحوانة، ونزل الافرنج في صفورية فرتب بعض عساكر لقتالهم، ومضى بنفسه الى طبرية وتسلمها عنوة.

فلما علم الافرنج بذلك تهيأوا لقتاله ويوم السبت لخمس بقين من ربيع الثاني التقى الفريقان، واشتد الحرب، والتحم الطعن والضرب، فانخذل عسكر الافرنج وانهزموا. فلما نظر القومس صاحب طرابلس ذلك التجأ الى تقي الدين صاحب حماه ومر عليه ومضى الى طرابلس ومات مقهوراً. واما بقية الافرنج فالتجأوا الى جبل حطين، فاحاط بهم المسلمون من كل الجهات، وكانت الدائرة على الافرنج، وصاروا في قبضة المسلمين وامسكوا بالأيدي. وكان من جملتهم ملكهم الكبير كي (لربما يراد به غوي)، واخوه ملك جبيل، والبرنس وارناط صاحب الكرك، ومقدم الداوية (أو الفداوية وهم الهيكليون) وجماعة من الاسبسارية. ولم يصب الافرنج مصيبة مثل هذه الوقعة من حين ساروا الى الشام سنة ٤٩١ هـ الى هذا الان. ويقال ان جمعهم كان ينوف عن ثمانين الف فارس وراجل، وكان المسلمون اثني عشر الف فارس سوى المشاة، ولم يخلص من الافرنج الا القليل. وقتل السلطان بيده ارناط لانه كان فارس الافرنج وهو الذي كسر السلطان يوم الرملة، وهو الذي كان غدر باخذ القفل، وكان يقصد التوجه الى غزو مدينة النبي. واما بقية الافرنج فاعتقلوهم وحملوهم الى حصون الاسماعيلية. ولما اكمل السلطان هذه الوقعة فرح فرحاً عظيماً وسار الى طبرية وتسلم قلعتها بالامان، وبادر الى عكا فحاصرها وفتحها بالامان. وجاء اخوه العادل بالجيوش المصرية، الى مجدل ويافا. ففتحهما عنوة، وفرق عسكره ففتحوا الناصرة، وصفورية وقيسارية، وحيفا، ومعلتا، والفولة وغيرها من البلدان المجاورة عكا بالسيف، وغنموا واسروا وقتلوا اهل هذه الاماكن، وارسل فرقة من عسكره فملكت قلعة نابلس وتبنين بالامان في ٢١ جمادي الاول، وساروا الى صيدا، فاخلاها اصحابها وتسلمها ساعة الوصول. ثم سار الى بيروت فحاصرها ثمانية ايام وتسلمها في ٢٧ جمادي الاول، واوصى للامير جمال الدين حجي باقطاع بلاد الغرب بناحية بيرت الذي كان بيد ابيه كرامة قبل ان يملكه الافرنج. وكان صاحب جبيل مأسوراً فأعطاه جبيل على شرط ان يطلق سراحه بدلاً عنه، فاجيب الى ذلك فارسل السلطان وتسلم جبيل واطلق صاحبها الذي كان من أعظم الافرنج واشدهم عداوة، واعطاه مكاتيب ان الذين ينعم عليهم السلطان بالامان يمضون الى

صور، فمضى الماركيز الى صور، وتسلم المسلمون حصن الجيوش، وحصن لبنان، وحصن المنيطرة، وعدلون، ونازل كل فرقة من الجيش. ثم فتحوا الرملة واللدّ واروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل وليطرون، وتسلموا غالب الحصون التي في بلاد صيدا، ومضى السلطان وحاصر عسقلان، وبعد حصار اربعة عشر يوماً امر غويدون ملك الافرنج ان يسلموهم عسقلان ويفك اسره، فاطلق صلاح الدين سبيله وتسلم عسقلان بالامان. فمضى غويدون الى صور، واتفق مع الماركيز ومع الافرنج سكان البلاد، ومع آل الغرب على محاصرة عكا فحاصروها وملكوها، وحصل للافرنج مشقات عظيمة من الجوع والحر الشديد حتى انها ماتت الملكة زوجة غويدون واولادها الاربعة.

وفي هذه السنة كانت وفاة بلدوين الخامس، وكانت مدة ملكه في بيت المقدس ثمانية اشهر فاخفت امه موته حتى أنها بالرشوة والمواعيد استعطفت خواطر اكابر الافرنج فجعلوا زوجها جويدون (لربما غويدون) ملكاً بعد ابنها. فلما بلغ ذلك القومس صاحب طرابلس الذي كان من اقرباء بلدوين المتوفي اشتد غيظه ولم يشأ أن يكون تحت طاعته. ثم أنه كاتب صلاح الدين واستنجد به، وكان بيد القومس طرابلس وطبرية وبلاد الجليل. ثم أن جويدون الملك ارسل مكاتيب بامضائه وإمضاء امراء الافرنج الى البابا يطلبون النجدة، ولما وصلت المكاتيب كان توفي البابا. وفي هذه السنة سار اندرونيقس ملك سمقالية في عمارة في البحر الى بلاد الروم، فتملكوا تسالونيقية ونهبوا واسروا كثيراً من الروم. فتشجع قوم من الروم وقبضوا على اندرونيقس الملك وقلعوا عينيه واسنانه وقطعوا يديه، وطافوا به في المدينة وهو محمول على جمل، وبعد ذلك قتلوه.

وفي السنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م قصد السلطان صلاح الدين يوسف القدس وكان فيها ستون الف مقاتل من الافرنج فشدد عليها الحصار من الجهة الغربية، وبعد مداومة القتال عشرة ايام انتقل الى الجهة الشمالية نحو باب العمود ونصب عليه المجانيق، فطلب الافرنج الامان فلم يجبهم، وضايق السور في الحصار والنقب وقاتلت الافرنج قتالاً شديداً، وارسلوا اليه قائلين له ان لم يعطهم الامان على انفسهم ومالهم فهم عازمون ان يحرقوا كلما في البلد من

الاثاث والارزاق، ويقتلوا النساء والاطفال ويخرجوا الى المسلمين بالسيف، فلما فهم السلطان قصدهم اجابهم الى ذلك بشرط ان يخرجوا بأنفسهم واموالهم وعيالهم بدون الات الحرب والخيل، وان يؤدي الرجل منهم عشرة دنانير والامرأة خمسة دنانير. ومن بعد ذلك من اراد الاقامة فليقم وتؤخذ منه الجزية. فأجابه الافرنج الى ذلك، وتسلم السلطان صلاح الدين القدس يوم الجمعة في ٢٧ رجب. فكانت مدة استيلاء الافرنج على القدس واحد وتسعين سنة. وصعد البعض من عساكر المسلمين الى رأس الصخرة ورموا الصليب (صليب كبير مذهب)، ودخل السلطان فمحا الصور، وكسر الصلبان، وعلق القناديل، وعمر المسجد. وفرق اموال الافرنج على العلماء والفقهاء، واعطى الخطبة لابن زنكي. وفي هذه السنة توفي الامير الكبير مؤيد الدولة ابن منقذ الكنانة، وكان من اكبر امراء صلاح الدين وهو الذي بنى حصن عجلون. وكان فارساً شجاعاً، وشاعراً فصيحاً وقد قال قاضي دمشق عن فتح حلب هذا البيت من الشعر :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجب

وحين فتحت القدس كتب الى صلاح الدين

ارى مناماً يغني عنه النظرُ القدس تفتح والنصارى تكسر
قد تم نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسبّحوا واستغفروا

وبعد ما رتب السلطان امور القدس قصد مدينة صور ونصب عليها المجانيق. وحاصرها اربعة اشهر، وما قدر عليها لان الماركيز كان حصنها وحفر لها خندقاً. فرحل عنها صلاح الدين لانه كانت دخلت ايام الشتاء، وكان حاكم القرايا التي بالقرب من مدينة صور رجلاً علوياً منشأه من العجم، وكان يحكم على ستين الف من العلويين. وكان حين تملك الافرنج تلك النواحي هادنوهم على جزية سنوية تدفع الى صاحب صور، وكانوا دائماً يقتلون من يستفردونه من عساكر المسلمين ويخطفون من الافرنج ما امكنهم، وهم يحتسبون انهم يعملون بذلك ثواباً ويتقربون الى الله تعالى بقتلهم من المسلمين والنصارى، وينتسبون الى العلويين القاطنين بمدينة بعلبك.

وفي السنة ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م ارسل السلطان الى هوتين وفتحها، ثم سار الى الشام واتى الى بحيرة قدس (التي بقرب حمص)، ومشى في العساكر قاصداً حمص، ومن ثم الى طرسوس، والى المرقب، والى الاستبطار، والى جبلة، فوجد الافرنج قد رحلوا الى اللاذقية فسار اليها، وكان فيها قلعتان. وبعد حصار شديد ملكها بالامان، ثم فرق عساكره في تلك الاماكن، فملكوا حصوناً وقلعاً كثيرة منها حصن العبد وحصن الجمهريين، وبعد ذلك سار السلطان الى قلعة بكاس، فأخلاها اهلها وتحصنوا بقلعة الشفر، فحاصرها وملكها بالامان، ثم ارسل ولده الملك الضاهر صاحب حلب فملك حرمانية وهدم حصنها، وسار السلطان الى بلاد برزيه فملكها بالسيف وقتل ونهب من كان بها. ورجع الى جسر الحديد الذي على العاصي بالقرب من انطاكية، ودخل دير بسال، وحاصر شيزر وتسلمها، وعزم على مهاجمة انطاكية، فطلب صاحبها ان يعيد الهدنة والصلح وان يطلق جميع الاسارى الذين عنده، فاجابه السلطان وهادنه، وثبّت الصلح الى ثمانية اشهر. وكان بيومند صاحب انطاكية اعظم ملوك الافرنج بتلك الناحية، وبعد ان مات القومس صاحب طرابلس ارسل ولده ليتولى على طرابلس. ثم ان السلطان سار الى حلب ومنها رجع الى دمشق، وكان اخوه الملك العادل تسلم الكرك والشوبك لشدة القحط، وسار السلطان من دمشق الى صفد وحاصرها .. فوصل اليه اخوه العادل فملكا صفد بالامان لعظم الغلاء، ثم سار الى كوكبة، وكان قيماز النجمي محاصراً لها فتسلمها بالامان، ومضى الى القدس فعمل هناك عيد الضحية، ثم سار الى عسقلان ورتب امورها، وارسل اخاه الملك العادل الى مصر، ورجع الى عكا وجدد عليها الحصار. ذكر في تواريخ الروم أنه بهذه السنة بعد تملك اندرانيكوس الكومونيس مكان ابن اخيه مناويل اقام بالملك سنتين ونصف. ثم اغتاله ايصاكوس الاتكالوس قائد جيشه، وقتله وجلس ملكاً مكانه، وشرب الكأس الذي سقاه لابن اخيه.

وفي السنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م سار السلطان ونزل بمرج عيون فحضر اليه صاحب شقيف ارنون، وكان بيد ارناطا صاحب صيدا، وسأل السلطان مدة ثلثة اشهر لينقل اهله وذخائره، فاجابه السلطان وخلع عليه واكرمه لاجل

طاعته، ثم علم السلطان أنه يرمم الحصن فاعتقله وسيره الى دمشق، وفيها اجتمع الافرنج وتقووا في مدينة عكا فالتقاهم صلاح الدين فكسروه، وقتلوا من المسلمين خلائق كثيرة. وحدث على السلطان مرض القولنج فرحل عن عكا في رابع عشر رمضان الى الخروبية، وانهزمت ارفاق فتمكن الافرنج وامتدوا في تلك الديار واقاموا ثلاثة ابراج قرب صور عكا من الخشب، وجرى بين المسلمين والافرنج من الحروب حول عكا مالا يوصف ويضيق هذا المختصر عن ذكره. وبينما هم في حرب مستديم يتغادون ويتراوحون في القتال اتى للافرنج نجدة قوية من الغرب وهي وصول فيليب ملك فرنسا وريكاردوس ملك الانجليز بجيوشهما وقواتهما البرية والبحرية. ومع أنه كان بينهما ضغائن كثيرة عائلية لا يليق ذكرها في هذا التاريخ نسيا تلك الاحقاد وحضرا الى معونة الافرنج. ووصل ملك فرنسا قبل ريكاردوس بمدة، ولما وصل ريكاردوس رأى الافرنج محيطين بالمدينة ومحاصريها، وكان حينئذ مصاباً بالحمى، فطلب ان يحملوه على فراشه لكي ينصب المجانيق بيده عليها واضطرمت غيرته ونهض من فراشه. وكان ريكاردوس المذكور من أعظم الابطال بين كل جيوش الافرنج، وكان صلاح الدين طلب النجدة من اخيه الملك العادل ومن ملك حلب وغيرهما فتأخروا عنه. ولما تضايق سكان عكا المسلمون التزموا بتسليم المدينة للافرنج ورفعوا راياتهم عليها وتملكوها. قيل انه حينئذٍ اهان ريكاردوس العلم الامبراطوري الاوستري، فإنه لما رآه منصوباً فوق علمه، او ان احد الجنود الاوستريين انزل العلم الانكليزي ونصب علمهم أعلى منه، لذلك حنق الملك ريكاردوس وهجم على العلم الاوستري وقطعه ارباً، وانزله ونصب العلم الانكليزي مكانه. اما ملك فرنسا فاعتبر انه اكمل نذره واراد الرجوع الى فرنسا. واما ريكاردوس فودع صاحبه ملك فرنسا بكل احتقار، وسار الى صور واعطى كونراد النصف الذي يخصه من مدينة عكا، وكانت امراء الافرنج في انتظار ملكي فرنسا وانكلترا ليفصلا بينهم دعوى اختلفوا فيها من جهة من يخلف بلدوين على مملكة القدس، لأنه توفي بلا عقب وكان الاختلاف بين غويّ وكونراد على الارث لكون امرأة غوي التي كانت اخت بلدوين ماتت هي وولداها بالطاعون، فحسبوا ان حق غوي،

سقط وان كونراد امير صور كان متزوجاً اختها ايزابل فحسب ان حقوق مملكة القدس تنتقل اليه من الملك المرك بواسطة زوجته ايزابل. ولذلك انقسما، فملك فرنسا انحاز الى كونراد وملك الانكليز ريكاردوس انحاز الى غوي. وكانت الشروط التي تقررت بين ملكي فرنسا والانكليز وبين السلطان صلاح الدين عند استلام عكا ان يرجع صلاح الدين لهم عود الصليب المأخود من القدس، ويطلق اسرى النصارى ومسجونيهم الذين عنده، وان يبقى بعض أُلوف من المسلمين رهائن عند ريكاردوس، ويدفع مبلغاً عظيماً من المال. وكان الاجل بينهم لاتمام هذه الشروط اربعين يوماً، ونقدهم مايتي الف دينار في هذه المدة. ولما انتهت مدة الاربعين يوماً، ولم يردّ صلاح الدين او لم يقدر على ان يردّ عود الصليب، ويدفع المبلغ الباقي من الدنانير المتفق عليها ارسل ريكاردوس وحذر صلاح الدين بما تكون عاقبة الاهمال اذا لم يفِ بوعده. وبعد انتهاء المدة أُخذ الفان وسبعماية شخص من الرهائن الى رأس تلة بمرأى من عساكر صلاح الدين وضربت رؤوسهم كلهم، وشقت العساكر بطونهم ليروا ان كان فيها من الجواهر والذهب ظناً بأنهم كانوا ابتلعوا من ذلك شيئاً، وكذلك لاخذ مرائرهم دواءً. وذبحوا مقدار ذلك على اسوار البلد بامر ديوك بوركندي نائب الملك فيليب. ثم تحركت عساكر ريكاردوس (ريتشارد) جنوباً زاحفين زحفة واحدة براً وبحراً، وكانت عساكر صلاح الدين عن شمالهم، وكان مقصد ريكاردوس محاولة عدوه واتعابه في اماكن قد خرب قلاعها بدون ان يواقعه. ولم يزل زاحفاً جنوباً الى ان وصلوا الى ارسوف وحينئذ عزم ريكاردوس على مقاتلة عدوه. وكان على الميمنة يعقوب دي آوزن، وعلى الميسرة ديوك دي بوركندي، وكان ريكاردوس في القلب. واظهرت هيئة القتال نوعاً من حسن القيادة الحربية، وظهرت جراءة وشجاعة ريكاردوس برزانة طبعه وحفظه هجوم فرسانه الى الساعة الاخيرة، فشقوا صفوف الاعداء، وكان النصر تماماً لهم. وقتل يومئذ يعقوب دي آوزن، فبكى عليه ريكارديوس بكاءً مراً. ثم زحف ريكاردوس الى يافا، وهناك جددوا بناءها، واصلحوا اسوارها في مدة وجيزة. ثم قضى بتجديد القتال، واعلم ريكاردوس صلاح الدين أنه لا يقبل الا بارجاع كل مملكة

القدس لانه كان عرض عليه كل الاماكن الكائنة بين الاردن والبحر. وخاف كثيراً صلاح الدين من ريكاردوس لِما رأى منه في ساحة القتال، فإنه كان بطلاً قهاراً وفارساً كراراً، وقائداً مغواراً. فانه بعد عدة مواقع واقع فيها صلاح الدين قصد ان يستخلص القدس، وذهب الى اللد وعسقلان وهناك فعل افعال الابطال. ولما لم تطاوعه بقية القواد عاد الى جهة يافا وبقية القواد عادوا الى عكا، ولما قارب يافا احاط بها بشرذمة قليلة من الفرسان وامهل اهلها مدة. ولما مضت المدة اظهر نفسه وطلب تسليمها وقاتلهم، واظهر بطشاً اشد من السباع الكاسرة وجرأة لا مزيد عليها، لذلك لقب (كاردليون) اي قلب الاسد وهزم المسلمين حينئذ. ولما علموا ان الذين هاجموهم وهزموهم لم يكونوا الا شرذمة قليلة خجلوا، وقالوا ان بسالة ريكاردوس هيجت في سيف الدين خصمه شهامة الفروسية، وكان ريكاردوس قد فقد حصانه في معظم الموقعة فارسل له الملك العادل سيف الدين اخو صلاح الدين فرسين لتجديد القتال. وكان قد البس ريكاردوس قبلاً وسام الفروسية لابن سيف الدين بطلب ابيه وثبت النصر للصليبين. ومما يشهد لريكاردوس بشجاعته أنه كان بصحبته او بين الحجاج اسقف سالزبري، فهذا اضاف صلاح الدين وسمع من فمه مديحاً بجرأة ريكاردوس اذ قال له ان الارض لا تقدر ان تولد بطلين نظير سلطان سورية والملك الانكليزي. ودام الحصار على عكا شهراً والافرنج محدقون بها والمسلمون محيطون بها والحرب بينهم سجال. وعساكر الاسلام والافرنج تتقوى وتتجدد وتأتيها النجدات من كل الجهات، فحشد ملك الالمان العساكر واجتاز البحر الذي وراء القسطنطينية، وقامت قيامة الافرنج لاستفكاك القدس، وتجمعوا بعددهم وعديدهم وجيوشهم واتى منهم نحو مائة الف مقاتل. فلما بلغ ذلك الخبر المسلمين يئسوا من الشام بالكلية، وارسل السلطان الى الخليفة يستنجده ويستنصر به. ثم حدث وقوع الفناء والوباء في عسكر الالمان فهلك اكثرهم في الطريق. ولما وصل ملكهم الى بلاد الارمن نزل يغتسل في النهر، فغرق فأقاموا ابنه مقامه. ورجع من عسكره طائفة الى بلادهم ولم يصل منهم الى عكا الا القليل. وحدثت حروب كثيرة بينهم وبين المسلمين كما تقدم، وقتل خلق كثير. وكانت نهاية هذه الحرب

حول عكا ان النصارى استقرت فيها لاتيان النجدة العظيمة لهم من ملكي فرنسا وانكلترا وجيوشهما في شهر رجب. ثم رحل قسم من جيوش الافرنج جنوباً في اول شعبان قاصدين عسقلان. فالتقاهم السلطان في نهر القصب وتقاتلوا فانكسرت الافرنج. وسبقهم السلطان الى عسقلان ودخلها وهدمها في شهر رمضان، وهدم ايضاً حصن الرملة وكنيسة اللد. وسار الافرنج الى عسقلان وشرعوا في بنائها ثانية، وفيها سار الافرنج من قيسارية الى ارسون، فحدثت وقعة ارسون وكانت الكسرة على الافرنج. ثم سار الافرنج الى يافا، وكان قد اخلاها المسلمون فملكوها. ثم تراسل الافرنج والسلطان في الصلح على ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك الانكليز ريكاردوس قلب الاسد، وتكون القدس للملك العادل، وعكا لامرأته. فحضر القسيسون والاساقفة وانكروا ذلك الزواج الا اذا تنصر الملك العادل اخو السلطان، فلم يتم الامر. وفي الثالث من ذي القعدة رحل الافرنج من يافا الى الرملة، والسلطان سار الى القدس لانه كان اقبل الشتاء وبادر الى بنائها. وكان السلطان بنفسه ينقل الحجارة على فرسه والعساكر تقتدي به. وفيها توفي ابو سعيد عبد الله ابن عصرون الموصلي، وله مصنفات كثيرة في مذهب الاسلام ومعرفة الشريعة، وكان بنى له نور الدين صاحب الشام المدارس بحلب وحماه وحمص وبعلبك وغيرها. وتولى على القضاء بسنجار ونصيبين وحران ودمشق وتوفي ودفن فيها. وتوفي ايضاً فيها فتيان ابن علي ابن فتيان الشاغوري، وكان بارعاً في الشعر، وفي خدمة الملوك اقام مدة في الزبداني بين دمشق وبعلبك، وتوفي في الشاغور وهي بناية بظاهر دمشق. وفيها توفي الملك مظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه ابن ايوب وهو اخو صلاح الدين. وكان صلاح الدين موليه على حلب وكان شجاعاً جوّاداً شاعراً فصيحاً. وله ديوان ينسب اليه ومن اشعاره :

اومل ان احيا وفي كل ساعةٍ تمر بي الموتى تهز نعوشها
وهل انا الا مثلهم غير ان لي بقايا ليالٍ في الزمان اعيشها

ومدح الزبداني في شعر

قد جمّد البردُ في كانون كل قدح واخمدَ الجمر في كانون حين قدح

يا حبة الزبداني انت مصفـــرةٌ بحسن وجهٍ اذا وجه الزمان كلح
والثلج قطنٌ عليك السحب تندفه والجوُّ يحلجه والقوسُ قوس قزح

وفي السنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م قتل الماريكوس صاحب صور، وكيفية قتله أنه دخل اليه اناس بزي رهبان من الباطنية وقتلوه، وتملك عوضاً عنه ريكاردوس قلب الاسد الافرنجي ملك الانكليز. وهذا لما طال عليه الحرب والحصار كاتب السلطان صلاح الدين في الصلح، وتقرر الصلح أو الهدنة الى ثلاث سنين وثلاثة اشهر براً وبحراً، وجعلوا اولها بدء ايلول (سبتمبر) الموافق ٢١ شعبان وكانت شروط الهدنة هكذا ان تبقى بيد الافرنج يافا وقيسارية وارسون وعكا وحيفا واعمالها كلها. وان تكون عسقلان خراباً. واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في حوزته، وصاحب انطاكية وطرابلس يدخل بعهدة الافرنج. وان تكون اللد والرملة مناصفة بينهما. واتفقا على ذلك. ثم ان السلطان ارسل مائة بناء لتخريب عسقلان ولكي تخرج الافرنج منها، حينئذٍ عاد السلطان الى دمشق.

وفي السنة ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م توفي السلطان الكبير الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي. وذلك أنه خرج للصيد الى شرقي دمشق وغاب خمسة عشر يوماً وبصحبته اخوه الملك العادل، ولما رجع اصابته حمى صفراوية شديدة وتوفي بها ليلة الاربعاء في ٢٧ صفر. واكثر اهل دمشق يوم موته من البكاء والعويل والضجيج بما لا يمكن وصفه، وكان ملكه في الديار المصرية والشامية نحو اربع وعشرين سنة. وافتتح بسيفه وبسيوف اخوته من اليمن الى الموصل والى طرابلس الغرب والى اصوان، وانفق الاموال في الغزوات، ولم يخلف داراً ولا عقاراً ولا مالاً الا سبعة واربعين درهماً لفرط كرمه. وقال عنه العماد الكاتب : مات بموت السلطان الرجال، وفات بوفاته الفضلاء، وغاضت الايادي وفاضت الاعادي، وانقطعت الارزاق وادلهمت الافاق. فُجع الزمان بواحد زمانه، ورزيء الاسلام بركن أركانه، وخلف سبعة عشر ولداً منهم ولده الكبير الملك الفاضل نور الدين استقر بدمشق ونواحيها، واستقر بالديار المصرية ابنه الثاني الملك عثمان وهو الثاني من الملوك الايوبية في الديار المصرية، واستقر بحلب الملك الضاهر غازي وهو

الاصغر بين اخوته، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية أخوه الملك العادل سيف الدين ابو بكر، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج ابن اخي صلاح الدين الملك ناصر الدين محمد، وفي بعلبك الملك مجد الدين بهرام شاه الايوبي، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه، وبصرة بيد الملك ابن صلاح الدين، وبقية الحصون تفرقت بين الامراء. وفيها قال ابن الحريري هلك اسنان ابن سلمان البصري مقدم الاسماعيلية وصاحب الدعوة، وكان داهية زمانه مكاراً خبيثاً زنديقاً، له مهارة قوية في العلوم. فقدم الى الشام وطلع الى الحصون فاظهر الزهد، وكان يعلم علم السيمياء، ويرى الناس بدهائه خرافات كاذبة منها انه كان يريهم من يقتل حياً في نعيم وجنة، فتبعه قوم غفير من الجبليين فاستقوى بهم. ومن تعاليمه انه اباح الزنا والمحرمات، وحكم على قومه مدة وله قصة طويلة. وحكى الشيخ شمس الدين رواية عن صلاح الدين ان بعض المماليك رمى صاحبه بحذاء، فوصل الى صلاح الدين، فتغافل عنها ولم يترك احداً يعلم أنه شعر بها. وقيل انه طلب مرة الماء فلم يحضر له. فطلبه ايضاً خمس مرات فلم يحضر فقال يا اصحابنا قد كدنا نموت من العطش فاكرموا علينا بشربة ماء. واما عن مكارمه فحدث عنها ولا حرج، فكان فائق الوصف لانه مع كل تقدمه وارتقائه وغلباته كان يحدث اوقاتاً كثيرة انه لا يملك ديناراً واحداً. ذكر في تواريخ الروم أنه في هذه السنة قبض الكسيوس على اخيه الملك ايصاكوس، وسمل عينيه، وجلس ملكاً مكانه. وفي هذه السنة توفي الامير يونس المعني وقام بعده على ولاية الشوف ولده الامير يوسف.

وفي السنة ٥٩٠ هـ = ١١٩٣ م قتل سيف الدين كلتمر صاحب خلاط وكان قد اسرف باظهار الشماتة بموت السلطان صلاح الدين فنال عقابه، وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران، وملك بعده ظهير الدين خلاط وهو ايضاً من مماليك شاهرمن.

وفي هذه السنة توفي اتابك عز الدين مسعود ابن مودود ابن زنكي ابن افسنقر صاحب الموصل وملك بعده ولده نور الدين ارسلان شاه، وكان عز الدين خيراً محسناً حليماً محباً عفيفاً. وفي هذه السنة توفي ابو محمد القاسم

ابن فيره ابن خلف الرعينة الشاطئي الضرير المقري، صاحب القصيدة التي سماها حرز الامانة، وهي عمدة قراء هذا الزمان لانها مشتملة على رموز عجيبة، واشارات خفية لطيفة. وقد روي عنه أنه كان يقول لا يقرأ احد قصيدتي هذه الا وينفعه الله عز وجل، لاني نظمتها لله تعالى مخلصاً في ذلك. وكان عالماً بكتاب الله تعالى قراءةً وتفسيراً، وكان واحد زمانه في علم النحو واللغة. وكان لا يجلس للقراءة الا على طهارة بهيئة حسنة وخشوع، ودخل مصراً وكان نزيل القاضي الفاضل، وعينه بمدرسته في القاهرة مدرساً للقراءة والنحو واللغة، ودفن في تربة القاضي الفاضل بالمقبرة الصغرى، وهو من نسل احدى قبائل اليمن، والشاطئي نسبة الى شاطية وهي مدينة كبيرة بشرق الاندلس. وفي هذه السنة كانت وفاة الامير منقذ الشهابي في حاصبيا وعمره ثماني وستون سنة، وكان اميراً جليلاً حسن السمعة .محبوب الطلعة شجاعاً عادلاً ذا تدبير حسن وسيادة محمودة. وقام بعده بالامارة والولاية ولده الاكبر الامير نجم. وبدأ يهتم بحسن السياسة بعين العدل والحماية. وعمر في حاصبيا منازل لقصاده واطاعه اخوته واعمامه ورعاياه. فراق له الزمان واجرى العدل والاحسان. وكان لا يشغله شاغل عن العلياء.

وفي السنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٥ م اخذ الملك العادل يافا بالسيف من الافرنج وهدمها، فنزلت الافرنج الى بيروت وحاصروها، وكان النائب عليها عز الدين اسامة الكناني. فهرب الى صيدا، وترك بيروت فملكتها الافرنج بغير قتال. وفي هذه السنة سار العزيز عثمان ابن صلاح الدين ومعه عمه العادل من مصر فنازل دمشق وحاصر اخاه الملك الافضل فيها، وكان قد ولاه ابوه قبل موته على دمشق، فخامر عسكر دمشق الخوف ففتحوها له. ودخل العزيز وعمه معه واستناب على دمشق عمه العادل، وتوجه العزيز الى مصر، وعاوض الافضل عن دمشق بصرخد، واخرج العادل من دمشق اولاد اخيه صلاح الدين. وفي هذه السنة توفي سيف الاسلام طغتكين اخو السلطان صلاح الدين، وكان صاحب اليمن، وملك بعده اسماعيل، وكان ظالماً غشوماً رام الخلافة، وتلقب بالهادي، وقتل باليمن. وفي هذه السنة بنى الامير نجم في قمة جبل الشيخ منزلاً جميلاً للنزهة والانشراح، وكان الامير نجم يستوطن فيه في

ايام الصيف، ويصحب معه من ترتاح اليه نفسه، وله فيه الاشعار الرائقة ومنها قوله :

ومنزلٍ فوق قن الشيخ بت به معانق الانس واللذات والطربِ
اهدى لنا من صبا نجدٍ معطرةً ومنظراً من ديار العجم والعربِ

وله ايضاً

لله في يومٍ شريفٍ قد مضى ما بين معشوق واحسن مونسٍ
برزت علينا من خلال شعابه مهتوكة ظهر الجواد الكنَّس
ولقد جلسنا من علو رحابه في مجلس الاقمار احسن مجلس
والزهر بين معممٍ ومتوجٍ ومجرَّدٍ وموشحٍ في سندس
والطير بين مغردٍ ومفردٍ ومهللٍ ومكبرٍ ومقدس

وفي السنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٧ م هاجت الافرنج وحاصروا تبنين، وانتشروا في السواحل، ثم وقعت الهدنة بين الافرنج والمسلمين على مدة خمس سنين ونصف (يروى ثلاث سنين فقط). وفيها توفي الملك العزيز عثمان وله ست سنين الا شهراً في الديار المصرية، واقاموا بعده ولده محمد وتلقب بالملك المنصور وهو الثالث من ملوك بني ايوب بالديار المصرية. ولكون الملك المنصور كان صغيراً فسار معه الفاضل نور الدين الى مصر، واظهر انه يريد ان يربي ابن اخيه، فاستولى على المملكة، وصار الرابع من ملوك بني ايوب بالديار المصرية، وتلقب بالملك الافضل، ولم يبق لابن اخيه معه الا مجرد الاسم.

ثم ان الافضل ملك مصر اخذ الجيوش وقصد المسير لاخذ دمشق، فوصل الخبر الى صاحبها وهو محاصر ماردين فترك ولده الكامل على حصارها وسار الى دمشق فدخلها قبل وصول العساكر المصرية بيومين في ١١ شعبان فجرى بينهم قتال شديد. وبالغ الافضل في الاذى، واحرق الحواضر وفعل كل فعل قبيح، ثم دخل دمشق حتى وصل اصحابه الى باب البريد. فحمل عليهم اصحاب الملك العادل، واخرجوهم. فضعف الملك الافضل، ولكنه ثبت هو واخوه الضاهر غازي بعساكرهم يحاصرون دمشق. وحفروا حولها خندقاً من

ارض الايوان الى بردى، وعظم الغلاء في دمشق لسبب الحصار، ونفذت خزائن العادل على جنده، ودخل فصل الشتاء وهي في اشد الحصار. ثم وقع الاختلاف بين الاخوين الافضل صاحب مصر والضاهر صاحب حلب فتأخروا عن دمشق، واقاموا بمرج الصغراء، وفيها كتب ريكاردوس (قلب الاسد) الى يعقوب ابن يوسف ابن عبد المؤمن يقول فيه انك امير المسلمين، ولا يخفى عليك ما هم عليه الرؤساء من التكاسل والاهمال، وميلهم الشديد الى الراحة، فأنا عازم ان اسبيهم والحق بهم الخسف واخلي الديار واسبي الذراري وامثل بالكهول واقتل الشبان، فلا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، وانت تعتقد ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، والان خلافاً لزعمكم نقاتل عشرة منكم بواحدٍ منا. ولقد بلغنا انكم اخذتم في الاحتفال، وتسلي نفسك بالمحال، وتقدم وتؤخر في الرجال ولا ادري ان كان الجبن ابطأ بك ام التكذيب، وانا اقول لك ليس من الصواب ان تتوجه بحملة من عندك في الشواطئ بالمراكب ولكن انا اجوز اليك بحملتي وأبارزك في اعز الاماكن عندك، فان كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت لك وهدية جزيلة مثلت بين يديك، وان كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت ملك الملتين، والتقدم على الدولتين. فلما قرأ يعقوب تلك الرسالة جمع العساكر وعبر الحجاز الى الانكليز فاقتتلوا قتالاً شديداً وكانت الدائرة اولاً على المسلمين، ثم عادت على الانكليز، وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة، ثم ان ريكاردوس عاد الى بلاده، وركب بغلاً، وآلى على نفسه ان لا يركب فرساً حتى تنصره العناية. وجمع الجموع العظيمة وجرت له مع المسلمين وقائع كثيرة الى ان ملكت الاسلام اكثر المدن الشامية التي كانت بيد الانكليز.

وفي السنة ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ م رحل الملك الضاهر الى حلب والملك الافضل الى مصر فاسرع الملك العادل، ولحقه عند الجبل الغربي، فهرب منه الافضل، لان في وصوله تفرقت عساكره في البلاد طلباً لمرعى الخيل، فدخل الملك العادل الى القاهرة، وملكها وعوض عنها لعمه الافضل. وكان دخول الملك العادل الى القاهرة في ١٨ خلت من ربيع الثاني، وصار الملك الخامس من ملوك بني ايوب بالديار المصرية. وخطب له في بلاد مصر والشام،

واستناب ابنه الملك المعظم عيسى على دمشق، وابنه الملك حر الاشرف موسى على الرها وحران، وفي مصر ابنه الملك الكامل محمداً، وكاتبه ابن اخيه الملك الضاهر صاحب حلب وصالحه، وخطب له بحلب وبلادها، وضربت السكة باسمه. واعطى الملك العادل المشرق لابنه الملك الفائز ابراهيم، ولابنه الملك الاوحد نجم الدين ميا فارقين. وفي ايام العادل يقول ابن الحريري ان الغلاء اشتد بمصر والشام، ونقص النيل، واقبل القحط والوباء المؤلم، وخربت ديار مصر، وجلا عنها اهلها. واشتد البلاء واكل الناس لحوم بعضم بعضاً، وهلك عدد غفير من الاغنياء والفقراء. ثم بعده وقع فناء عظيم، ووباءٌ وبيل حتى قيل ان الملك العادل في مدة يسيرة في هذه السنة كفن من ماله نحو مائتين وعشرين الف ميت، واكلت الكلاب الاموات لعدم وجود من يدفنهم، واكل من الاطفال خلق كثير، يشوي الصغير والدوه ويأكلونه. وكثر ذلك في الناس حتى لم يعودوا يستنكرونه، ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضاً ويستدعون الاطباء الى المريض فيقووا عليه ويأكلونه. وحدثت اشياءٌ كثيرة يبعد عن العقل تصديق اخبارها. وعظم الغلاء بدمشق، ونفذت خزائن الملك العادل، واكثر قرى مصر لم يبق بها آدمي من كثرة الموت. وفي كل يوم كان يخرج من القاهرة نحو الف وخمسماية جنازة. ونظر في السجل عدد الاموات في هذا الفناء فبلغوا مائة الف واحد عشر الفاً ومائة، واما الذين ماتوا بظاهر القاهرة فلا عدد لهم. وكان في بلدة من بلدان مصر اربعماية نول للحياكة فلم يبق منها واحد. ثم حدثت بالشام زلزلة عظيمة حتى ظن الناس ان القيامة قد قامت ودامت مقدار ساعة، وهلك كل اهل صفد ولم يسلم منها الا رجل واحد. وفي نابلس لم يبق حائط الا سقط ومات تحت الردم خلقٌ كثير. وتوفي في الفناء المذكور ابو علي عبد الرحيم القاضي الفاضل العسقلاني مولداً وزير الملك صلاح الدين الذي ترقى في صناعة الانشاء، وفاق المتقدمين، وقيل ان مسودات رسائله لو جمعت لما نقصت عن مائة مجلد. وله في النظم والذكاء والفراسة اشياءٌ حسنة حتى أنه لُقّب برب القلم والبيان والفكر واللسان. وفيها حصار الملك الضاهر صاحب حلب منبج، واخذها مع كل ما يجاورها. ثم سار الى المعرة واخذها واقطع بلادها واستولى على كفر طاب،

وحاصر حماة مدة فلم يحصل على غرضه، ثم رحل الى دمشق قاصداً اخذها، وانضم اليه اخوه الافضل وصاحب نابلس، وبعض امرآء من الصلاحية فحاصرها حتى فرغت السنة. ثم وقع الخلاف بين الاخوين الافضل والضاهر فرحلا عنها وذلك في الغلاء العظيم المقدم ذكره. يذكر المعلم بارونيس في تاريخه انه في هذه السنة ابتدأت دولة التتر مستقلة بذاتها، وخلعوا عنهم طاعة ملك الهند واقاموا لهم ملكا يقال له شابنجيوس، وقد امرهم بالسجود للاله الواحد وتركوا عبادة الاوثان. وقيل أنهم كانوا اولاً من اصل صيني متبددين في العالم يعيشون مثل البهائم في البراري المقفرة، ولقبوا بالاسم تتر التي هي مشتقة من اسم نهر طرطوس اللائذ الى تلك الجهات، واما تخوم بلادهم فهي بين جبل كوكادس الى حدود البحر الهندي. ثم تقوى هذا الملك في سائر مملكته، وصنع حروباً كثيرة، واستملك الاماكن التي في حدوده من بلاد النصارى كما سيأتي ذكره.

وفي السنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م سار الملك العادل الى دمشق، ومنها الى حماة قاصداً الضاهر صاحب حلب. فلما علم بذلك الضاهر كتب له جملة رسائل حتى وقع الصلح بينهما، وانضمت الى العادل الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها. وفيها فاض النيل وتناقص الغلاءُ وخف الفناءُ والموت بمصر، ولقلة الناس لما مات منهم تنازلت الاسعار.

وفي السنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م اجتمع الافرنج وقصدوا القدس، فخرج الملك العادل من دمشق واجتمعت اليه العساكر الى جبل الطور (جبل الزيتون) مقابل الافرنج. وفي هذه السنة قصدت مراكب الافرنج من البندقية وانطاكية مدينة القسطنطينية وهي بيد ملك الروم، فوضعوا عليها الحصار. وقيل أنه كان داخل المدينة نحو ثلاثين الف منهم من السكان، فلما استعدت العساكر التي في الخارج اضرم الافرنج الذين في المدينة فيها النار، فاحرقت نحو ربع المدينة فاشتغلت عساكر الروم بالنار فدخلت عساكر الافرنج وضربوها بالسيف مدة ثلاثة ايام ولم يعفّوا عن النهب ولا السبي. وانهزم الروم وتولى عليها الافرنج وكانوا ثلاثة ملوك القومس صاحب فيلندرة، والروقس صاحب البندقية والمريكوس صاحب افراثا، فالقوا القرعة بينهم على من يتولى

على المدينة فوقعت على القومس صاحب فيلندرة، وتسمى بوردين الملك الاول، وصاحب البندقية اخذ اقريطش (كريت) وقبرص ورودس مع بقية الجزائر. واما المركيز صاحب دي مونتغرات فاخذ نيقية واللاذقية وجميع ما هو شرقي الخليج، ثم راسلهم الملك العادل وصالحهم. ثم أنه بعد مدة نازل عكا وحاصرها فصالحه صاحبها، وبذل له مالاً فاطلق الاسرى. ثم اغار على اعمال طرابلس. ثم نازل بجيوشه سنجار وضربها بالمجانيق فاخذها. وارسل المعظم عيسى ومعه عساكر دمشق الى قتال الافرنج، ونزل على الطور وبنى هناك قلعة منيعة صرف عليها اموالاً لا تحصى، وكملت في سنة ونصف. وفي هذه السنة خرجت عمارة الافرنج، واستولوا على مدينة فوة من الديار المصرية، وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت بلاد الشام وبلاد الروم والجزيرة وصقلية وقبرس والعراق وغيرها، وخربت اسوار مدينة صور.

وفي السنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م كانت الهدنة بين الملك العادل والافرنج فسلمهم يافا، ونزل عن نصف اللد والرملة وعاد الى مصر. واما الافرنج فغاروا على حماة ونهبوا واسروا وقتلوا كثيراً وفيها طلب ريشا الصغير احد ملوك البندقية نجدة من الفرنساويين والبنادقة لينتقموا من سلطانها ريشا المدعو الظالم المقيم بها يومئذ فاجابوه الى طلبته، ووجهوا عساكر عظيمة. وبعد حصار ثمانية ايام فتحوا المدينة واقاموا ملكاً عليها ريشا الصغير المشار اليه الذي كان مسجوناً بامر ريشا الظالم.

وفي السنة ٦٠٢ هـ = ١٢٠٥ م جمع الملك العادل العساكر وحاصر عكا، فصالحه صاحبها وبذل له مالاً جزيلاً فاطلق الاسارى الذين عنده. ثم نازل برج الاكراد، ثم سار الى طرابلس، ونصب عليها المنجنيقات، واجتاز العسكر في البلاد، ورحلت سكانها وارسل الجانب من عسكره، فحاصروا سنجار فملكها ثم سار الى بحيرة قدس التي بجوار حمص، وارسل الى الملك المعتضد عيسى ليسير معه العساكر الى البلاد التي في يد الافرنج، ونزل على الطور وبنى هناك قلعة.

ظهور دولة المغول أو التتر

وفي السنة ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ م كان ابتداء دولة المغول اي ملوك التتر. وذلك ان في هذا الزمان كان المتولي على قبائل الترك اوتك خان، وهو المسمى يوحنا من القبيلة التي يقال لها كريت. وكان رجلاً مؤيداً من غير هذه القبيلة يقال له تموجين من خدام اوتك خان، وكان رجلاً شجاعاً، فحسده الاقران وسعوا به الى اوتك خان. ومازالوا يشون به حتى غيروا نية الملك عليه، وهم بالقبض عليه. فانضم اليه بعض من خدام الملك واعلموه بالقضية، وعينوا له الليلة التي يريد الملك ان يقبض عليه، فامر تموجين اهله باخلاء البيوت، وتركوها على حالها منصوبة، وكمنوا هم بالقرب من البيوت. وفي وقت السحر هجم الملك اوتك واصحابه على بيوت تموجين فلقوها خالية، فخرج عليهم تموجين واصحابه من الكمين واوقعوا بهم. وبعد قتال شديد انهزم جماعة الملك، وادرك احد اصحاب تموجين الملك اوتك وقتله، وهجموا على داره ونهبوها وسبوا عياله وتولى تموجين مكانه. وقدم على تموجين رجل من المغول وهو امير معتبر كان يسوح في الصحارى والجبال في الشتاء عرياناً حافياً وبقي اياماً، ثم يرجع ويقول كلمني الله وقال لي ان الارض بأسرها قد أعطيتها الى تموجين وولده جنكيز خان. وكان يراجع قوله. ولما علا شأن جنكيز خان ارسل الرسل الى جميع بلاد الترك فمن اطاعه وتبعه سعد، ومن خالفه خذل. واستعلم عن ذينك الغلامين اللذين خدماه وجعلهما ترخانية، والترخان هو الحر الذي لا يلحقه شيء من الاكلاف السلطانية، ويكون له كلما يغتنمه في الغزوات عموماً، ولا يؤخذ منه نصيب

الملك، وزاد على جميع هذه بان سمح لهما بان يدخلا على الملك من غير اذن. وكان لجنكيز خان سبعة اولاد وكانت الخاتون زوجته اصيلة الجدين، فولى جنكيز خان اولاده الامور العظام في مملكته. الاول ولده قومشي ولي امر الصيد والطرد احب الامور اليه، والثاني جنقاي ولي امور الاحكام السياسية اي الشريعة والقضاء. والثالث اوكتاي ولي تدبير الممالك لغزارة عقله واصابة رأيه، والرابع تولى امر الجيوش وتجهيز الجنود في مصالح العساكر. وكان لجنكيز خان اخ يقال له اوتكين فعين له ولكل واحد من بقية الاولاد بلاداً.

وفي السنة ٦٠٤ هـ = ١٢٠٧ م اهتم الملك العادل ببناء قلعة دمشق وكملت على يد الملك المعظم عيسى، وعملت العوام في خندقها مدة وهي من القلاع العظيمة، واسمها الاسد الرابض. وفيها كانت الهدنة بين الافرنج والملك العادل فارسل الخليفة ناصر الدين العباسي الخلع الى الملك العادل، وخطب له ملقباً اياه بشاهنشاه (ملك الملوك). وفيها امر الملك الضاهر باجراء القناة من حيلان الى حلب وغرّم على ذلك اموالاً كثيرة.

وفي السنة ٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م تملك الملك نجم الدين الايوبي ابن الملك العادل مدينة خلاط، ثم سار عنها الى ملازكراد ليرتب امورها، وحينئذ وثب اهلها على عسكره واخرجوه من المدينة وعصوه ونادوا بشعار شاه ارمن، فعاد اليهم الاوحد وقتل منهم خلقاً كثيراً، فذل اهل خلاط وتفرقوا. وكان قبلا الحكم بيدهم فانهم كانوا يملكون ويعزلون من يشاؤن ويقتلون من لا يناسبهم. وفي هذه السنة ذكر في تواريخ الروم بعد ان كبر الملك ايصاكوس اهتم بأن يأخذ بثأر ابيه من عمه الكسيوس، وترقب الفرص المناسبة حتى اغتال عمه واعماه وتملك مكانه، الا ان الشعب لم يرضَ بذلك، وعزموا على ان يردوا الملك الى اصحابه الاول، واحضروا باسيل واخاه قسطنطين واقاموهما ملكين عليهم. وكان باسيل ابن عشرين سنة وقسطنطين ابن سبع عشرة سنة، وكان التدبير بيد باسيل. وبعد تملكهما احضرا امهما من المنفى وجمعا كل القواد ورؤساء العساكر واوقفاهم على مراتبهم، وكان من جملة القواد فرواس السكلارس، فاكرمه الملك باسيل وارسله الى ما بين النهرين لاجل منع المهاجرين.

وفي السنة ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م توفي نور الدين ارسلان شاه ابن مسعود ابن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل، وكان ذا سياسة نحو الرعية وشديداً على اصحابه، وكانت مدة تملكه ثمان عشرة سنة. وقبل موته اعطى الملك ولده الملك القاهر عز الدين مسعود، وجعل مملوكه لولو ان يقوم بتدبير المملكة، واعطى ابنه الاصغر عماد الدين قلعة العقر الحميدية وقلعة شوشن وسيره الى العقر، وفي آخر هذه السنة قصد جنكيز خان بلاد السلطان محمد، واجتمعت اليه العساكر. ولما وصل الى مدينة اترار وجه ولد الاكبر في خمسين الف من العسكر الى جانب خيجند، وتوجه بنفسه الى بخارا ورتب على محاصرة اترار ودام القتال خمسة اشهر. ولما ضاقت الحيلة بمن في المدينة عن المقاومة، حينئذ شاور قراجا غاير خان في الصلح وتسليم البلد فابى قبول ذلك لعلمه ان المغول لا يبقون عليه، وتوقف الى ان هجم الليل، وخرج اكثر العسكر. وحمل الى ابني جنكيز خان فاستنطقاه واستعلما منه كنه احوال البلد وامرا بقتله وانكسر العسكر وكان خارجاً بعشرين الفاً. ذكر في تواريخ الروم أنه بهذه السنة اجتمعت عساكر الروم والارمن على فرداس الكلاراس الذي كان قائداً لجيش الملك باسيل. ولما نظر فرداس ميل العسكر اليه عزم بأن يتخذ الملك لذاته. ولما بلغ الملك باسيل واخاه قسطنطين ان فرداس عصى عليهما ارسلا له عساكر كثيرة فظفر بهم فرداس وقتل من القواد ومن العساكر قتلى كثيرة. ثم سار الى نيقية وملكها ثم قصد القسطنطينية. فارسل الملكان اماناً الى فوقا القائد الذي كان منفياً، فلما علم فرداس به رجع هارباً، وتبعه فوقا بعساكره الى ان التحق به، وانتشب الحرب بينهما وفر فرداس هارباً.

وفي السنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م ملك السلطان محمد مدينة غزة وكان استولى قبل ذلك على عامة خراسان. وفي هذه السنة يخبر ابن الحريري ان الافرنج اقبلت في البحار، وخرجوا من ميناء يافا، وقصدوا استخلاص القدس ووصلوا الى عين جالوت. فخاف الملك العادل وتحصن اهل دمشق وخافوا كثيراً من ذلك، فارسل الملك العادل يحث عسكر الاسلام ويستنجدهم، وخرج الى مرج الصغر، وضج الخلق بالدعاء الى الله تعالى. ثم قدمت الافرنج

الى نواحي عكا، فامر الملك العادل بهدم السور. وسار عسكر من الافرنج نحو خمسماية نفس ليملكوا جزّين واعمالها، فنزلوا في مرج العواميد في الوادي الذي تحت جزّين، فاخلاها اهلها. واجتمع المسلمون وباغتوا الافرنج ففرقوهم ولم ينج منهم الا القليل، فلما بلغ ذلك صاحب عكا سار بعساكره الى جزّين، وما حولها فسار اليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق، فترك الافرنج جزّين وساروا في البحر الى مصر وكانت خالية من العساكر فدخلوا دمياط. ولما عرف الملك العادل بذلك جهز ولده بعساكر كثيرة وارسله لمطاردتهم منها، ولما وصل الى مقابل دمياط حاصرها ودام الحصار عليها اربعة اشهر فلم يقدروا عليها. ثم توجه الافرنج وملكوا برج السنبلة وهو برج عظيم شاهق في وسط النيل، والجيزه من غربيه، ومصر من شرقيه. وعلى جانب البرج سلسلتان عظيمتان واحدة لسور مصر والاخرى لسور الجيزة، فتمنع المراكب من العبور في النيل لجهة مصر. وفي هذه السنة توفي الملك الضاهر غازي ابن الملك صلاح الدين يوسف الايوبي وهو صاحب مدينة حلب، وخلف اولاداً ومن الجملة الملك العزيز محمد من ابنة عمه الملك العادل، وكان عمر ولده هذا اربع سنين. واوصى مملوكه ذياب الدين فاقام بتربيته احسن قيام، ولصغر سنه طمع به صاحب بلاد الروم، فاستنجد بالملك الافضل صلاح الدين صاحب شميشاط، ففتح رعبات، وتل باشر، ومنبج وتسلمها. ثم ثار على الافضل عساكر العرب فرجع الى محله.

وفي السنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م توفي الملك العادل عز الدين مسعود ابن ارسلان شاه صاحب الموصل واوصى بالملك لولده نور الدين وعمره نحو عشر سنين وجعل الوكيل عليه والمدبّر لدولته بدر الدين لؤلوءاً. وذكر في تواريخ الروم انه بهذه السنة بعد ان هرب فرداس العاصي من امام فوقا قائد عسكر الملك باسيل التجأ الى مدينة تريموبلي فارسل الملك باسيل الى خرسويه امير البابليين ملتمساً منه نجدة فلم يجبه الى ذلك. ولما رأى فرداس ان خرسويه لم يجب الملك الى طلبه مضى والتجأ اليه، فارسل الملك باسيل وفوداً الى خرسويه يذكره في المحبة، وان ليس من الواجب قبوله فرداس العاصي، فعند ذلك قبض خرسويه على فرداس ومن معه ووضعهم بالسجن مدة

طويلة. ثم حدث حرب بين خرسويه والفرس فاضطر لاطلاق فرداس العاصي ومن معه وارسلهم صحبة عسكره فظفروا بالفرس، وكانت النصرة على يد فرداس فاكرمه خرسويه، واقام عنده بغاية الاكرام الى ان مات خرسويه. فقام ولده مكانه فارسل فرداس في عساكر كثيرة الى بلاد الترك، وسار ابن فرداس الى القسطنطينية واظهر للملك باسيل انه هارب من ابيه، فاكرمه غاية الاكرام. ثم ان فوقا قائد جيش الملك باسيل ارسل الى فرداس يطلب منه الاتفاق ضد الملك باسيل واخيه، وتكون انطاكية وفينيقية وسوريا وفلسطين لفرداس، ويكون فوقا ملكاً على القسطنطينية فعلم الملك باسيل بذلك الاتفاق، وارسل اخاه قسطنطين بعساكره لمحاربة فوقا القائد. ولما بلغ فرداس خروج عساكر الروم لمحاربة فوقا حضر الى القسطنطينية وسجد للملك، فاقتبله وامنه واقام عنده بغاية الاكرام. ولكن لم يلبث فرداس الا قليلا حتى مات ورجع قسطنطين الى القسطنطينية.

وفي السنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م اجتمع في عكا يوحنا ملك القدوس، وجس ملك قبرس واندراوس ملك هنكاريا مع جملة من امراء فرنسا وقصدوا القدس، ونهبوا عدة اماكن في نواحي الاردن وتملكوا جملة حصون في تخوم قيسارية فيلبس (التي هي بانياس)، وحصنوها بالات الحرب، وبعدما استحموا في نواحي الأردن غيروا آراءهم وعادوا الى عكا. فان قومس طرابلس كان متفقاً سراً مع المسلمين يومئذٍ، واندراوس ملك هنكاريا تهامل في نجدة النصارى، فركب البحر هو وجنوده ورجع الى بلده. وبعد قليل توفي ايضاً ملك قبرس. وفيها سار الكامل من مصر الى الشام وتولى على نابلس والقدس وغيرهما من بلدان ابن اخيه الناصر داود. وفيها كانت وفاة الملك العادل سيف الدين ابو بكر محمد ابن ايوب ابن شاذي وكان ملكاً حليماً صفوحاً مجاهداً ناهياً عن المنكر ابطل الظلم والقمار والمكوس والخمور بدمشق وبجميع البلاد. وكان يتحصل من دمشق فقط مابة الف دينار، فابطل الجميع. وقيل ان وفاته كانت في بعقلين، (وهي بلدة مركز قضاء الشوف الصيفي بالقرب من صيدا ودير القمر). وحمل الى دمشق في احتفال عظيم، ودفن في تربته المنسوبة اليه. وكانت مدة تملكه بالديار المصرية تسع عشرة سنة.

واقاموا بعده ابنه الملك الكامل محمد، وهو السادس من ملوك بني ايوب في الديار المصرية. وولّى اخاه الملك المعظم عيسى على دمشق، والملك الاشرف اخاه على حران والرها وخلاط. والملك المظفر غازي على ميافارقين وجامي وجبل حورا وما يليها، والملك الحافظ ارسلان على قلعه جعبر والملك العزيز على بانياس، والملك الفائز يعقوب على قوص واعمالها، والملك الافضل على الفيوم واعمالها، والملك الامجد عباس، والملك الافضل والملك القاهر جميع هؤلاء اولاد الملك العادل. وكان الملك الكامل بقتال عظيم مستديم مع الافرنج بدمياط، وارسل يستنجد باخوته، ولما ملك الافرنج بردمياط رحل الملك الكامل ونزل قريباً منهم، وجرت بينهم وقائع كثيرة عظيمة. ثم ان الكامل ظفر بهم وقتل واسر جماعة كثيرة، وارسل الاسرى مكبلين بالحديد الى القاهرة. ثم اجتمعت عساكر الافرنج الى دمياط واحدقوا بها براً وبحراً ومنعوا الميرة عنها، فهلك اكثر اهلها بالجوع والخوف والوباء، ولم يبق من رجالها المقاتلين الا القليل، فملكها الافرنج بالسيف واسروا جميع اهلها وكل من كان بها في شهر شعبان، وارسلوا الاسرى الى عكا. وكانت مدة الحصار ست عشرة شهراً واثنين وعشرين يوماً، وعملوا جامعها كنيسة، وبعثوا المصاحف ورؤوس القتلى الى بلاد الافرنج. واما الملك الكامل فرحل الى اشموم، وبنى الناس الدور والفنادق والحمامات والاسواق عند مفرق النيل، وتسمت هذه المنزلة المنصورة فحصنها وسكنها بجيشه وكان ذلك سنة ست عشرة وستماية. وفي هذه السنة اخرب المعظم صاحب دمشق قلعة الطور وقلعة تبنين وقلعة بانياس خوفاً من استيلاء الافرنج عليها، واذن بالخمر والميسر بدمشق واعتذر بقلة المال. وفيها كان ظهور التتر فقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم وسبوا حريمهم وتملكوا اكثر بلدان المسلمين من العراق الى قربستان وايضاً بلاد غزة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس. واتفق الملك المعظم صاحب حلب مع جمال الدين خوارزم شاه ملك اذربيجان وآران وبعض بلاد الكرك والعراق العجمي وغيرها على اخويهما الملك الكامل صاحب مصر والملك الاشرف صاحب الرها. فخاف من ذلك الملك الكامل وكاتب الامبراطور سلطان

الافرنج ليقدم الى عكا ويشغل اخاه المعظم عما هو فيه. ووعد الامبراطور ان يعطيه القدس. وعند وصول الامبراطور الى عكا توفي المعظم في دمشق وله تسع سنين وشهر متولياً عليها. وتنصب بعده ولده داود وتسمى الملك الناصر صلاح الدين، واقام بتربيته الامير عز الدين ايبك الذي كان على صرخد واعمالها. ذكر في تواريخ الروم انه في هذه السنة توفي الملك باسيل ملك الروم في القسطنطينية، وبقي في الملك اخوه قسطنطين ولم يلبث الا قليلاً حتى اصيب بمرض ثقيل، فاستدعى وزيره رومانوس وقال له اذا انفصلت عن امرأتك ازوجك ابنتي، وتكون ولي الملك من بعدي. فلم يقدر ان يجاوبه، ولما علمت امرأته امرته ان يقبل ذلك ويتزوج بابنة الملك، وذهبت الى الرهبنة. ثم مات الملك قسطنطين، وتملك مكانه صهره رومانوس مع زوجته ابنة الملك قسطنطين الذي نال الملك بسببها وعدل في حكمه. ولما تملك امر اولاً ان تعتق جميع المأسورين في الحروب، وجميع الذين عليهم الديون للسلطنة عتقهم، وفرق مالاً كثيراً على الفقراء، واكرم شعب الروم بالجوائز السنية. ثم ان الملكة احبت مخائيل الكاتالكتي حباً عظيماً، وقد تآمر على قتل الملك، واعدت سماً وسقته للملك فمرض. وحين نظر ذاته انه قارب الموت جمع القواد ورؤساء العساكر وفرَّق العلوفات، ثم اشتدّ عليه المرض، ومات وتملك بعده ميخائيل مع امرأته. ثم انه حدث للملك ميخائيل صرع في رأسه وبه انتهت حياته.

وفي السنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م قدمت الرجال من بلاد المجر وبلاد النمسا لمساعدة النصارى الذين في بلاد الشام فكبر الوهم على الملك الكامل، وكتب الى العزيز عثمان وايبك الاستار اللذين كانا في القدس بان يهدما سور بيت المقدس لئلا تأخذه الافرنج ويتقدموا الى الشام والى بقية بلدان الاسلام. وفي اول محرم من السنة المذكورة كان ابتداء تخريب سور القدس، ووقع في البلد صيحة عظيمة، وخرجت النساء والشيوخ والصبيان الى الصخرة التي عند الجامع الاقصى، وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم، وتركوا اموالهم واهلهم وخرجوا هاربين الى مصر. والبعض الى الكرك والبعض الى دمشق ومات خلقٌ كثير من الجوع والعطش والحفا، ومات اغلبهم ونهبت اموالهم في القدس.

وبلغ رطل الزيت العشرة دراهم، ورطل النحاس نصف درهم. واما الافرنج فاخذوا صيداء وعمروا سورها، وتوجهوا الى دمياط، ووصلوا اليها في شهر ايار (مايو) وكانت المدينة محصنة بالآلات، وكان عددهم يبلغ سبعين الف مقاتل. وصار بين الفريقين وقعة عظيمة، وهلك خلق كثير من الافرنج من الوباء الذي كان موجوداً لانه كان شديداً، وكانوا يئسوا من اخذ المدينة لكثرة فيضان النيل في الخريف. وفي هذه السنة قلَّد الخليفة نور الدين الولاية وقلَّد بدر الدين النظر في امور دولته وارسل الحلل السنية لهما ايضاً. وكان مظفر الدين زنكي تملك قلعة العمادية وباقي قلاع الهكارية والزوران، فراسله بدر الدين يذكره بالمواثيق ويطالبه بالوفاء. ثم تنازل عن هذا ورضي منه بالكسوة لا لهم ولا عليهم فلم يقبل، واظهر معاضدة زنكي. فارسل بدر الدين الى الملك الاشرف يوسف أخي الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط، واستماله اليه وصار في طاعته، وطلب منه المعاضدة فاجابه بالقبول. وبذل له المساعدة وارسل الى مظفر الدين يقول له ان يرجع الى الحق ولا يقصده بنفسه بل يحصل منه على فائدة. وحصل الرسول من الخليفة الناصر ومن الملك الاشرف على الصلح، فقبلوا ذلك واصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسول. ذكر في تواريخ الروم أنه بعد وفاة الملك ميخائيل ارادت الملكة ان تقيم ابن خاله المدعو ميخائيل ايضاً ملكاً، وكان يقال له ميخائيل القلفاط (اي النوتي) لانه في زمانه كان نوتياً، وقد عاهدته ان يكون طائعاً لها فجلس ملكاً. وبعد تملكه اكرم حاشيته ورؤساء العساكر، الا ان الشعب جميعه تحزَّب ضده ولم يقبلوه ان يتملك عليهم. ولما نظر هياج الشعب خاف جدّاً ونظر ان الملكة متراخية مع الشعب، فقام بالحفظ عليها فازداد هياج الشعب وصرخوا بلسان واحد اننا لا نؤثر ان يتملك علينا نوتيٌّ، بل نريد ملكتنا القديمة. واشتد غضبهم وهجم جميع الشعب على القصر فهرب الملك الى دير الاسطوان وصار راهباً، واختار الشعب الكسيوس الدوكا واجلسوه ملكاً.

وفي السنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م فتح الملك المعظم صاحب دمشق قيسارية وهدمها وسار الى عتليت ونزلها. وفيها توفي الملك المنصور وكان محباً للعلماء، وكان في خدمته نحو مائتي شخص من النحاة والفقهاء. وفي

هذه السنة نزل جنكيزخان في عساكره على مدينة بخارا، واحاطت بها العساكر من جميع جوانبها، وكان بها من عسكر السلطان محمد عشرون الفاً وكان مقدمهم كوكنجان. فلما تحققوا عجزهم عن معاونة المعاونين هربوا من المدينة في الليل، فأدركهم المحافظون من عسكر المغول، على نهر جيجون فأوقعوا فيهم، وما سلم منهم الا القليل. وسلمت المدينة بعد خروج عسكر السلطان محمد وطلبوا الامان. وخرجت الايمة والاعيان الى خدمة جنكيزخان فأمرهم باخراج كل من في المدينة. ودخل الى المدينة ووقف على باب مسجد الجامع وصعد الى المنبر، وقال لاكابر بخارا : ان الله مالك الكل ارسلني لاطهر الأرض من بني الملوك الفسقة الفجرة. ثم امر الاغنياء واصحاب الثروة ان يعتزلوا عن الفقراء، فما امتثلوا ذلك، وكانوا عدداً عظيماً فقال لهم ان الاموال التي فوق الارض لا حاجة لنا لاستعمالها منكم، وانما نريد ان تظهروا لنا الدفائن التي تحت الارض، فقبلوا بالسمع والطاعة. ووكلوا مع كل قوم اناساً يستخرجون المال، وكلم الاشخاص المذكورين سراً بان لا يشددوا على المستخرجين ولا يكلفوهم ما لا يستطيعونه ويرفقوا بهم. وكان بالمدينة قوم من عسكر السلطان محمد مختبئين، فلما بلغهم ما امر به جنكيزخان وان قصده استفحاص المدينة خافوا ان يراهم فالقوا النار في المدينة، وكان اهم بنائها من خشب فاحترق اكثر المدينة وبقيت خراباً. فرحل جنكيزخان ونزل على مدينة سمرقند، وكان قد رتب السلطان محمد فيها عسكراً ينوف عن مائة الف. فلما نازلها منع اصحابه عن المقاتلة، وانفذ ثلاثين الفاً في اثر السلطان محمد واحاط بباقي عساكر المدينة. فبرز اليهم الخوارزمية وجماعة كثيرة واشتد القتال مدة ذلك النهار، ووقف الابطال من المغول على ابواب المدينة. فوقع الاختلاف بين اهل المدينة، وخرج القضاة والعلماء الى خدمة جنكيزخان، وطلبوا منه الامان فلم يجبهم الا بالامان على انفسهم فقط وفتحوا المدينة. ودخل المغول وابتدأوا في النهب والسبي وهدموا بعض الابراج والسور، وقتلوا من عسكر السلطان محمد خلقاً ليس له عدد. وبعد ذلك سار جنكيزخان الى نواحي خوارزم وانفذ الرسل اليهم ليدعوهم للدخول بطاعته فلم يجيبوه الى ذلك، فانشب الحرب على المدينة

من جميع جوانبها ورموها بالمجانيق واستمروا مشددين عليها الحصار حتى ملكوا جميع المحلات واخرجوا اهالي المدينة جميعاً الى خارج المدينة، وافرزوا الصناع والمحترفين الى ناحية وكانوا خلقاً كثيراً. واسروا البنين والبنات والنساء اللواتي ينتفع بهنّ وقسموا الباقي من النساء واما الرجال والعجائز فقتلوهم جميعاً. وذكر في تواريخ الروم انه بهذه السنة قدمت البنادقة الى القسطنطينية وحاصروها مدة طويلة. واذ كانت الروم متفرقة القلوب من عظم السجى الحاصل من الملوك اختاروا حكم البنادقة على ملوكهم وسلموا مدينة القسطنطينية. ودخلت عساكر البنادقة الى المدينة فهرب الملك ورؤساء الشعب الى اناضولي فسلبت البنادقة ما كان في كنائس القسطنطينية من الاواني الفضية والستائر المذهبة التي في صنعتها كل عجب مع المنائر الذهبية والتيجان المجوهرة والحلل المفتخرة. وبالاجمال كل ما كان من الاشياء النفيسة الجزيلة القيمة. واختار البنادقة ريشا الصغير ملكاً على القسطنطينية، ودام تملك البنادقة في القسطنطينية تسعاً وخمسين سنة، وكان حكمهم عادلاً وبانصاف، ورضي بذلك جميع الشعب. اما ملوك الروم فأقاموا في اناضولي.

وفي السنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م عندما تملك الافرنج دمياط بلغهم وفاة ملك الارمن، فتملك يوحنا ملك القدس الجيش وسار الى عكا مؤملاً ان يتملك بلاد الارمن واناب مكانه اندلاقوس فسار بالعسكر الى مصر. ولما وصل الى المنصورة التقاه الملك الكامل بعساكره وانتشب القتال بينهما براً وبحراً، واستنجد الملك الكامل باخوته الملك الاشرف عيسى والملك المعظم موسى. ولما كثرت عساكر الاسلام واشتد الحرب بينهما عشرة ايام ضعفت الافرنج وطلبوا الصلح فوقع الاتفاق على هذه الصورة. ان الافرنج يسلمون القدس وطبرية واللاذقية وجبلة وكلما استخلصه الملك صلاح الدين الايوبي ما عدا الكرك. فلم يرض الافرنج بذلك وطلبوا ان يسلموا الكرك وثلاثماية الف دينار. ثم ان الاسلام ثغروا النيل وقطعوا عن الافرنج الطرق فتضايقوا من الجوع، وارسلوا يطلبون الامان فلم يجبهم الملك الكامل. ولما قطعوا الامل احرقوا اثقالهم وعزموا على الهرب ليلاً. فامر الملك الكامل محمد بقطع الجسور (الكباري) واحاط بهم النيل من كل جانب، فطلبوا الامان وان

يسلموهم سلاحهم فاجابهم الملك لذلك. وتم الامر ان يكون عند الملك من الافرنج نائب عكا ونائب البابا، ويكون عند الافرنج الصالح نجم الدين ابن الملك الكامل وتقررت الهدنة بينهم ثمان سنين. ثم اطلقوا الاسارى من الجهتين وتسلم السلطان دمياط، وحضروا الى ملوك الافرنج، ومد لهم السماط ووقف الملك الاشرف والملك المعظم في خدمة اخيهما الملك الكامل وكان يوماً مشهوراً. واتفق ان الملك الكامل اسمه محمد، واسمي اخويه موسى وعيسى. فدخل راجح الشاعر وعمل قصيدة انشدها في الحضرة ومنها هذه الابيات.

ونادى لسان الحال في الأرض رافعاً عقيرتــه في الخافقيـــن وانشدا
اعبـاد عيسى ان عيسى وصحبــه وموسى جميعاً ينصرون محمـدا

ثم رجعت الافرنج الى القدس واعمالها وسار السلطان الكامل الى مصر، ورجعت الملوك الى اوطانها. وفي هذه السنة عبر جنكيزخان نهر جيحون وقصد مدينة بلخ. فخرج اليه الاعيان وقدموا له الطاعة وطلبوا منه الامان فلم يقبل ذلك لسبب ان السلطان جلال الدين ابن السلطان محمد كان في تلك النواحي طالباً الحرب. ثم امر جنكيزخان باخراج اهل بلخ وضربهم بالسيف، وسار نحو الطالقان وقتل اكثر اهلها واخذ منها اسرى لا تعد. ثم سار الى البايمان فعصت اهلها وقاتلوا قتالاً شديداً، واتفق انه اصاب بعض اولاده سهم فقتل، فعظم ذلك على جنكيزخان واضطرمت في قلبه النيران. وجدّ مع جيشه في القتال الى ان فتحوها وقتلوا كل من كان فيها من الناس والنساء والاولاد حتى الدواب والبقر وتركوها خراباً بعد ما هدموها، ولم يعد يسكنها احد الى الان وسميت ماوباليغ اي قرية خراب. ولما سمع جنكيزخان ان السلطان جلال الدين قد استظهر في العراق سار نحوه مواصلاً الليل بالنهار.

وفي السنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م وصل جنكيزخان الى غزنة فبلغه ان السلطان جلال الدين رحل، وعازم على دخول بلاد السند، فجد في المسير وكان مسيره ثلاثة اشهر وثمانية عشر يوماً فلحقه في اطراف السند، وحاربه العسكر. ولما تحقق جلال الدين أنه لم يعد له خلاص ارتد عليهم كالاسد، وشق صفوفهم مرة بعد اخرى، وطال عليه الامر، ورماه المغول بالنشاب

وهجموا عليه. فلما عاين جلال الدين ضيقة الحال نزل وودع اولاده، ثم رمى عنه الجيوش، وركب جواده وهو كالاسد، وانزل جواده في النهر فعام وخلص الى الجانب الايمن، وجنكيزخان وعسكره ينظرون اليه وبهتوا من عمله. وقال جنكيزخان لاولاده حيث انه نجا من هذه الوقعة فوقائع كثيرة تجرى على يديه. واراد جماعة من عسكر جنكيزخان ان يعبروا النهر وراءه فمنعهم من ذلك، وقال لهم لستم من رجاله لانه كان يرمي المغول بالسهام وهو في وسط الماء، ثم قتلوا اولاده ومن كان يتبعه.

وفي السنة ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م توفي الملك الافضل علي ابن صلاح الدين، وكان قد نزل عن ملك مصر والشام ورضي بشميشاط لما تولى عمه العادل، وكان ابيض تركي الوجه خفيف العارضين اشقر اللحية، وكان فطناً ذا همة، وكان لما توفي والده السلطان صلاح الدين وولي بعده ولده الملك الافضل المسمى علياً، فقوي عليه عمه ابو بكر واخوه عثمان واخذا منه دمشق ومصر. واستقر الملك العادل ابو بكر بدمشق، ورجع العزيز عثمان الى مصر وضربت السكة باسمه. وسار الافضل الى صرخد واستوطنها. فكتب الملك الافضل علي الى الخليفة الامام الناصر يشكو من عمه ابي بكر العادل ومن اخيه عثمان شعراً :

مولاي ان ابا بكرٍ وصاحبه عثمان قد اخذا بالظلم حق علي
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الناصر له جواباً

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر ان حقك ظاهرُ
غصبوا علياً حقه اذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فان غداً عليه حسابهم وابشر فناصرك الامام الناصر

وفي هذه السنة كانت وفاة الامير يوسف المعني وقام بعده على ولاية الشوف ولده الامير سيف الدين. وفي هذه السنة كانت وفاة الامير نجم الشهابي في وادي التيم وعمره ست وسبعون سنة، وكان كريم الاخلاق رقيق الطبع ذا فراسة. ثم تولى بعده اكبر اولاده الامير عامر. وفي ايامه زحفت

عساكر الافرنج من حصن الشقيف الى وادي التيم، فجمع الامير عامر عساكره وقصدهم الى مرج الخيام واستنجد بالامير عبد الله ابن الامير سيف الدين المعني امير جبل الشوف، وجرى القتال بين الفريقين فانكسرت عساكر آل شهاب. وفي تلك الساعة وصل الامير عبد الله المعني بعساكر الشوف فنكست اعلام عساكر الافرنج وولوا هاربين، وتبعهم الامير عامر نحو ثلاثة فراسخ. ثم اجتمع الامير عامر بالامير عبد الله وشكره على قدومه وعادا الى حاصبيا وبقي الامير عبد الله المعني ثلاثة ايام ثم رجع الى الشوف، وفي ايام الامير عامر عمرت البلاد وانشأ عقارات كثيرة في سهل البقاع ذلك لان الملك الصالح ايوب اقطع الأمير عامر شهاب اقطاعات في سهل البقاع تقديراً لمآثره وانتصاره على الفرنج.

وفي السنة ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ م توفي الخليفة الناصر ابو العباس احمد وكانت خلافته ست واربعين سنة وكان فطناً عاقلاً.

الفصل الثامن والثلاثون

في خلافة الظاهر بامر الله وهو الخامس والثلثون من العباسيين

وبويع بالخلافة بعد الناصر ولده الامام الظاهر بامر الله (عدة الدين ابو نصر محمد) في ثاني شوال من هذه السنة، وكان والده قد بايع له بولاية العهد، وكتب بها الى الافاق، وخطب له بها مع ابيه على سائر المنابر. ثم بعد مدة خافه والده ونفر منه ومال الى اخيه الصغير علي ولكن هذا مات في حياة والده وخلف اولاداً اطفالاً، فعلم الامام الناصر انه لم يبق له ولد يصلح للخلافة غيره فعهد بها اليه وبايعه الناس وهو في السجن مضبوط عليه. وكانت عامة اهل بغداد يميلون اليه، فاظهر من العدل والامن ما لا يمكن وصفه وازال الظلم ورد على الناس اموالاً جزيلة واملاكاً جليلة كانت قد اخذت منهم وازال مكوساً كثيرة كانت قد جددت. وبنى لبغداد جسراً (كبرياً) ثانياً عظيماً جديداً، وانفق عليه اموالاً كثيرة فصار في بغداد على دجلتها جسران (كبريان).

وفي هذه السنة ركب الملك الاشرف صاحب حلب على ميخائيل ملك الروم فاخذ منه اسرى كثيرين واسترجع تل باشر ورعبان.

وفي السنة ٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م توفي الملك الظاهر بالله ابن الناصر خليفة بغداد وكانت مدة خلافته تسعة اشهر. وما زالت دولته عادلة امنة منذ ولي الى ان توفي في رابع عشر شهر رجب.

الفصل التاسع والثلاثون

في خلافة المستنصر بالله وهو السادس والثلثون من العباسيين

ولما توفي الامام الظاهر بامام الله بويع بالخلافة الى ولده جعفر المنصور، ولقب بالمستنصر بالله، واظهر من العدل وحسن السيرة اضعاف ما اظهره والده، وافاض من الصدقات ما ربا على من تقدمه، وتقدم بانشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية التي لم يبنَ في الدنيا مثلها، فبنيت على أعظم وصف في صورتها والاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهائها، ووفقها على المذاهب الاربعة، ورتب فيها اربعة من المدرسين في كل مذهب مدرساً، وثلثماية فقيه لكل مذهب خمسة وسبعون فقيهاً، ورتب لهم من المرتبات والخبز والطعام في كل يوم ما يكفي كل فقيه ويفضل عنه، وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً للفقهاء، وطبيباً خاصاً يتردد اليهم بكرة كل يوم يفتقدهم، ومخزناً فيه كل ما يحتاج اليه من انواع ما يطبخ من الاطعمة، ومخزناً اخر فيه انواع الاشربة والادوية.

وفيها سار علاء الدين كيقباد لمحاربة صاحب الروم فاخذ قلاعاً لصاحب آمد. وقال ابن الاثير في كتابه الكامل ان علاء الدين المذكور وهو سائرٌ صاد شخص من عسكره ارنباً له ذكر وفرج، فشقوها فاذا في بطنها جوفان. فقال جماعة كثيراً ما سمعنا ان الارنب يكون سنة ذكراً وسنة انثى حتى رأيناه بأعيننا. وفيها ايضاً انخسف القمر في هذه السنة مرتين. وكان بالموصل عين

تسمى عين القتارة وكان ماؤها سخناً لا يقدر احد يضع يده فيه لحرارته، فبردت هذه السنة والله اعلم. وفيها توفي ابو السعادات اسعد السنجاري، وتكلم في الاختلافات الفقهية الا انه غلب عليه الشعر واجاد فيه.

وفي السنة ٦٢٤ هـ = ١٢٢٦ م توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل الايوبي صاحب دمشق في سلخ ذي القعدة، وكان عمره ثمانياً واربعين سنة. وكان ملكاً عادلاً ذا همة، وكانت مملكته من دمشق الى القدس الى السواحل، وولي مكانه ولده صلاح الدين داود، وحمل عمه الملك العزيز وعمه الملك الصالح الغاشية بين يديه. وفي هذه السنة قفل جنكيزخان من الممالك الغربية الى منازله القديمة الشرقية. ثم رحل من هناك الى بلادتنكوت (شرقي بلاد تيبت وغربي نهر الصين المسمى هو انهو). فعرض له مرض ثقيل من عفونة ذلك الهواء الوخيم، فاستدعى اولاده جفاتاي واوكتاي والغ توين وكلكان وجورختاي واوردجار (ويروى اروجان اورادوجان) وقال لهم انني قد ايقنت مفارقتي الدنيا لعجز قوتي ولا بد من شخص يقوم بحفظ المملكة على حالها، والذب عنها فقالوا له اختر من تريد فاختار ولده أوكتاي وجعله ولي عهده، وقلده السلطان على جميع الممالك واطاع اخوته امره وتوفي لأربع مضين من شهر رمضان وكانت مدة ملكه نحو خمس وعشرين سنة.

وفي السنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م سار الملك الاشرف الى دمشق صاحب حلب بامر الملك الكامل لاجل حصار الملك الناصر داود صاحب حماة، ثم وقعت المراسلات بين امبراطور الافرنج والملك الكامل في طلب الصلح. فلما رأى الملك الكامل كثرة عساكرهم وامداد البحر لهم بالرجال والاموال خاف على بلاده ان تؤخذ منه عنوة فأجابهم الى طلبهم، واتفق معهم على تسليمهم بيت المقدس ومواضع اخر كثيرة من السواحل على شرط ان تهدم اسوار اورشليم ولا تبنيها الافرنج، ولا يتعرضوا بشيء الى قبة الصخرة، ولا الى الجامع الاقصى. ويكون الحكم في الرساتيق بيد الاسلام، ويكون لهم كلما على الطريق من عكا الى القدس فقط وارتضوا بذلك. وتسلم الامبراطور القدس ودخلتها الافرنج، وسار الملك الكامل الى دمشق، وشدد الحصار على

الملك الناصر، وجرت بينهما حروب شديدة. ثم ان الملك الكامل دخل قلعة دمشق، ونزل الملك الى حران، ثم صار الاتفاق ان يكون الكامل في دمشق وحاران، والرها للناصر مع البلاد الشرقية. ثم ان الملك الكامل استناب الملك الاشرف في دمشق ورجع هو الى مصر. وفي هذه السنة امطرت السماءُ في حلب رملاً احمر يشبه البرد، وفيه تراب يشبه الطباشير. وفيها اجتمع امراءُ المغول اولاد جنكيزخان واعطوا ما اوصى به والدهم الى اخيهم اوكتاي واجلسوه على سرير الملك ولقبوه قان وقيل (خان) اي ملك كبير، ثم سير عساكره الى ناحية خراسان وقصد هو بنفسه بلاد الخطا. ذكر في تواريخ الروم أنه بهذه السنة كانت وفاة الملك ميخائيل القلفاط ملك الروم، وتملك مكانه ثاودوسيس الاسكاري وكان مقيماً في بلاد الاناضول.

وفي السنة ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م نزل السلطان جلال الدين خوارزمشاه على خلاط وحاصرها اشد حصار ونصب عليها عشرين منجنيقاً على ناحية البحر، وفيها اخو الملك الاشرف ومجير الدين يعقوب، والامير حسام الدين القيمري وعز الدين ايبك ملوك الاشرف ودام الحصار على اهل خلاط، واشتد حتى اكلوا لحوم الكلاب. وطلب اهل البلد الامان فامنوهم وتسلموا المدينة، ثم قصد المغول باقي المواضع. وجهز قآن اخاه الغ نوين وولده كيوك وسيرهم في عشرة الاف فارس في المقدمة وسار هو بعقبهم، فجيش التون خان ملك الخطا مائة الف من شجعانه، وقدم عليهم اميراً من امرائه وانفذهم للقاء المغول. ولما وصلوا اليهم استحقروهم لقلتهم وارادوا ان يسوقوهم الى ملكهم التون خان، فشغلهم المغول بفتور المكافحة واطمعوهم الى ان وصلت الجيوش الجرارة التي كانت مع قآن، فأوقعوا بعسكر الخطا ولم يفلت منهم الا القليل. وكان ألتون خان بمدينة تسمى نامكينك، ولما بلغه ما جرى على اصحابه الابطال ارتاع ويئس من حياة الدنيا وجمع اولاده ونساءه ودخلوا بيتاً من بيوت الخشب وامر باضرام النار فيه فاحترق هو ومن معه انفةً من الوقوع في اسر المغول. ودخلت عساكر المغول المدينة ونهبوا واسروا البنين والبنات وامنوا الباقين، وفتحوا غيرها من المدن المشهورة. ورتّب بها قآن الشحنة وقفل الى مواضعه القديمة. وبنى فيها مدينة سماها أردوباليق وهي مدينة

قراقورم، واسكنها خلقاً من اهل الخطا وتركستان والفرس والمستقربين. وبينما هم مسرورون بفتح بلاد الخطا توفي تولي خان وكان احب الاخوة الى قآن فاغتمّ لذلك كثيراً، وامر ان زوجته المسماة سرقوتيني بيكي وهي ابنة اخي أولك خان تتولى تدبير عساكره، وكان لها اربعة بنين وهم مونككا وقوبلاي وهولاكو واريع بوكا. فاحسنت تربية الاولاد وضبط العساكر وكانت لبيبة ذات تدبير، وكانت تركب مع الرجال في الحرب، وكانت تدين بدين النصرانية وتعظم المطارنة والرهبان وتلتمس صلواتهم وبركاتهم. وفي مثلها قال الشاعر :

فلو كان النساءُ كمثل هذه لفضلت النساءُ على الرجال

وبعد قليل مات ايضاً الاخ الكبير توشي وخلف سبعة بنين، ومن بين هؤلاء لباتوا الذي سلم قآن البلاد الشمالية وهي بلاد الصقالبة واللان والروس والبلغار. وجعل مخيمه على شاطي نهر اتل، وغزا هذه النواحي فقتل فيها خلائق بلغ عددهم مائتي الف وسبعين الفاً. ثم تجهز لباتوا للدخول الى نواحي القسطنطينية فبلغ ذلك ملوك الافرنج، فجيشوا العساكر والتقوا بالمغول في اطراف بلد البلغار وجرت بينهم حروب كثيرة انجلت عن كسرة المغول وهزيمتهم وهربهم، فقفلوا من غزوتهم هذه ولم يعودوا يتعرضون لبلاد اليونان والافرنج الى يومنا هذا. وفي هذه السنة اعطى الملك الاشرف اخاه الملك الصالح اسماعيل بعلبك فتسلمها وسكنها. وتولى على المدينة والقلعة وانهزم حسام الدين القيمري ولما بلغ الملك الاشرف ذلك سار الى ابلستين، فالتقاه صاحب الروم علاءُ الدين كقباذ، واجتمعا ولحقت الملك الاشرف عساكره وخرج علاءُ الدين بعسكره الى اقشهر هو والملك الاشرف. وخرج الخوارزمي من خلاط للقائهم وكان في اربعين الفاً والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً وكانت الغلبة للملك الاشرف والرومي، فانكسر الخوارزمي كسرة عظيمة وقتل من اصحابه خلق لا يحصى، واسر ايضاً عدد عظيم، وبلغت هزيمتهم الى جبال طرايزون. ومن هناك سار خوارزم بنفسه الى بلاد العجم، وكان ارسل في الابتداء تقي الدين عباس اخا الاشرف اسيراً مقيداً الى بغداد، فأعاده الخليفة المستنصر مكرماً الى اخيه الاشرف، فدخل الاشرف مدينة خلاط

واصلح احوالها. وفي هذه السنة وصل خبر للملك الاشرف عن عبور جورماغون نوين نهر اموية في طلبه فتوجه الى تبريز وارسل رسولاً الى الخليفة، واخر الى الملك الاشرف وصحبته زوجة الامير حسام الدين القيمري التي كان قد اسرها من خلاط، ورسولاً الى السلطان علاء الدين صاحب الروم يستنجدهم ويعلمهم بكثرة عساكر التتر وحدة شوكتهم وشدة نكايتهم، وانه اذا ارتفع هو من الوسط يعجزون عن مقاومتهم، وانه كسد الاسكندر يمنعهم عنهم، فالرأي ان يساعده كل منهم بجيش من عساكره ليهدأ بذلك جاش اصحابه فيحجم عنهم العدو. ولما وصلت رسله لم يجبه احد لمعاونته فسار الى ديار بكر، وبقي يقضي اوقاته بالسكر والملاهي والطرب كأنه يودع الدنيا وملكها الفاني. وبينما هو كذلك هجم عليه بايماس نوين بعسكره ليلاً فتكلف للانتباه وعاين نيران المغول بالقرب منه، فتقدم الى الامير اورخان طالباً منه ان يشغل المغول بالاقدام تارة وبالاحجام اخرى. وفر هو مع ثلثة من مماليكه تائهاً في جبال ديار بكر، فلما اصبحوا ظن المغول ان جلال الدين خوارزمشاه فيهم فجدوا في طلبهم طاردين وهم في اعقابهم وهم منهزمون بين ايديهم، ولما تحققوا انه ليس معهم رجعوا عنهم. اما جلال الدين خوارزمشاه فاوقع به قوم من الاكراد ببعض جبال آمد ولم يعرفوه فقتلوه والمماليك الذين معه طمعاً في ثيابهم وخيلهم وسلاحهم.

ولما استقر قاآن في الملك وانقاد له القاصي والداني من جيوش المغول عزم على فتح بلاد الخطا، وسير في مقدمته اخويه جغاتاي والغ نوين، فسارا ونازلا اولاً مدينة يقال لها جرجا بنو يقسين (ويروى خوجابنو يقسين) وهي على شط قراموران (اي النهر الاسود) فأحاطا بها وحاصراها مدة اربعين يوماً، وكان فيها عشرة الاف من الخطا. فلما عاينوا العجز عن احتلالها تراجعوا.

وفي السنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م ركب التتر على الاسلام وعلى جلال الدين خوارزم حتى وصلوا الى الفرات، وشنوا الغارة في ديار بكر والجزيرة فقتلوا وخربوا ما لا يوصف وسبوا الذراري وقتلوا الزهاد، وخربوا الجوامع واحرقوا المصاحف. وفعلوا اموراً لم يسمع بمثلها قط. وكانوا قد صنعوا مثل

ذلك في الغزوة الاولى سنة ٦١٨، وهذه غزوتهم الثانية على خوارزم والمسلمين. واما جلال الدين خوارزم فقتل بقرب ميافارقين. وفي هذه السنة انتهى تاريخ ابن الاثير المسمى بالكامل المبتدي من هبوط ادم الى هذه السنة ٦٢٨ هـ وفي سنة ٦٣٠ كانت وفاة مؤلفه عز الدين علي ابن الاثير الفزري.

وفي السنة ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م حاصر الملك الكامل صاحب دمشق آمد بالمجانيق، واخذها من صاحبها الملك مسعود مودود الاتابكي، وكان فاسقاً، وشهد الاشرف انه وجد في قصره خمسماية حرة للفراش من بنات الناس اخذهن قهراً، وعوضه منها بقرى بالشام، واستناب الملك الكامل على آمد ولده الملك الصالح نجم الدين ايوب. وفيها توفي الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل سيف الدين وهو شقيق الملك المعظم عيسى. وهو الذي بنى قلعة الصبيبة وبانياس وتبنين، واليه تنسب المدرسة العزيزية بدمشق بجوار الكلاسة. وفي هذه السنة صارت حروب كثيرة بين الملك الكامل وملك الروم حتى ان ملك الروم ظفر به واستأسره، كما استأسر ملك حماة ايضاً، ثم انه اطلقهما، واستولى على حاران والرها. ثم ان الملك الكامل استرجعهما بعد مواقع كثيرة، واسر من المقاتلين نحو ثلاثة الاف نفس ارسلهم الى الديار المصرية، وبنى بدمشق جامع التوبة وسماه بذلك الاسم لانه كان اولا للفواحش والمنكرات. وفيها توفي سيف الدين الآمدي الذي صنف كتباً كثيرة.

وفي السنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م توفي الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين وكانت والدته ابنة الملك العادل، وتولى مكانه على حلب ولده الملك الناصر يوسف صلاح الدين وكان صغيراً وهو آخر الملوك من بيت ايوب. وفي هذه السنة ارسل السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم الى قاآن كي يدخل في طاعته، فقال قاآن للرسول اننا سمعنا برزانة صاحبك واصابة رأيه، ونريد ان يحضر بنفسه الينا ليرى منا كل قبول واكرام ونجدد العهود معه، وتكون بلاده جائزة عليه. فلما اعاد الرسول هذا الكلام تعجب منه كل من حضر، واستدل على ما عليه قاآن من العظمة، فلم يجب علاء الدين الى ذلك. وفيها سار علاء الدين الى خلاط وسرمن رأى،

وغزا الملك الاشرف مدينة حصن منصور، واخذ الكامل مدينة آمد من صاحبها وعاوضه منها بقرايا من الشام. وفيها توفي مظفر الدين ابن زين الدين علي كوجك صاحب اربد، وحمل الى مكة ودفن بها. وولي على اربد انسان شريف يقال له ابو المعالي محمد ابن ناصر الدين صلاي من قبل الخليفة المستنصر. وفيها توفي ناصر الدين محمد ابن الملك القاهر ابن نور الدين صاحب الموصل، وولى الخليفة مكانه بدر الدين لولوءاً، فخطب له بالمنبر في السلطنة. وفيها حاصر السلطان علاء الدين مدينة الرها وملكها ودخلت الروم ووضعوا السيف باهلها ثلاثة ايام وقتلوا خلقاً لا يعد من النصارى والاسلام. واتت اليه اهل حاران وملكوه القلعة وملك الرقة والبصرة. فلما عاد عنهم عسكر الروم قصد الملك الكامل الرها، وحاصرها وملكها من الروم وهدم البرج، وارسل امراء الروم الى مصر. (ذكر ابو الفرج أنه في هذه السنة توفي علاء الدين كيقباذ صاحب الروم).

وفي السنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م كانت وفاة السلطان الملك الاشرف ابو الكامل موسى ابن الملك العادل ابن ايوب في بداءة هذه السنة بدمشق. وكان اقام مدة في الرها وحاران اللتين اخذهما من ابيه، ثم تملك خلاط وهي قصبة ارمينية، ثم تملك دمشق نحو تسع سنين، وكان عمره ستين سنة، وكان كريماً شجاعاً محباً للعلماء شديد الباس مقبلاً على التمتع بالدنيا ولذاتها، يصرف اوقاته برفاهية من العيش. وتوفي بدمشق بعده اخوه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، فلما بلغ خبر ذلك الملك الكامل سار من مصر الى الشام وحاصر الملك الصالح بدمشق حصاراً شديداً، فكاتب الملك الصالح ملك الروم والملوك اهل بيته واتفقوا معه، فاخذ الملك الكامل دمشق من الملك الصالح وعوضه عنها ببعلبك والبقاع الى بصرة، وشنق بين البساتين جماعةً كثيرة من اهالي حمص الذين كانوا اتوا لمعاضدة الملك الصالح اسماعيل. وملك الملك الكامل دمشق شهرين ومات لانه دخلها لاحدى عشر بقيت من جمادي الاول، ومات لتسع بقين من رجب، وكانت وفاته بقلعة دمشق بالسعال والاسهال، ومدة ملكه على مصر والشام من حين مات ابوه عشرون سنة. وقبل ذلك كان له عشرون سنة نائباً بها، وبنى في القاهرة دار الحديث والقبة

على ضريح الشافعي. وهي من اعظم البنايات في البناء والاحكام صرف عليها مالاً جزيلاً. ولما مات وقع الاختلاف بين الامراء في من يملكون على مصر والشام. واتفق الرأي بأن الملك الجواد يونس ابن الكامل ابن شمس الدين مودود ابن الملك العادل يكون ملكاً على دمشق. والملك العادل ابن الملك الكامل على مصر. وهو السابع من ملوك بني ايوب في الديار المصرية. وفي هذه السنة خرج عسكر المعرة لغزو حماة، فنهبوا بلادها وحاصروا الملك المظفر بحماة. وكانت حماة حينئذٍ لصاحب حلب. وفيها حدثت حروب بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الجواديونس نائب دمشق بين جنين ونابلس، فانتصر الجواد وانهزم الناصر هزيمة قبيحة. وفيها تسلم صاحب حمص سلمية من المظفر صاحب حماة، وتحركت ايضاً عساكر التتر على بغداد. وفي هذه السنة توفي السلطان علاء الدين كيقباذ ملك الروم وكان ملكه ثماني عشرة سنة، وكان عاقلاً عفيفاً ذا بأس شديد، وكانت الدولة قبله منحلة بسبب الخلاف الواقع بين اولاد قلج ارسلان، ولما تولى عليها علاء الدين جدد ناموسها والقى الله في قلوب الخلق هيبته فاطاعوه واتسع ملكه. وبالحق تسمى السلطان لان جميع الملوك اذعنت لامره، وكان عنيداً في الامور قاسي القلب غير هياب المصاعب. ولما توفي احضر ولده غياث الدين الامراء فبايعوه وحلفوا له، وجلس غياث الدين على تخت ابيه في بلاد الروم، وقبض على غايرخان امير الخوارزمية فهربت اصحابه وجازوا بملطية وكاختين، واسروا سيف الدين الذؤابي، وقتلوه واغاروا على بلد سميساط، وعبروا الى السويدية فالتقاهم الملك الناصر صاحب حلب الى ما بين النهرين في الرها وحاران فطردوهما فكفوا عن الفساد والغارات. يذكر بارونيوس في هذه السنة ظهرت شيعة المتاولة في بلاد العجم، وكان لهم عشرة مدن يسكنونها باذن اجناد الهيكليين المتسلطين يومئذٍ على تلك الجهات، وكانوا يودون لهم الجزية. وكانوا يدعون انهم من نسل علي ابن ابي طالب، وان الخلافة بعد عمر ابن الخطاب كانت لهم وخرجوا بهذه الشيعة كما سيأتي ذكره.

وفي السنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م ضعفت همة يونس الجواد صاحب دمشق، فاستولى عليها وعلى أعمالها الملك الصالح ايوب ابن الكامل اخو

العادل صاحب مصر، وعوض الجواد يونس عنها بسنجر والرقة وعانة. وفي هذه السنة غزت التتر العراق ووصلوا الى تخوم بغداد فخرج اليهم مجاهد الدين وشرف الدين في عساكرهما والتقوا بالمغول وهزموهم. ثم خافوا من رجوعهم فنصبوا المجانيق على اسوار بغداد، ثم رجعت التتر بعد مدة فخرجت اليهم عساكر بغداد في خانقين والتقوهم، فكسرهم المغول وعادوا مهزومين الى بغداد. وفي هذه السنة هاج البحر ودخل بلاد فرنسا فمات فيها عالم عظيم. وفيها جهز السلطان غياث الدين جيوشاً الى ارمينية فامتنع المغول عن الدخول الى بلاد الروم. يذكر المعلم بارونيس انه بهذه السنة سار ملك التتر الى مملكة بولونيا وغزاها وهدم الكنائس وقتل الرهبان والراهبات والعوام. فهرب ملكها مع جنوده الى حصن في جبل كريا تجوم ورحلت اهالي مملكته الى المجر وبلاد الهونكار، فجمع التتر اذان المقتولين من تلك المملكة فملأوا تسعة اخياش. ثم سارت عساكر التتر الى مملكة هونكار فغزوها واهلكوا بالسيف كل من وجدوا بها رجال ونساء.

وفي السنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م سار صاحب بعلبك الصالح اسماعيل وشيركوه صاحب حمص بجماعتهما، وهجموا على دمشق اذ كان الصالح ايوب في نابلس قاصداً الاستيلاء على مصر، وكان فتح الدين عمر متولياً على دمشق، فهجم اهل دمشق واخذوا القلعة واعتقلوا المغيث، ومالت عساكر المغيث وعساكر ابيه الى اسماعيل. واما الناصر داود فانتقل الى الشام فمسك الصالح ايوب وارسله الى الكرك واعتقله بها. ثم سار الى القدس فوجد الافرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وبرج داود الذي كان بعده عامراً. وفيها اساء الملك الجواد السيرة بسنجر، فكاتب اهلها صاحب الموصل، ولما خرج الجواد ليتصيد اسرع لولو صاحب الموصل ففتحوا له البلد فتملكها، ومضى الجواد الى عانة فأوى اليها. وفي هذه السنة توفي صاحب حمص الملك المجاهد اسد الدين شيركوه، وكانت مدة ملكه نحو ستٍ وخمسين سنة، وملك بعده ولده المنصور ابراهيم ابن شيركوه. وفيها ظهر الملك الصالح ايوب من الكرك واتفق مع الناصر داود على اخذ مصر من الملك العادل، ومالت اليهما العساكر والامراء. وفي ثمانية

ذي القعدة قبضوا على الملك العادل وخلعوه من السلطنة، وكانت مدة ولايته نحو سنتين، واقاموا اخاه الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل وهو الثامن من ملوك بني ايوب بالديار المصرية، وعاد الناصر الى الكرك. وفيها توفي ناصر الدين ارتق ارسلان ابن الغازي صاحب ماردين وملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي.

وفي السنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م سلم الصالح اسماعيل صاحب دمشق صفد والشقيف للافرنج ليعضدوه ويكونوا معه ضد ابن اخيه الصالح ايوب صاحب مصر. وفيها صارت الوقائع بين الخوارزمية والحلبيين فانهزم الحلبيون وافسد الخوارزمية في بلاد حلب وحماة ونهبوا وخربوا اكثر مما فعل التتر، فاتفق الحلبيون مع صاحب حمص وركبوا ضدهم وكسروهم. واخذوا المكاسب والاسرى منهم وتملكوا المدن التي كانت معهم، وطردوهم حتى رجعوا الى عانة. واستولى صاحب حلب على حاران، وصاحب حمص على الخابور اللتين كانتا بيد الخوارزمية. وفي هذه السنة كانت وفاة الامير يوسف المعني. وقام بعده ولده الامير سيف الدين بالامارة على جبل الشوف. وهو ولد سعادة كريمة الامير نجم، فتوجه الامير نجم الشهابي الى الشوف معزياً الامير سيف الدين بابيه ومهنئاً اياه بالامارة. ومكث عنده نحو خمسة عشر يوماً. ولما اراد الرجوع الى دياره خطب ابنة الامير سيف الدين لولده الامير عامر، ثم بعد سنة زفت اليه وكان زفافاً عظيماً.

وفي السنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م ظهر ببلد اماسيا من أعمال الروم رجل تركماني ادعى النبوة وسمى نفسه بابا، فاستغوى كثيراً من الناس بما كان يخيل لهم من الحيل والزخارف وكان له مريد اسمه اسحق يتزيا بزي المشايخ الصوفية، فانفذه الى اطراف بلاد الروم ليدعو التركمانيين الى المسير اليه. فدخل اسحق هذا بلد سميساط، واظهر الدعوة له فاتبعه خلق كثير من التركمان، وبلغ عدد جمعه ستة آلاف فحاربوا من خالفهم، ولم يقل كما يقولون لا اله الا الله بابا رسول الله، فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين والنصارى من اهل حصن منصور وكاخنين وكزكز وسميساط. وبلد ملطية. وكانوا يهزمون كل من لقيهم من العسكر حتى وصلوا الى آماسيا، فانفذ اليهم

السلطان غياث الدين جيشاً فيه جماعة من الافرنج الذين في خدمته فحاربوهم، وكان المسلمون لم يتجرأوا عليهم ويحجمون عنهم لما توهموا منهم، فأخر الافرنج المسلمين وتولوا بأنفسهم حرب الخوارج، فكسروهم وابادوهم عن آخرهم. واسروا الشيخين بابا واسحق فضربوا عنقيهما، وكفوا الناس شرهما. وفي هذه السنة (والصحيح سنة ٦٣٩ هـ) حاصر جرماغون نوين مدينة ارزن الروم (هي ارزروم)، وملكها عنوة وقتل من اهلها خلائق كثيرة، وسبى الذراري، وشن الغارة عليها، وقتل سنان سوباشها.

وفي السنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م توجه من دمشق الملك اسماعيل قاصداً مقاتلة سلطان مصر، وكاتب ابراهيم صاحب حمص والناصر داود صاحب الكرك وكاتب الافرنج يعدهم بجزء من بلاد المسلمين حتى ينجدوه ضد عمه. وفي هذه السنة امطرت بدمشق مطراً عظيماً، وجاءت الزيادة الكبرى التي لم يعهد بمثلها فيما تقدم، وكانت عظيمة جداً، وذكروا ان الماء وصل الى حائط جامع التوبة بالعقيبة. وفي هذه السنة سار السلطان غياث الدين كيخسرو الى ارمينية في جيش عظيم لم يتجهز مثله في عساكره وعساكر اليونانيين والافرنج والكرج والارمن والعرب لمحاربة التتر، فالتقى العسكران في نواحي ارزنكان (هي بلدة من بلاد ارمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من ارزروم). ولما باشر المسلمون ومن معهم من الجيوش النصرانية الحرب هزمتهم التتر، وانهزم السلطان غياث الدين الى مدينة انقورة فتحصن بها. واقام المغول ذلك اليوم في مكانهم ظانين ان هناك كميناً اذ لم يروا قتالاً يوجب هزيمتهم، وهم في تلك الكثرة من الامم المختلفة. فلما تحققوا الامر انتشروا في بلاد الروم، ونازلوا اولاً مدينة سيواس وملكوها واحرقوا ما وجدوا بها من الات الحرب وهدموا سورها، ثم قصدوا مدينة قيساريه فقاتل اهلها اياماً، ثم عجزوا ففتحوها عنوةً ورموا اهلها بالسيف، وابادوا اكابرها واغنياءها وسبوا الذراري والاولاد وهدموا الاسوار، ثم رجعوا الى بلادهم. وقد هربت اهل تلك البلدان الى نواحي حلب خوفاً من التتر، ولما نظر السلطان غياث الدين ان ليس له سبيل الى لقاهم ارسل يطلب منهم الصلح، فصالحوه على مال جزيل وخيل وانسجة. وفيها توفي الامام المستنصر بالله الخليفة ببغداد وكان

عاقلاً عادلاً لبيباً كريماً كثير الصدقات بنى المدارس والمساجد. ومن شدَّة غرامه بمدرسته المعروفة بالمستنصرية غرس بجانبها بستاناً خاصاً له، وكان يأتي يومياً يتنزه في البستان ويجلس فيه في مكان يشاهد المدرسة ويشاهد احوالها واحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد احوالهم، وكانت وفاته في عشرة خلت من جمادي الثاني وكانت خلافته نحو ثماني عشرة سنة وقيل ١٧ سنة.

الفصل الاربعون

في خلافة المستعصم بالله ابن المستنصر وهو السابع والثلثون من العباسيين واخرهم

اتفق ارباب الدولة في بغداد بعد توفي المستنصر على تقليد الخلافة لولده عبد الله يوم مات ابوه، ولقب المستعصم بالله وكان صاحب لهو وقصف مشغوفاً بلعب الطيور. واستولت عليه النساء، وكان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب عليه لتدبير امور الدولة، وكان اذا نبه على ما ينبغي ان يفعله في امر التتر إما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم، أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول : انا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي اذا تنازلت لهم عن باقي البلاد، ولا ايضاً يهجمون عليّ وانا بها وهي بيتي ودار مقامي، وتغريد هذه الطيور يطربني اكثر من تدبير الممالك.

وفي هذه السنة كان مقتل الامير نجم الدين واخيه الامير علي اولاد الامير جمال الدين التنوخي بثغر بيروت في مكان يقال له ثغر الجوزات في بلاد كسروان. وهم واولاد جمال الدين حجي ابن ابراهيم ابن بحتر اول من سكنوا قرية اعبية الغرب من بني التنوخ، وكانوا اولاً قاطنين قرية طردلا حين اتوا من معرة النعمان، وكان الذي قتلهما من تركمان الازواق في بلاد كسروان.

وفي اخر هذه السنة سلم الصالح اسماعيل صاحب دمشق طبرية وعسقلان للافرنج ليكونوا نجدة له، فبنى الافرنج قلاعها، واعطاهم ايضاً القدس بما فيها من مدافن الاولياء والمساجد، حتى أنهم اقاموا الصلاة على الصخرة. وفي هذه السنة كانت وفاة الامير نجم الشهابي وكان كريم الاخلاق رقيق القلب ذا فراسة صادقة وشيخوخة حسنة. ثم تولى بعده ولده الامير عامر وهو اكبر اولاده، وكان ضخم الجسم شديد الهمة سديد الرأي، وفي ايامه انشأ في بلاد وادي التيم العقارات والمزارع.

وفي السنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م توجه الخوارزمية الى داخل نهر الفرات ومنها الى غزة. فاستدعى الملك الصالح ايوب صاحب مصر. واجتمعوا بالعساكر المصرية قاصدين دمشق، واستنجد الصالح اسماعيل صاحب دمشق بالافرنج، وبابراهيم صاحب مصر، وبالناصر داود صاحب الكرك، والتقى الفريقان بظاهر غزة، وظفر الخوارزمية والمصريون بأهل الشام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. واستولى الملك الصالح ايوب على غزة وسواحلها وعلى القدس. وفي هذه السنة اغار التتر على بغداد ولم يتمكنوا من منازلتها، وفيها ارسل السلطان غياث الدين عسكراً عظيماً الى مدينة طرسوس فحاصروها مدة، وضيقوا عليها وكادوا يفتحونها عنوة، فاتفق ان مات السلطان غياث الدين في تلك الايام، فلما بلغهم موت السلطان رحلوا عنها خائبين وكان الوقت خريفاً، وتواترت على الروميين الامطار فكسبت منهم الارمن مكاسب عظيمة. وكان السلطان غياث الدين مقبلاً على المجون، وشرب الشراب، غير مرضي الطريقة، منغمساً في الشهوات الموبقة، تزوج ابنة ملك الكرج فشغفه حبها وهام بها الى حد ان اراد نقش صورتها على الدراهم. وحكي عنه انه هام بجارية ولم يمكنه الوصول اليها خوفاً من ابيه، فحدث مرة انها ارسلت له شقفة من العنبر وداخلها زرٌّ من الذهب، فلم يعلم معنى ذلك ففشى ما عنده الى عبد الرحيم القاضي واخبره بحبه وغرامه بها، فكتب اليه شعراً :

اهدت لك العنبر وفي جوفه زرٌّ من التبر رقيق اللحام
فالزر والعنبر معناهما زرها كذا مستتراً في الظلام

فمعنى هذه الهدية هكذا : ان العنبر اسود، فالذي يزورها تكون زيارته

داخل الليل (وخلف غياث الدين ثلاثة بنين عز الدين وامه رومية ابنة قسيس وركن الدين وامه ايضاً رومية وعلاء الدين وامه الكرجية). فتولى على السلطنة عز الدين وهو الكبير، وخطب له على المنابر وكان المدبر لدولته الامير جلال الدين قرطاي، وكان رجلاً ديناً صائم الدهر كله ممتنعاً عن اكل اللحم ومباشرة النساء، لم ينم على فراش وانما كان نومه على الصناديق. وكان اصله رومياً وهو من مماليك السلطان علاء الدين، وكان له الحرمة الوافرة عند الخاص والعام لحسن سيرته.

وفي هذه السنة اجتمعت الافرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم، فلما سمع بهم الامير عامر الشهابي جمع عساكره وفرسان عشيرته ونهض لملتقاهم. واستنجد بالامير عبد الله ابن الامير سيف الدين المعني، فجمع اهالي الشوف وسار الى نجدة الامير عامر، والتقى الجمعان في مرج الخيام، وصدمتهم الافرنج ودام القتال ثلاثة ايام وهلك من الفريقين خلقٌ كثيرٌ. وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الافرنج فنكسوا اعلامهم وولوا مدبرين، ثم رجع الامير عامر والامير عبد الله الى حاصبيا. وبعد ثلاثة ايام رجع الامير عبد الله الى الشوف. وعظمت بعد ذلك امارة الامير عامر واشتهرت صولته واخذ قطائع في البقاع وانشأ فيها عقارات عديدة.

وفي السنة ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م الحت رسل المغول في طلب السلطان عز الدين ليحضر بنفسه في خدمة قآان، فاعتذر محتجاً بمعاداة من يجاوره من ملوك اليونانيين والارمن له، وانه متى فارق بلاده ملكها هؤلاء، وكان يرضي الرسل بالهدايا والاموال. ثم سير اخاه ركن الدين وكان صغيراً ففوض تدبيره الى بهاء الدين الترجمان، وجعله مربيه وارسله صحبته، واستوزر عز الدين لنفسه رجلاً اصفهانياً صاحب علم وفضل يلقب بشمس الدين، فتمكن من الدولة الى ان تهيأ له التزوج بام السلطان عز الدين فثقل ذلك على الامراء طرا. وفي هذه السنة مرض قآان ولما اشتد مرضه سير رسولاً في طلب ولده كيوك، فاهرع اليه من غير توقف. فلم يمهله القضاءُ ليجتمع بالوالد، فأقام بالمكان الذي بلغه فيه وفاة والده. وكانت والدته تورا كينا خاتوناً ذات دهاء عظيم وفطنة، فاتفق جميع الاولاد على أنها هي تكون المتصرفة بتدبير الممالك لانها

ام الاولاد الذين لهم استحقاق في الخانية. وفي هذه السنة زحف المصريون والخوارزميون لاخذ دمشق، وشددوا عليها الحصار مدة خمسة اشهر، وقاسى اهلها شدة عظيمة لم يعهد بمثلها، واحترقت العقبة ومات كثير من القتل والجوع. وكانت سنة غلاء بلغت غرارة الحنطة في دمشق الف وستماية درهم، وبيع الخبز كل اوقية بدرهم فضة، ورطل اللحم بتسع دراهم، واكلوا الميتة والجيف وانتنت البلاد من كثرة الموت. ثم انهم تسلموا دمشق بالامان، وخرج منها الصالح اسماعيل على ان تكون له بعلبك فانقلب معه غالب عساكر مصر والخوارزميين الذين استدعاهم الصالح ايوب من بلادهم واجتمع اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا الى دمشق وحاصروها واذاقوا اهلها شدة عظيمة فلم يشعروا الا وجاءهم الخبر بأن الحلبيين ساروا اليهم ومعهم الملك المنصور ابراهيم، فرحلت الخوارزمية عن دمشق، والتقوا بالحلبيين وصاحب حمص فانكسروا وقتل مقدمهم بركة خان وحمل رأسه الى حلب. وجاء الصالح اسماعيل الى حلب مستجيراً بصاحبها الملك الناصر يوسف، وحوصرت بعد قليل بعلبك وبها اولاده واخذت. وفي هذه السنة وهب الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق قلعة الشقيف للافرنج لكي يساعدوه عند الحاجة، فانكر عليه ذلك ابن عبد السلام خطيب دمشق، وابو عمر ابن الحاجب المالكي، فعزلهما وحبسهما بالقلعة. وفيها قدم رسول التتر الى المظفر غازي صاحب ميافارقين ومعه فرمان ومضمونه « من رب السما ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب يأمر ملوك الأرض بالدخول في طاعة القاان الاعظم. وقد جعلك القاان حامل سلاحه وامرك ان تخرب اسوار بلادك ». وفيها طلع من الشرق شعب شرير يسمى الكرج وسبوا مدينة قورش وبلدان كثيرة، وبلغوا مصر ودخلوها، واهلكوا امماً كثيرة لا تعد من النصارى والمسلمين ومن جميع الامم، وخربوا القدس وقتلوا كل من فيها، وحاربوا عساكر الافرنج عند مدينة عسقلان، وكسروهم وسبوا منهم سبياً كثيراً وقتلوا عدداً غفيراً، وحصلت منهم رعبة وخوف عظيم في نواحي اليهودية وفلسطين ودمشق وبعلبك وطرابلس وحمص حتى الى انطاكية. وفي السنة التالية صار عوز عظيم في هذه البلدان، وثقل الغلاء في الحنطة، وحصل سبي وضيق كثير

حتى بلغ رطل الخبز ثمانية دراهم واردب الحنطة ست دنانير. وانطلق اناس كثيرون من بلد الى اخرى لاحتياجهم للقوت اليومي، ومن شدة الخوف من الكرج، لانهم كانوا محيطين بنهر الاردن وواصلين الى حدود انطاكية، وكانوا يقتلون كل من وجدوه من النصارى والمسلمين. وكان خوف عظيم في دمشق، وغلاء شديد وضيق وجوع لم يسمع بمثله من شهر كانون الى شهر اذار (اي من دسمبر الى مارس). وبعد هذا حصل وباءٌ شديد (طاعون) مات به كثيرون حتى غلقت ابواب بيوت كثيرة ولم يوجد من يسكنها.

وفي السنة ٦٤٤ هـ = ١٢٤٦ م اتفق الخوارزمية مع الملك الصالح اسماعيل، والناصر داود صاحب الكرك وقصدوا دمشق، واستنجد الملك الصالح ايوب بعسكر الحلبيين وبالملك المنصور ابراهيم صاحب حمص، واجتمعت العساكر على الخوارزمية فرحلوا عن دمشق والتقى العسكران على نهر القصب وتقاتلوا فانهزمت الخوارزمية هزيمة عظيمة تشتت شملهم، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه الى حلب. وقطع البعض منهم النهر مع مقدمهم كشلوخان الخوارزمي، والبعض تفرقوا بالشام وخدموا وكفى الله الناس شرهم. واما الملك الصالح ايوب ففرح فرحاً عظيماً، وفي ذي القعدة دخل دمشق، وكان يوماً مشهوداً. فأقام بدمشق اياماً وسلمها الى حسام الدين ابن ابي علي الهدباني ليحفظها، ورجع فاخذ بصرة وصرخد والصبيبة وبنى سور القدس، وتسلم الصلط، ثم رجع الى مصر. واستجار الملك الصالح اسماعيل بالملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب وسار اليه، ثم ان حسام الدين حافظ دمشق نزل الى بعلبك فحاصرها ومسك اولاد الصالح اسماعيل، وحملهم الى مصر الى الملك الصالح فاعتقلهم هناك، وفيها ارسل الملك الصالح ايوب عسكراً من مصر لاخذ الكرك، فحاصرها العسكر واخرب كل ضياعها، وضعف الناصر داود ضعفاً زائداً ولم يبق له غير الكرك وحدها. وفيها ارسل المعتصم بالله خليفة بغداد مع ابن الجوزي خلع السلطنة الى الملك الصالح نجم الدين ايوب، وهي عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان مذهبان، وسيف مموَّه بالذهب، وطوق وترس ذهب وحصان. وكان وقتئذ الغلاء شديداً بدمشق حتى بيعت غرارة القمح في شهر شوال من هذه

السنة بمائة دينار، وبيع خبز الشعير اوقيتان ونصف بدرهم. وفيها توفي عبد المحسن ابن حمود الحلبي وكان حسن الخط، وله تصانيف كثيرة واشعار حسنة ودفن بدمشق.

وفي السنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م ارسل الملك الصالح ايوب العساكر مع فخر الدين وفتح عسقلان وطبرية من الافرنج. وفي هذه السنة توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب ميافارقين وخلاط، وكان شجاعاً كريماً لطيفاً يكتب خطاً جميلاً وينشد الاشعار الحسان ومن شعره :

اذا ما اردت السعد فيك فكـن على الذي في يده السعد متكلا
سلم الى الله امرأ انت فاعلـه فما الى النجم لاقولاً ولا عملا

ومن اشعاره ايضاً

اهـل العزيـزة ما فيكـم من حاز غيـر الجـود والحيـف
افسدتم دينـاً فلـم تصلحـوا يومـاً لغيـر القطـع بالسيـف

وفي هذه السنة ارسل الملك الناصر يوسف صاحب حلب وحاصر حمص. وبعد شهرين ملكها، وعاوض عنها للملك الاشرف موسى بتل باشر فأضافها الى ما بيده من تدمر والرحبة. يذكر بارونيس انه في هذه السنة ارسل البابا الى ملك مصر يطلب منه الصلح، وان لا يتعرض للنصارى القاطنين في مملكته، فأجابه الى ذلك وقبل سؤاله ورد عليه بكتاب هذه صورته « الى رأس الملة العيساوية وقاضيها الحبر الاعظم قائد بني الصبغة، انه قد وصلني كتابك وبه تروم الصلح والسلامة والامان على ابناء ملتك فقبلنا سؤالك، وصفحنا عنهم الصفح التام، فليكن هذا معلوماً والسلام ». وفي هذه السنة دخل ملك التتر في الديانة النصرانية واكثر اهالي مملكته ثم تجهز الى حرب خليفة بغداد[1].

---

(١) بظهور المغول اصبح في بلاد الشام قوة جديدة لعبت دوراً بارزاً في مصير الخلافة، وفي مصير الحكم الايوبي في مصر، بالإضافة الى الصليبيين. وقد اعتنق هؤلاء عقيدة المذهب النسطوري الذي يؤمن بان للمسيح طبيعتين : روحية وبشرية، فخالفهم المسيحيون في الشرق والارمن. ونظراً للارتباط الوثيق الذي كان قائماً بين الأرمن والصليبيين في طرابلس وانطاكية، فقد حالف هؤلاء بدورهم المغول ايضاً. وتمكن

وفي السنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م قدم الملك الامجد على السلطان بمفاتيح الكرك واعطاه خمسين الف دينار وبلد اسيوط ومايتي فارس. وفي هذه السنة سار ملك فرنسا لويس وهو من اعظم ملوك الافرنج من بلاده الى جزيرة قبرس ومعه نحو خمسين الف مقاتل، فشتى في الجزيرة ثم توجه الى عكا، وتفرق اصحابه في جميع السواحل. ولما استقروا مدة ساروا الى دمياط وكان قد شحنها الملك الصالح بالالات الحربية الكثيرة والذخائر الوافرة، وجعل فيها بني كنانة من دمياط، وهم مشهورون بالشجاعة، فوصل الافرنج الى بر دمياط الغربي في صفر، وهرب بنو كنانة من دمياط، واخلاها اهلها فملكتها الافرنج من غير قتال البتة واستولوا على جميع ما فيها. وكان الملك الصالح ابن الملك الكامل صاحب مصر يومئذ بالشام يحاصر مدينة حمص، فلما سمع بما فعله الافرنج في دمياط رحل عن حمص وسار مسرعاً الى الديار المصرية، ومرض في الطريق. وعند وصوله الى المنصورة عرض له في فخذه غنغريناً (غرغرينا) آل امرها الى موت العضو المصاب. وكان وصوله للمنصورة لخمس بقين من صفر فمسك بني كنانة، وامر بشنقهم، وقيل بصلبهم جميعاً وكانوا نحو ستين اميراً، وقيل ٥٤ لانهم اخلوا دمياط منزمهين بدون حرب. ولما اشتد عليه المرض قطعوا له العضو المصاب ولكنه توفي لاربع عشرة مضت من شعبان، وكانت مدة ملكه بالديار المصرية تسع سنين وثمانية اشهر وعشرين يوماً. وكان الملك الصالح عفيفاً طاهر اللسان والذيل، جباراً سفاكاً للدماء اباد الاشرف واخاه العادل وغيرهما، ولم يكن له الا ولد واحد هو

هذا التحالف الجديد (ارمني ــ مسيحي، شرقي ــ نسطوري وصليبي) من السيطرة على بلاد الشام تقريبا. فاسرع الامراء الأيوبيون يستسلمون للمغول، ويتحالفون معهم خوفاً منهم مثل ملك حماه وملك حمص، وهرب الملك الناصر يوسف الأيوبي من دمشق فسقطت المدينة بايدي الحلف المذكور، الذي تمكن فيما بعد من احتلال بعلبك وتخريبها وواصل المغول زحفهم جنوباً فوصلوا الى غزة تمهيداً لاحتلال مصر. الا ان صليبيي صيدا بزعامة جوليان رفضوا التعاون مع المغول واشتبكوا معهم في مرج عيون وبانياس، فهاجم المغول منطقة صيدا واخذوا يقتلون اهلها ويدمرون اسوارها ودورها. كما ان صليبيي بيروت وعكار وفرسان الداويه قد قاموا بهجوم على المغول في منطقة الجليل، ولكنهم هزموا.

الملك المعظم تورنشاه وهو مقيم بحصن كيفا. فلما مات الملك الصالح كتم الحجاب موته خوفاً من الافرنج، وكانت زوجته تعلم علامته وتكتب خطاً يشبه خطه، ولا ينكر عليه. واخرجوا باسمه امراً الى العسكر والامراء لكي يحلفوا لابنه من بعده بالملك فحلفوا، ولم يعرف احد بموته وارسلوا يستدعون ابنه من حصن كيفا مع القاضي الاكبر، وكان من مماليك ابيه. فسلك البرية واسرع به الى دمشق فدخلها في آخر رمضان، وتبوأ عرش السلطنة، واخذ اموال السلطنة وانفقها على الأمراء، واقام بدمشق شهراً، ثم رتب امور الكرك، ومن هناك توجه الى المنصورة. وجلس على العرش، واقام مأتم والده، وحمل في تابوته، ودفن في تربته، وارتضى به ارباب الدولة واستقر امره في المملكة. وهو التاسع من بني ايوب بالديار المصرية. وكانت في هذه الايام حروب بين الافرنج والمسلمين على بر المنصورة، فملكها الافرنج وقتلوا منها جمعاً كثيراً، وقتل من الافرنج اخو الملك.

وفي هذه السنة وقعت الحروب بين صاحب الموصل بدر الدين لولو وبين الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فانهزم صاحب الموصل واستولى الحلبيون على اثقاله وخيامه وتسلموا نصيبين. ثم ساروا الى داره وحاصروها ثلاثة اشهر فتسلموها واخربوها، ثم تسلموا قرقيسياء وعادوا الى حلب. وفيها سار عسكر الافرنج الى المنصورة واتفقوا مع المصريين، فقتلوا فخر الدين عثمان قائد الجيش، وعدداً عظيماً من العسكر وملكوا المنصورة، وانتقل المعظم الى القاهرة. وفي هذه السنة توفيت توراكينا خاتون ام كيوك خان وتسلم ولدها مباشرة الملك، ورضيت به اخوته. ثم رحل كيوك خان الى البلاد الغربية ولما وصل الى ناحية قمستكي وبينها وبين مدينة بيش بالغ خمس مراحل ادركه اجله، فمرض ومات في تاسع ربيع الاخر، فارسلت زوجته المسماة اغول غانميش رسولاً اعلمت اخاه بذلك، وتولت على احكام المملكة لحين تدبير من يقوم مقامه على مملكة المغول.

وفي السنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م حدثت عدة مواقع بين المسلمين والافرنج وانقطع المدد من دمياط عن الافرنج وهم بالمنصورة، واذ لم يبق لهم صبر على المقام قصدوا الرجوع الى دمياط لثلث مضين من شهر محرم. فهجم

المسلمون وراءهم، واعملوا فيهم السيوف. ويقال ان عدد القتلى من الافرنج بلغ ثلاثين الفاً، واسر الملك لويس ومعه جماعة من خواصه واكابر شعبه. وقيل ايضاً في بعض التواريخ انهم مسكوا من الافرنج ما ينوف عن مائة الف، ورتب لهم الملك المعظم ترتيباً ان يحمل منهم ثلاثمائة شخص فيقتلوا ويرموا في البحر الى ان افناهم جميعاً (قال ابو الفرج ان المصريين صبروا الى ان عبر الافرنج الخليج المسمى اشمون من النيل وهو بين البرين برّ دمياط وبرّ المنصورة وحاربوهم هناك فانهزم الافرنج، ومنعهم الخليج المذكور من ان يفوزوا وينجوا بارواحهم فغرق منهم خلق كثير). وفي هذه السنة في اخر شهر محرم بعد هذه الموقعة بثمانية وعشرين يوماً كان مقتل الملك المعظم تورنشاه ابن الملك الصالح ايوب، وبه انقرضت الدولة الايوبية من المملكة. وسبب قتله على ما رواه ابن الحريري في تاريخه، أنه كان على الغالب متخفياً كثير الاحتجاب عن الناس ناقص السياسة، وكان يلقب مماليك ابيه باسماء محتقرة، واهانهم وقدم الارذال الذين قدموا معه من حصن كيفا، واهان الاماثل. ووعد اقضاي ان يوظفه ولم يتم بوعده فحقد عليه وتهدد ام خليل زوجة ابيه، وطلب منها مالاً كثيراً فخافت منه وكتبت ضده. ولما كان يوم الاثنين سابع وعشرين محرم جلس على السماط فضربه بعض المماليك البحرية بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعض اصابعه وقام فدخل البرج، ثم دخلوا اليه وامروا نفاطاً باحراق البرج، وكان البرج من خشب فامتنع فطيروا رأسه، ثم امروا اخر فرماه بالنفط، ثم جعل يتوعدهم، وقال بعضهم لبعض اقتلوه والا ابادكم، فدخلوا اليه، فانهزم الى اعلى البرج فاوقدوا النيران حول البرج ورموه بالنشاب فرمى بنفسه وهرب نحو البحر، وهو يقول لا اريد ملكاً، يا مسلمين ردوني الى حصن كيفا، ما فيكم من يجيزني ؟ والعساكر كلها واقفة فما اجابه احد، والسهام تتساقط عليه. ثم تعلق بذيل اقضاي فما اجاره، ثم هرب الى النيل ودخل فيه وخاض الى رقبته فدخلوا وراءه وقطعوه ارباً، وبقي على جانب النهر ثلاثة ايام ميتاً منتفخاً وما احد يريد ان يدفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة، فحمل الى ذلك الجانب ودفن فجمع في قتله ثلاثة اشياء السيف والنار والماء. وكان ملكه واحداً وسبعين يوماً، وهو آخر بني ايوب بالديار المصرية. ثم

اجتمع الامراء كي يقيموا ام خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح ايوب سلطانة، وقيل انها كانت جارية تركية. وان يعينوا عز الدين ايبك التركماني اتابك (اي مدبر) العسكر، فحلفوا لها وخطبوا لها على المنابر، وضربت السكة باسمها في الديار المصرية، وكانت تعلم على المناشير والتواقيع وغيرها. واستقرت بالسلطنة ثلاثة اشهر، وخلعت على الامراء وانفقت الاموال وزادت في العطاء وكثر الدعاء لها. واظهرت العدل. وكان الامراء القيمرية حافظين دمشق، فكتب الامراء المصريون الى امراء دمشق يخبرونهم بالفتح الذي صار بمصر ويستشيرونهم في اطلاق لويس ملك فرنسا من اسره ام لا، فافتدى ملك فرنسا نفسه منهم بالف الف دينار. فلم يجب الامراء القيمرية الامراء المصريين، بل كاتبوا الملك الناصر صلاح الدين ايوب، فسار اليهم وملك دمشق. ولما استقر بملكه خلع على الامراء القيمرية واحسن اليهم وكانت عصت عليه بعلبك وعجلون ثم سلمتا جميعهما اليه. واما الملك لويس ملك الافرنج فكان مأسوراً فتوسط الامير حسام الدين في قضيته على ان يسلم دمياط ويقدم الف الف دينار نقداً فديةً عن نفسه، فأجابت شجر الدر والامراء الى ذلك، فركبوه بغلة وساق حوله الجيش الى باب دمياط، وعند وصولهم بدأ المسلمون في التكبير والتهليل. واخلى الافرنج دمياط، ودخلوا المراكب بعد قتل الملك المعظم بأربعة ايام، وسار الملك لويس الى عكا. (وذكر لي نسخة قديمة موجودة عند المطران جرجس ابن حبقوق من قرية بشعلة ان في هذا الزمان كان الشعب الماروني في عزه وكان رانك ملك فرنسا (لربما يراد به لويس) لما جاء لاخذ مصر واسره المسلمون اشترى ذاته وترك بيته وعسكره في جبل لبنان حتى الآن).

الباب الرابع

في دولة الاتراك

مع ان دولة التتر لم تنته تماماً ومع تسلطهم على قسم من المملكة الشرقية قامت دولة الاتراك وتسلطت على القسم الاعظم من هذه المملكة وابتدأت أحكامهم في مصر واتصلت ولايتهم الى كل الشام ولم يعد للمغول شيءٌ سوى انهم كانوا يغزون المملكة مرة بعد اخرى ولكن لم يطل زمن ملكهم[1].

(١) لعل ابرز الدوافع التي حدت ببعض الصليبيين لاتخاذ هذا الموقف السلبي من المغول ومحاربتهم مرده الى أن وجود المغول قد عرقل خطوط المواصلات الداخلية التي كان الصليبيون يستخدمونها لتأمين المواصلات التجارية والامدادات العسكرية، يضاف الى ذلك تعصبهم الى الكثلكة وهذا ما حدا ببعض المتطرفين منهم الى الطلب من اوروبا إعداد حملة صليبية جديدة للقضاء على المغول. الا ان المماليك وفّروا على الصليبيين هذا العمل، إذ تحالفوا مع الصليبيين في فلسطين ولبنان على محاربة المغول. فافسح الصليبيون المجال للمماليك للعبور من مصر عبر فلسطين. فجاء المماليك بقيادة قطز وبيبرس الى سواحل عكا حيث قدّم لهم الصليبيون الهدايا والاكراميات المختلفة تشجيعاً لهم على مقاتلة المغول. والتقى جيش المماليك، بجيش المغول الذي قاده كتبغا في عين جالوت في فلسطين في ٣ أيلول ١٢٦٠، وحقق المماليك انتصاراً ساحقاً على المغول الذين قُتل قائدهم كتبغا. ونتيجة هزيمتهم تراجع المغول عن سوريا، وسقطت دمشق بيد المماليك، وتوحدت مصر وسوريا تحت رايتهم. ولم يكتف المماليك بذلك، وانما انتقموا من بعض الايوبيين الذين اظهروا انواعاً من الجبن والتخاذل والخيانة، فقضوا على حكمهم نهائياً. وهذه الدولة المملوكية الناشئة لم تلبث أن دخلت في صراع مرير مع الصليبيين انتهى بالقضاء على الوجود الصليبي في الشرق.



الفصل الاول

في دولة المعز ايبك التركماني وهو الاول من ملوك الاتراك

اما شجرة الدر فأقامت في السلطنة اربعة اشهر وتزوجت المعز ايبك التركماني الجاشنكير الصالح وجعلته نائبها في السلطنة، واحتجبت عن الناس وخلعت نفسها، فاتفقت الامراء على المعز ايبك وملكوه في اواخر شهر ربيع اخر من هذه السنة، فركب بالالوية السلطانية، وحملت الغاشية بين يديه، وصار الاول بين ملوك الترك. وبعد اقامته باربعة ايام اجتمعت الامراء البحرية واتفقوا على اقامة شخص في الملك من بني ايوب تجتمع الكل الى طاعته، فوقع اتفاقهم على مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف ابن الملك مسعود ابن الملك الكامل، وكان متولياً على اليمن، ويعرف باقسس وعمره نحو عشرين سنة، فاحضروه وبايعوه ولقبوه بالملك الاشرف، وخطبوا له، وجعلوا له ايبك التركماني اتابكاً (مدبراً) وذلك لخمسة مضين من جمادي الاول. وكانت التواقيع والمناشير تخرج على هذه الصورة : رسم بالامر العالي المولى السلطاني الملكي الاشرفي والملكي المعزّي. واما صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب فلما بلغه قتل الملك المعظم تورانشاه، سار من حلب ونازل دمشق فكسر اقفال الباب الصغير وباب الجابية، ودخل الى دمشق ونهب داريا لاجل ابن يغمور، وحصل في دمشق ثورة. وكان بدمشق ابن الملك العزيز فذهب من دمشق الى الصبيبة، واخذ

الملك الناصر قلعة دمشق وبعلبك وحماة وحمص وصرخد، واخذ العساكر قاصداً الديار المصرية، فخرج من مصر ركن الدين في العساكر المصرية لملتقاه، فالتقى الفريقان في مدينة غزة وكان القتال شديداً بينهما، فانكسرت العساكر المصرية وخطب للملك الناصر بقلعة الجبل والقاهرة ومصر وغيرها من أعمال مصر، وانهزم عسكر المصريين الى بلاد الصعيد، والشاميون في اثرهم يقصدون الغنيمة. وثبت صاحب دمشق مع نفرٍ قليل، فوجده شرذمة من المصريين الهاربين فحاربوه وهزموه حتى طلب جهة الشام بنفر قليل، وكانت وقعة عجيبة لم يسمع بمثلها ولا اغرب منها، وكان كل واحد منهم ينهب الذي تصل اليه يده. وبعد ما كانت الخطبة للملك الناصر رجعت العساكر المصرية واتفقت كلمة الجميع على مكاتبة الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب الكرك والشوبك، وخطبوا له بصالحية مصر يوم الجمعة رابع جمادي الاخر. فلما نظر الملك المعز ايبك هذه الامور امر ان ينادوا بالقاهرة ومصر بان البلاد للخليفة المستعصم بالله والملك المعز نائبه بها، وذلك يوم السبت خامس جمادي الاخر من هذه السنة. ووقعت الفتنة بين العساكر وجددت الايمان للملك الاشرف بالسلطنة والمعز ايبك اتابكه، ورسخ امر المعز وعظم شأنه.

وفي السنة ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م رجع الملك الناصر يوسف وجهز العساكر ووصل رسول الخليفة مع الاوامر بالصلح بين الملك الناصر وبين المعز ايبك على ان يكون للمعز الديار المصرية وللملك الناصر غزة والقدس والبلاد الشامية والفراتية، ووقع الصلح على ذلك، ولم يفعل المعز ايبك امراً من الامور الا برأي الملك الناصر.

وفي السنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م تجدد الاتفاق بين المعز ايبك والملك الناصر بأن يكون للمعز الديار المصرية الى نهر الاردن في بلاد الشام وللناصر صاحب دمشق البلاد الشامية ما وراء نهر الاردن الى الفرات. وفي هذه السنة كتب الملك الناصر الى جمال الدين الكبير محيي الدين ابن نجم الدين محمد بن محيي الدين بن كرامة ابن بحتر التنوخي بأن يكون متولياً على هذه القرى.

عرمون الغرب وعين درافيل وطردلا وعين كسور ورمتون وقدرون ومرتغون والصباحية وسرحمول وعيناب وعين عنوب والدوير.

وفي هذه السنة توجهت اغول غاغيش وجماعتها في عساكرهم نحو اردومونكا قاآن، وكان المقدم على جيوشهم سيرامون وناقوا، ولما قربوا اتفق ان رجلاً من اردومونكا من الذين يربون السباع لاولاد الملوك هرب منه اسد فخرج في طلبه في الجبال والصحاري، فاجتاز بطرف من عسكر سيرامون ولقي صبياً منهم قد انكسرت عجلته وهو جالس عندها، فلما رأى مربي السباع المذكور مجتازاً استدعاه ليستعين به على ترميم عجلته، فأجابه مربي السباع الى ذلك ونزل عن فرسه واخذ يصلح معه العجلة، فوقع بصره على اسلحة مستورة في باطن العجلة، فسأل الغلام عنها، فقال له : ما اغفلك كانك لست منا كيف لم تعرف ان كل العجل التي معنا كهذه مشحونة بآلات الحرب ؟ فلما تحقق ذلك ترك طلب الاسد الابق، وسار مسيرة ثلاثة ايام في يوم واحد عائداً الى اصحابه، وأعلمهم بما رأى وسمع. فأمر مونكا قآان ان يمضي اليهم منكسار في الفي فارس ويستكشف حالهم، فمضى وذكر لهم ما نقل عنهم فلم يملكوا انفسهم، وداخلهم الرعب، ولم يسعهم الا التسليم لما يقضي عليهم. ولما حضر منهم الكبير والصغير ووقع السؤال وثبتت الجريمة عليهم جوزوا بما استوجبوا من الهلاك، وتقسيم عساكرهم على الاولاد والامراء. ولما فرغ مونكا قآان من أمر المخالفين شرع في ترتيب العساكر وضبط الممالك، فاقطع بلاد الخطا من حد الميري الى سليكاي وتنكوت وتيبت لقبلاي اغول اخيه، والبلاد الغربية لهولاكو اخيه الاخر، وولى على البلاد الشرقية من شاطيء جيحون الى منتهى بلاد الخطا الصاحب المعظم يلواج وولده مسعود بيك، وعلى ممالك خراسان ومازندران، وهندستان، والعراق، وفارس وكرمان، ولورران، واذربيجان، وكرجستان، والموصل والشام، الامير ارغون آغا. وامر ان المتموّل الكبير ببلاد الخطا يؤدي في السنة خمسة عشر ديناراً، والفقير واحداً، وببلاد خراسان يزن المتمول في السنة عشرة دنانير، والفقير ديناراً واحداً. ومن مراعي ذوات الاربع الذي يسمونه قويجور يؤخذ من كل من له مائة رأس من جنس واحد رأس واحد. ومن ليس

له مائة لا يؤخذ منه شيء. وعفى العبّاد وارباب الدين من المؤمنين والنصارى والمسلمين من جميع المؤونات والاوزان والتكليفات.

وفي السنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م توجه هولاكو ايلخان من نواحي قراقورم الى البلاد الغربية وسير معه مونكا قاآن الجيوش من كل عشرة اثنين، وصحبه اخوه الصغير سنتاي اغول، ومن جانب باتوا بلغاي ابن سيقان وقوتار اغول، وقولي في عساكر بواتوا، ومن قبل جفاتاني تكودار اغول بن بوخي اغول، ومن جانب جيجكان بيكي بوقاتيمور في عسكر الاوبرات. ومن ناحية الخطا الف بيت من صناع المنجنيقات، واصحاب الحيل في اصلاح الات الحرب، فكان امير الترك كيد بوقا الباوزجي، وكان القائم مقام هولاكو باردو ومونكا قاآن ولده جومغار بسبب ان امه اكبر خواتين هولاكو ابيه، واخذ صحبته ابنه الكبير ابافا وابنه الاخر سيمون. ومن الخواتين الكبار دوقوز خاتون المؤمنة المسيحية والجاي خاتون. وفي اخر هذه السنة تواترت السفراء في طلب السلطان عز الدين صاحب الروم ليحضر بنفسه لخدمة مونكا قاآن، فتجهز وسار حتى وصل الى مدينة سيواس. ولما سمع ان الامراء قد مالوا الى ركن الدين اخيه ويرومون تمليكه، عاد مسرعاً الى قونية وارسل اخاه الصغير علاء الدين وكتب معه كتباً يذكر فيها : انني قد سيرت اخي علاء الدين وهو سلطان مثلي، وانا لم يمكنني المجيء بسبب ان اتابكي ومدبري جلال الدين الدين قرطاي قد مات، وظهر لي اعداءٌ من ناحية المغرب فاذا كفيت شرهم جئت المرة الاخرى. فلما سار علاء الدين توفي في الطريق ولم يصل الى الاردو. واراد عز الدين ان يقتل ركن الدين اخاه الاخر ويأمن غائلته، فأحس الامراء بذلك وهربوه بأن البسوه ثياب بعض غلمان الطباخين، ووضعوا على رأسه خوانجة (صينية) فيها طعام، واخرجوه من الدار والقلعة في جماعة من الصبيان قد حملوا طعاماً الى بعض الدور. فلما خرج اركبوه فرساً وساروا به حتى اوصلوه الى قيسارية، فانضم اليه هناك جماعة من الامراء فجيشوا جيشاً وتوجهوا نحو قونية ليحاربوا عز الدين. فخرج اليهم بمن معه من العسكر فكسرهم واسر اخاه ركن الدين واعتقله في القلعة. وفي هذه السنة خلع المعز (الملك ايبك) الملك الاشرف موسى واستقل بالملك وحده، وكان الملك

الاشرف من الذين خطب له من بيت ايوب للسلطنة في مصر. ثم ان الملك المعز قبض على اخيه رأس الامراء. وقتله، فهرب سيف الدين الرشيدي وركن الدين وسارا الى الملك الناصر صاحب دمشق، فقوى عزمه وجهز العساكر لاخذ مصر، فخرج الملك المعز الى لقاه الى غزة فتقرر الصلح بينهما بأن تكون بلاد الشام للملك الناصر وديار مصر للملك المعز. والحد بينهما بير القاضي وهو بين الورادية وبين العريش. وحصل ايضاً الصلح بين الناصر وبين الافرنج الذين بعكا لمدة عشر سنين. وفي هذه السنة كانت وفاة الامير عبد الله المعني وقام على امارة الشوف ولده الامير علي، فتزوج ابنة الامير عامر الشهابي وزفت اليه من حاصبيا الى قرية بعقلين.

وفي السنلا ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م انتهى تاريخ الشيخ شمس الدين يوسف المسمى مرآة الزمان، وتوفي مؤلفه شمس الدين بدمشق. وفيها في ليلة الجمعة اول رمضان احترق في مكة المسجد وسقطت سقوفه جميعها والاعمدة، واحترق سقف الحجرة وذاب الرصاص وذلك قبل ان تنام الناس. وفي ليلة من جمادي الاخر خسف القمر وكان شديد الحمرة، وكسفت الشمس وقت طلوعها وغروبها. وفي هذه السنة اقبل رسول هولاكو الى حد قصران وكان كيذبوقا قد سبق ففتح قلعة شاهديز وثلثاً اخر من قلاعهم، ولما وصل ايلخان الى عباساباذ ارسل السلطان الى ركن الدين ليحضر الى خدمته، فأجاب انه عاجز وسير عوضه الى العبودية صبياً عمره سبع او ثماني سنين وذكر انه ولده. فلم يخف ذلك على هولاكو، ولكنه اكرم الصبي وارجعه الى مكانه بأمان. وبعد وصول هذا الابن المزور الى ركن الدين سير اخاه شيرانشاه في ثلثماية رجل على سبيل الخدمة، فسير هولاكو الثلثماية الى جمالاباذ من بلد قزوين، واعاد اخاه حاملاً رسالة اليه، وهي انه الى الخمسة ايام ان لم يصل بنفسه الى الخدمة يحكم قلعته ويستعد للحرب، فارسل رسولاً يقول انه لا يتجاسر على الخروج خوفاً من حشمه الذين معه داخل القلعة لئلا يثبوا عليه، فاذا وجد فرصة جاء. فعرف هولاكو انها مماطلة فرحل من بيشكام ونزل على القلعة المحاذية لميعون دره، فلما عاين ركن الدين نزول هولاكو بالقرب منه سير رسولا يقول : ان سبب مماطلتي انني ما كنت محققاً وصولك المبارك،

والان انا نازل اليوم او غداً. فلما عزم على الخروج ثاوره العلاة من الملاحدة، ووثب الندائيون، ولم يمكنوه من الخروج، فارسل الى هولاكو واعلمه بما هم عليه من التمرد، فامره ان يداريهم محافظاً على نفسه منهم وكيف ما كان يحتال للنزول ولو متنكراً. وتقدم الى الامراء ليحيطوا بالقلعة وينصبوا المنجنيقات ويقاتل كل منهم من يقاتله من الاسماعيلية. ولما اشتغل الملاحدة بقتال المغول نزل ركن الدين ومعه ولده وخواصه الى خدمة هولاكو، واظهر الخجل والندامة معترفاً بما اقترفه في الايام الماضية من الجرائم والاثام. فشملته الطاف عواطف ايلخان، وبدل ما عند ركن الدين من الاستيحاش والاستنفار بالاستئناس والاستبشار. ولما تحقق من بالقلعة ما نال صاحبهم من الطمأنينة والكرامة سلموا القلعة ونزلوا منها، فحاول المغول هدمها وفتحوا ايضاً جميع القلاع التي في ذلك الوادي. وفي تلك الايام وصل شمس الدين متولي قلاع فهستان واخذ يرليغاً، وسار معه اصحاب ركن الدين ليخرب جميع القلع التي هناك وهي تزيد على خمسين حصناً حصيناً وتسلموها وفتحوها الا قلعتين منها وهدموها جميعاً. ووصل اكابر الديلم وصالحوا المغول على تخريب قلاعهم، ثم عاد هولاكو الى الاردو بناحية همذان، وسير ركن الدين واولاده الى قزوين.

وفي السنة ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م التمس ركن الدين خوزشاه من هولاكو ان يسيره الى عبودية مونكا قاآن. فاعجبه ذلك وارسله ومعه تسعة اشخاص من اصحابه صحبة السفراء، فلما وصلوا الى مدينة بخارا خاصم السفراء وتسافه عليهم فحقدوا عليه. ولما وصلوا الى قراقورم لم يؤذن لركن الدين ان يحضر، وبرز له امر مونكا القائل ان يجب عليك العود الى بلدك والتقدم الى نوابك ليسلموا قلعتي كرذكوه وكمشير، فاذا سلموهما واخربتهما تحضر مرة اخرى ويكون لك الاكرام والقبول. فنكص ركن الدين بهذا الرجاء على عقبه، وفي الطريق أهلك مع من كان معه من اصحابه. ووصل برليغ مونكا قاآن الى هولاكو ليقتل الملاحدة بأسرهم ولا يبقى منهم اثر، فارسل قراقاي اليتبكنجي الى قزوين وقتل بني ركن الدين وبناته واخوته واخواته مع جميع عساكر الملاحدة. واوتكوحنانوين (يروي ايكوجبا ويروى يوحنا) ايضاً اخرج من

رعايا الاسماعيلية بحجة ضيق المكان اثني عشر الف رجل وقتلهم كلهم واخلى الارض من كل من الحد في دينه. وفي هذه السنة كان مقتل المعز ايبك ابن عبد الله التركماني في ١٢ ربيع الاول، وسبب ذلك انه كان قد عزم ان يتزوج بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل، فلما بلغ ذلك زوجته شجرة الدر قصدت قتله، فدخل الى حمام الدار ليغتسل فوثب عليه الخدام والقوه على الأرض وخنقوه عشية الثلاثا، وكانت مدة ملكه سبع سنين الا ثلاثة وثلاثين يوماً.

الفصل الثاني

في ملك نور الدين علي الملقب بالمنصور وهو الثاني من ملوك الترك

واتفقت الكلمة على اقامة ابنه نور الدين علي فلقبوه بالملك المنصور، وهو الثاني من ملوك الترك في الديار المصرية. وخطب بمصر والقاهرة اولاً للخليفة المعتصم، وبعده للملك المنصور نور الدين، وبعدهما لاتابكه علم الدين سنجر الحلبي. وامر الملك المنصور ان يصلبوا الخدام الذين قتلوا اباه وهم احياء. وفي ٢١ ربيع الاخر وجدت شجر الدر مقتولة مسلوبة خارج القلعة قتلها مماليك المعز.

وفي السنة ٦٥٧ هـ = ١٢٥٨ م ارسل السلطان عز الدين رسولاً لخدمة هولاكو شاكياً على بايجونوين انه ازاحه عن ملكه، فامر هولاكو ان تنقسم المملكة بينه وبين اخيه ركن الدين، فظهر عز الدين واتى الى قونية، ومضى ركن الدين مع بايجونوين الى مخيمه. ولخوف عز الدين من بايجونوين وجه مملوكه الى نواحي ملطية ليستخدم له عسكراً من الاكراد والتركمان والعرب، فعاد وصحبته شرف الدين احمد ابن بلاس من بلد الهكار وشرف الدين محمد بن الشيخ عدي من بلد الموصل بعساكرهما فاقطع ابن بلاس ملطية وابن الشيخ عدي خرت برت. اما ابن بلاس فلم يقبله اهل ملطية لأنهم كانوا حانقين على ركن الدين، فكان يضطهدهم ويجور عليهم فما احتملوه وآل

امرهم معه الى انهم وثبوا على اصحابه وقتلوا منهم نحو ٣٠٠ رجل، وهرب هو مع من تبعه من اصحابه واجتازوا ببلد قلوذيا واحرقوا دير ماذيق وعبروا الى آمد. وهناك ادركهم صاحب ميافارقين وقتل ابن بلاس واسر اصحابه. واما ابن الشيخ عدي فرحل من خرت برت ليتصل بالسلطان عز الدين فادركه انكورك نوين وقتله ومن معه. ثم ولى السلطان عز الدين على ملطية رجلاً بطلاً شجاعاً يقال له علي بهادر فقبله اهل ملطية خوفاً من صرامته. وعلي هذا حارب الاعجزية وهم قوم مفسدون من التركمان كانوا يغيرون على البلاد ويقتلون اهلها ويسبون الذراري، فاسر مقدمهم المسمى جوتي بك وسجنه بقلعة المستشار، وهزم جيوشهم فأمن الناس شرهم. وحضر بايجونوين في عساكره وصاروا يقاتلون متسلمي القلاع ليسلموها إلى ركن الدين، ونزلوا على مدينة ابلستين وقتلوا من اهلها نحو ستة الاف راجل، واسروا النساء والبنين والبنات. وجاؤوا الى ملطية فهرب علي بهادر الى كاخته، وخرج اهل ملطية الى خدمته بأنواع الهدايا والتحف. ولما خرج بايجونوين من حدود الروم طالباً العراق عاد علي بهادر الى ملطية فاغلق اهلها الابواب ولم يمكنوه من الدخول خوفاً من بايجونوين، فحاصرها اياماً واشتد الغلاء بها، وبلغ المكوك من الملح اربعين درهماً ومكوك الحنطة سبعين درهماً. فضجر الناس وضاقت بهم الحيلة ففتح العامة الابواب ودخلها علي بهادر واصحابه التركمانيون عنوة وصعد وقبض على اكثر اهالي المدينة، وسجن اياز مملوك السلطان ركن الدين، واركب شهاب الدين على بهيم حقير وطوفه بملطية ثم قتله. وشدّ حبلاً في رقبةالمعين الايكد بشاسي والطرف الاخر في رقبة كلب ومشاه بالاسواق ثم ضرب عنقه. وقتل ايضاً الامراء الثلثة اولاد شهاب الدين ايسوا. واشتد الخوف والجوع بملطية حتى اكل الناس الكلاب والسنانير وكانوا ينقعون النعال اليابسة ويأكلونها. وحكى الرواة لهذا التاريخ ان جماعة دخلوا بيتاً فوجدوا جماعة فيه وقدامهم ميت وبأيديهم السكاكين وهم يقطعون من لحمه ويشوونه على النار، وقيل ان امرأة اكلت ابنها الاصغر وزعمت أنها لم تقتله لكنه مات فراءت انها احق به من الديدان.

الفصل الثالث

في ملك سيف الدين الملقب بالمظفر وهو الثالث من ملوك الترك

وفي هذه السنة قبض سيف الدين قطز الذي كان سابقاً مملوك الملك المعز ايبك على ابن استاذه الملك المنصور نور الدين علي وخلعه من السلطنة، واستقر هو بالديار المصرية وتلقب بالملك المظفر وهو الثالث من ملوك الترك. وفيها ارسل الناصر يوسف ملك دمشق الى مصر يستنجد بالملك المنصور على التتر الذين كانوا قاصدين بلاد الشام. واتفق حينئذ ان الملك المظفر كان خلع الملك المنصور وجلس مكانه، فعند وصول الرسول اجابه الملك المظفر قطز انه ينجده ولا يقعد عن نصرته. وفي هذه السنة قدم هولاكو الى شرقي الفرات فملك حران وبلاد الجزيرة وارسل ابنه اشموط الى الشام، وفي العشر الاخير وصل الى ظاهر حلب. وكان الحاكم في حلب الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف عن ابن اخيه الملك الناصر، فارسل هولاكو اليهم قائلاً : انكم اضعف منا كثيراً ونحن قصدنا سلطانكم الملك الناصر فاجعلوا لنا عندكم شحنة بالقلعة واخرى بالبلد، فان انتصر سلطانكم فاقتلوا الشحنتين وان انتصرنا فحلب والشام تكون لنا. فابى توران شاه قبول ذلك، وخرج عسكر حلب وعسكر مصر للقتال عند بانقوسا، فاندفع بعض من التتر قدامهم، والبعض كمنوا لهم حتى خرج العسكر من البلد ثم هجموا عليهم فهربوا طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد.

وقتل في الابواب من المنهزمين جماعة، ثم عاد التتر الى غراز وملكوها بالامان. فلما بلغ ذلك الملك الناصر خرج من دمشق الى برزه فاجتمع اليه الملك المنصور صاحب حماه وامم كثيرة من العساكر، وعندما هموا بالركوب قصد بعض المماليك قتل الملك الناصر ليملكوا عوضه اخاه الملك الظاهر غازي لشهامته، بسبب ذلك كثر الفزع بينهم. ولقلة الاتفاق ملك هولاكو البيرة، ووجد فيها الملك سعيد ابن عزيز ابن العادل معتقلاً قد اعتقله الناصر مدة تسع سنين، فاخرجه هولاكو من السجن واحسن اليه، ووعده ببانياس وقلعتها المعروفة بالصبيبة، وجميع البلاد التي كانت له ولابيه في الشام. وفي هذه السنة مرض ثاودورس ملك مدينة نيقية ولما اشتد مرضه احضر البطريق ميخائيل الذي كان في خدمته واوصاه سن الرشد، اي ان يكون متولياً تدبير المملكة الى ان يبلغ ولده سن الرشد لانه كان صغيراً. ولما مات الملك ثاودورس تولى محافظة المملكة ميخائيل في مدينة نيقية، وخطب له في المملكة واطاعته الرعية. ولم يكن له اهتمام الا بتخليص القسطنطينية من ايدي الافرنج، وسار اليها فلم يقدر على اخذها حتى وقع الاختلاف بين البنادقة والجنويين بمدينة عكا، فسار البنادقة جميعهم عن القسطنطينية الى عكا لنصرة اصحابهم، فارسل كتاب عن لسان بعض المتوليين على القلع الى بلدوين صاحب القسطنطينية يقول له فيه. ان ميخائيل هذا قد تغلب على مملكة الروم وهو غير اهل لها. وانت اولى بهذه القلعة، فأنا اسلمك اياها، ولكن لا بد ان ترسل العسكر والات الحصار ليكون لي الاعتذار. فاغتر بلدوين الافرنجي والي القسطنطينية وارسل ما عنده من العسكر الى القلعة، فنازلوها واشتغلوا بحصارها، فحينئذ دخل ميخائيل بعسكره خليج القسطنطينية وهي خالية من رجال الحرب وليس فيها غير العامة ففتحوا له الابواب. فدخل وملكها وامن صاحبها الذي من قبل الافرنج، وسيره الى بلاده بماله وعياله. وكانت مدة استيلاء الافرنج على القسطنطينية ثلاث وخمسين سنة ثم عادت الى الروم. ذكر الحريري في تاريخه ان في هذه السنة في شهر شوال رحل هولاكو عن حدود همذان نحو مدينة بغداد، وكان في ايام محاصرته قلاع الملاحدة قد سير رسولاً الى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدةً، فاراد ان يسير ولم يقدر

اذ لم يمكنه الوزراء والامراء من ذلك. وقال له ان هولاكو دجّال صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً الى نجدتنا، وانما غرضه اخلاءُ بغداد من الرجال فيملكها بسهولة، فتقاعدوا من نجدته. ولما فتح هولاكو تلك القلاع ارسل رسولاً آخر الى الخليفة وعاتبه على اهماله بتسيير النجدة، فشاوروا الوزير فيما يجب ان يفعلوه، فقال : لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار ببذل الاموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما اخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدويدار الصغير واصحابه « ان الوزير انما يدبر شأن نفسه مع التتر وهو يروم تسليمنا اليهم فلا نمكنه من ذلك ». فعدل الخليفة بهذا السبب عن تنفيذ الهدايا الكثيرة واقتصر على نزر قليل منها لا قيمة له. فغضب هولاكو وقال : لا بد من مجيئه هو بنفسه او يسير احد ثلاثة اشخاص : اما الوزير، واما الدويدار، واما سليمان شاه. فوجه الخليفة اليهم امراً بالمضي فلم يركنوا الى قوله، فسير غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين فلم يجديا نفعاً عنه، وامر هولاكو بايجونوين وسونجاق نوين بان يتوجها في مقدمته ويهجما على عسكر الدويدار، فاقتتلوا قتالاً شديداً وكسروا عسكر الدويدار وقتلوا اكثر عسكره، ونجا هو في نفر قليل من اصحابه ودخل بغداد، ثم نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد. وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سوراً عالياً، وبنى بوقاتيمور وسونجاق نوين وبايجونوين بالجانب الغربي كذلك، وحفروا خندقاً عميقاً داخل السور ونصبوا المنجنيقات بازاء السور، ورتبوا العرادات والات النفط. فلما عاين الخليفة العجز في نفسه والخذلان من اصحابه ارسل صاحب ديوانه، وابن درنوش الى خدمة هولاكو ومعه تحف قليلة. وقال لهولاكو : انت طلبت احد الثلاثة وها انا سيرت اليك الوزير وهو اكبرهم. فأجاب هولاكو : انني لما كنت مقيماً بنواحي همذان طلبت احد الثلثة، والان لا اقنع بواحد بل اروم حضور الثلثة، وامر العساكر بالقتال. وامر هولاكو البتيكنجية ليكتبوا على السهام بالعربية ان الاركوانية والعلويين والدانشمدية وبالجملة كل من لا يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وامواله، وكانوا يرمونها الى المدينة. واشتد القتال

على بغداد من جميع الجوانب الى اليوم السادس والعشرين من محرم، ثم ملك المغول الاسوار وكان الابتداء من برج العجمي وملكوا الشط، وامر هولاكو ان يخرج اليه الدويدار وسليمان شاه، واما الخليفة فان اختار الخروج فليخرج، والا فليلزم مكانه. فخرج الدويدار وسليمان شاه ومعهم جماعة من الاكابر، ولما رأى الخليفة ان لا بد من خروجه اراد أم لم يرد استأذن هولاكو بان يحضر بين يديه فاذن له. وخرج رابع صفر ومعه اولاده واهله، وتقدم هولاكو وشرعت عساكر المغول في نهب بغداد، ودخل بنفسه الى دار الخليفة وامر باحضاره فاحضروه بين يديه، وقدم الخليفة لهولاكو جواهر نفيسة ولآلي، ودرراً في اطباق، ففرقها هولاكو جميعها على امراء المغول. وعند المساء خرج الى منزله وبقي النهب سبعة ايام، ثم رفعوا السيف وابطلوا السبي. ورحل هولاكو عن بغداد آخذا معه المعتصم واولاده. وفي اول مرحلة قتل الخليفة المعتصم واولاده وجماعة من خواصه، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة وهو آخر الخلفاء العباسيين وكانت مدة ملكهم خمسماية واربعاً وعشرين سنة، وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة، وفوض هولاكو عمل بغداد الى صاحب الديوان والوزير وابن درنوش، وارسل بوقاتيمور الى الحلة ليمتحن اهلها هل هم على الطاعة ام لا، فتوجه نحوها ورحل عنها الى مدينة واسط وقتل فيها خلقاً كثيراً وعاد الى هولاكو.

الفصل الرابع

في دولة المغول والتتر

في حكم هولاكو ابن تولي خان وهو الاول من ملوك المغول في بلاد المسلمين

ان اكثر المؤرخين حسبوا هولاكو الملك الاول من ملوك المغول ولكن من يراجع التاريخ مدققاً يعلم ان هولاكو لم يكن مستقلاً بالملك بل كان تحت رئاسة اخيه مونككا الخان الاعظم الذي بعثه مع قسم من الجيوش لفتح البلاد التي غربي الفرات والدليل على ذلك انه لم يكن يضرب اسمه على السكة بل اسم الخان الكبير. وارغون خان هو اول من ابتدأ ان يضرب السكة باسمه مع اسم الخان العظيم والذي جعل ابا الفرج وغيره من المؤرخين ان يحسبوا هولاكو الملك الاول ورأس دولة المغول انما هو لانه اول من ملك على بلاد المسلمين منهم بعد فتح بغداد وزوال الدولة العباسية.

وفي السنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م ذكر ابو الفرج في تاريخه ان في هذه السنة انتقلت الدولة من الخلفاء العباسيين الى ملوك المغول اي التتر، ولما ملك هولاكو بغداد ورتب بها الشحنة والولاة انفذ بدر الدين لولو صاحب الموصل اليه ابنه الملك الصالح اسماعيل ومعه جماعة من عسكره نجدة له، فاظهر له هولاكو عبسة وقال: انتم بعد في شك من امرنا، ومطلتم يوماً بعد

يوم، وقدمتم رجلاً واخرتم اخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا، قل لابيك لقد تعجبنا منك تعجباً كيف ذهب عنك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل، واتخذت اليقين ظناً وقد لاح لك الصبح فلم تستصبح. فلما عاد الصالح الى الموصل، وبلغ اباه ما حمل من الرسالة الزاجرة ايقن بدر الدين ان المنايا قد كشرت له عن انيابها، وذلت نفسه وهلع هلعاً شديداً، وكاد يخسف بدره ويكسف نوره. فانتبه من غفلته واخرج جميع ما في خزائنه من الاموال واللالي والجواهر والمحرمات من الثياب، وصادر ذوي الثروة من رعاياه، واخذ حتى على حظياته، والدرر من اقراط اولاده وسار الى طاعة هولاكو بجبال همذان، فاحسن هولاكو قبوله واحترمه لكبر سنه ورق له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة، وامنه وداعبه وقدمه الى ان اصعده اليه على العرش، واذن له ان يضع في اذنيه قرطين كانتا معه فيهما درتان يتيمتان، واقام في خدمته اياماً ثم عاد الى الموصل مسروراً مبروراً بل مذعوراً مما شاهد من عظمة هولاكو وهيبته ودهائه. وفيها توجه الاشرف بن الملك الغازي ابن الملك العادل صاحب ميافارقين الى الملك الناصر صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول الى الشام، فاستخف برأيه ولم يسمع مشورته بل سوّفه وسرحه من غده بالامان. ولما وصل الى ميافارقين مدينته طرد شحنة المغول منها وطلب رجلاً قسيساً كان قد وصل اليه من خدمة قآان باليراليغ والبويز او (البواير) وبينما هو كذلك ادركته عساكر المغول واحاطت بمدينته، وفي رأس العسكر يشموت ويروى (بشموت) ابن هولاكو. وفي يوم وليلة بنى المغول حول مدينته سوراً وحفروا خندقاً عميقاً، ثم نصبوا عليها المنجنيقات وابتداؤا بالقتال، وقاتلوا قتالاً شديداً من الجانبين، ولما رأى المغول انه لا يمكنهم اخذ المدينة بالقتال ابطلوه وحاصروها ومنعوا الناس من الدخول اليها والخروج منها، ثم ارسل هولاكو سفراء الى الملك الناصر صاحب حلب برسالة يقول فيها : ليعلم الملك الناصر اننا نزلنا بغداد في سنة ٦٥٦ هـ ويروى ٦٥٧ او ٦٥٥، وفتحناها بسيف الله تعالى، واحضرنا مالكها وسألناه مسئلتين فلم يجب سؤالنا، فلذلك استوجب منا العذاب كما قيل في قرآنكم : ان الله لا يغير ما

بقوم حتى يغيروا ما في انفسهم، وصان المال، فآل الدهر به الى ما آل، واستبدل النفوس النفيسة، بنقوش معدنية خسيسة. وكان ذلك ظاهر قوله تعالى : وحدوا ما عملوا حاضراً، لاننا قد بلغناه بقوة الله والارادة. ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة. ولا شك انا جند الله في ارضه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه، فليكن لكم في ما مضى معتبر، وبما ذكرناه وقلناه مزدجر. فالحصون بين ايدينا لا تمنع، والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع. فاتعظوا بغيركم، وسلموا الينا اموركم قبل ان ينكشف الغطا، ويحل عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من شكا، ولا نرق لمن بكى. قد اخربنا البلاد، وافنينا العباد، ويتمنا الاولاد، وتركنا في الأرض الفساد. فعليكم الهرب، وعلينا بالطلب. فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من سهامنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وعقولنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فمن طلب منا الامان سلم، ومن طلب الحرب ندم. فان انتم اطعتم امرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا وان انتم خالفتم امرنا وفي غيكم تماديتم فلا تلومونا ولوموا انفسكم، فالله عليكم يا ظالمين. فهيئوا للبلايا جلباباً وللرزايا اتراباً، فقد اعذر من انذر، وانصف من حذر، لانكم اكلتم الحرام. وخنتم الايمان، واظهرتم البدع، واستحسنتم الفسق بالصبيان، فابشروا بالذل والهوان. فاليوم تجدون ما كنتم تعملون، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون. فقد ثبت عندكم اننا كفرة، وثبت عندنا انكم فجرة، وسلطنا عليكم من بيده الامور مقدرة، والاحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا حقير، وغنيكم لدينا فقير، ونحن مالكون الارض شرقاً وغرباً، واصحاب الاموال سلباً ونهباً، واخذنا كل سفيه غصباً، فميزوا بعقولكم طرق الصواب قبل ان تضرم الكفرة نارها. وترمي بشرارها، فلا تبقي منكم باقية، وتبقى الأرض منكم خالية. فقد ايقظناكم حين راسلناكم، فسارعوا الينا برد الجواب بتة، قبل ان يأتيكم العذاب بغتة، وانتم تعلمون. وطلبه ليحضر اليه. ولما شاور الملك الناصر الامراء لم يمكنوه من المشي الى هولاكو، وبقي متحيراً خائفاً مذعوراً لم يدر ما يصنع، غير انه استخار الله وسير ولده الملك العزيز وصحبته الاموال الكثيرة والهدايا والتحف، وبقي هناك من اوائل الشتاء

الى الربيع، ثم عاد الى ابيه قائلاً : قد قال ملك الأرض نحن للملك الناصر طلبنا، لا لولده، فالان ان كان قلبه صحيحاً معنا يجيء الينا، والا فنحن نمشي اليه. فلما سمع الملك الناصر ذلك بقي متردداً في رأيه لأن الامراء لم يمكنوه من المشي اليه، وهو قد وقع عنده الخوف والجزع ولم يطمئن على القعود. ثم سير هولاكو في طلب سلطان الروم عز الدين واخاه ركن الدين، فاطاعاه ومشيا اليه واحسن قبولهما، والتقاهما مرحباً بهما فرحاناً. وقدم اليهما بان عز الدين يتملك على قيسارية الى تخوم ارمينية الكبرى، وركن الدين يتملك من أفسرا الى ساحل البحر الى حدود الافرنج. ثم انه بعد ذلك توجه الى الشام، وتوجها في خدمته الى قرب الفرات، وعادا الى بلادهما مسرورين مغبوطين.

وفي هذه السنة توفي السلطان الملك الرحيم بدر الدين ابو الفضائل لولو صاحب الموصل لعشرين يوماً مضت من شهر تموز (يوليو) وتولى ولده الملك الصالح اسماعيل الموصل وولده علاء الدين سنجار وولده سيف الدين الجزيرة.

وفيها دخل هولاكو ايلخان الشام ومعه من العساكر اربعماية الف ونزل بنفسه على حران وتسلمها بالامان، وكذلك الرها ولم يدن لاحد فيها بسوء. واما اهل سروج فانهم اهملوا امر المغول فقتلوا عن اقصاهم. وتقدم هولاكو ونصب جسراً على الفرات قريباً من مدينة ملطية، واخر عند قلعة الروم واخر عند قرقيساء، وعبرت العساكر بجملتها وقتلوا عند منبج مقتلة عظيمة. ثم تفرقت العساكر على القلاع والمدن، ونفر قليل من العسكر طلب حلب فخرج اليهم الملك المعظم ابن صلاح الدين الكبير فالتقاهم وانكسر قدام المغول ودخل المدينة منهزماً. وفريق منهم وصل الى المعرة وخربوها، وتسلموا حماة بالامان وحمص ايضاً. فلما بلغ ذلك الملك الناصر اخذ اولاده ونساءه وجميع ما يعز عليه وتوجه منهزماً الى برية الكرك والشوبك، وعندما وصلت المغول الى دمشق خرج اعيانها اليهم وسلموها لهم بالامان، ولم يلحق باحد منهم اذى. واما هولاكو فإنه نزل بنفسه على حلب وحاصرها، وفي اليوم الثامن ملكها، وقتل فيها اكثر مما قتل في بغداد. ثم رحل عنها واحاط بقلعة الحارم وطلب ان يسلموها اليه فيؤمنهم على انفسهم، فلم يثقوا لقوله وانما

طلبوا منه رجلاً مسلماً يحلف لهم بالطلاق وبالمصحف ان لا يدنو لاحد منهم بسوء، فسألهم هولاكو من تريدون ان يحلف لكم فاختاروا فخر الدين الوالي بقلعة حلب لأنه رجل صادق، فتقدم هولاكو اليه وحلف لهم على جميع ما يريدون ففتحوا له الابواب، وتسلم القلعة. ثم ان هولاكو تقدم وقتل فخر الدين اولاً ثم قتل جميع من كان في القلعة كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً حتى الطفل الصغير في المهد، ورحل هولاكو من هناك عائداً الى البلاد الشرقية. ورتب في الشام اميراً كبيراً يسمى كتبوغا ومعه عشرة الاف فارس. ولما وصل الى تل باشر وصلت العساكر التي حاصرت ميافارقين ومعهم الاشرف صاحبها، فأخذوها وقتلوا كل من فيها، ولم يبق منها الا اشخاص قليلون لأنهم هلكوا وماتوا جوعاً وقتل الاشرف صاحبها، وبعد ذلك ندم هولاكو على قتله. ثم انه ولى عليها رجلاً اميراً من امراء الاشرف يسمى عبد الله، ولما وصل هولاكو قرب ماردين سير يطلب صاحبها اليه فابى. ولم ينزل اليه بل سير ولده مظفر الدين لانه كان في خدمة هولاكو هو والملك الصالح ابن السلطان بدر الدين لما كان بالشام، ثم احاط بها هولاكو. وحينئذٍ وقع فيها الوباء ومات السلطان واكثر اهلها، فسلم ابنه اليهم القلعة والخزائن والاموال. ولما بلغ ذلك الملك الناصر صاحب دمشق والملك الاشرف صاحب حمص ذلت قلوبهم وكثر خوفهم، فارسلوا اولادهم واموالهم الى الديار المصرية، واحتملوا مشقة عظيمة في الطريق من الامطار، ثم ان اكابر دمشق وحماة ارسلوا مفاتيح المدن الى هولاكو الى حلب، فارتضى منهم وارسل نوابه وجماعة من المغول وامرهم ان يحسنوا اليهم ولا يعارضوهم بشيء. واما الذين كانوا في قلعة دمشق فقصدوا الحصار او حاصرها التتر ورموها بعشرين منجنيقاً على برج الضاهرية فتشقق البرج، وعند ذلك طلبوا الامان فتسلمها المغول. وفي ذلك الوقت ورد الخبر الى هولاكو ان اخويه قوبلاي واريغبوكا يتقاتلان فاضطر هولاكو ان يترك بلاد الشام ويسير الى بلاد العجم، وارسل كتبوغا نائباً على الجيش، فملك بعلبك ونابلس وغزة. واخرب التتر قلعة بعلبك وقلعة عجلون واستولوا على سائر بلاد الشام، واما الملك الناصر فكان قد ارسل يطلب نجدةً من صاحب مصر فلم يجبه فهرب من غزة قبل وصول المغول، وسار معه اخوه الضاهر غازي

والصالح بن شيركوه لانهما كانا خدماه، فاعطاهما الامان، وامرهما ان يهدما جميع القلع بيدهما واسوار المدن، فلم يهدما منها شيئاً. ثم ان السلطان المظفر جمع العساكر المصرية ومن وصل اليه من البلاد الشامية مع التركمان والشهرزورين وخرج في العساكر لحرب التتر. قال صاحب التاريخ ولما وصل التتر الى الغور (غوربيسان) تقارب الجمعان على عين جالوت من ارض كنعان بالقرب من بيسان واشتد القتال بينهم، فكانت الكسرة على الترك وعمل السيف فيهم. وقتل كتبوغا واستئسر ولده وتشتت العسكر، وكانت هزيمتهم لجهة الشرق. فالتقاهم بيبرس البندقدار وقتل منهم خلقاً لا يعد، ولم يصب التتر كسرة اكبر من هذه منذ خرجوا من الشرق الاقصى لأن جيشهم كان يزيد على اربعمائة الف. وكان معهم نحو ثلاثمائة طبال، فلم يسمع لهم صوت في وقت الحرب لعظم صوت الرجال والخيل. وكان هولاكو قد ظفر في الخوارزمية وكيلان وملوك فارس وخراسان وملوك الروم واصبهان والعراقين وبغداد وملوك الجزيرة والموصل وحلب، وبثمانية اشهر استولى على جميع هذه البلدان. ولما عرف هولاكو بكسرة جيشه وقتل كتبوغا ارسل فقبض على الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب وقتله، وكان الملك الناصر ذا كرم وحلم وشجاعة. وكان قد تولى على حلب والشام ثلاثة وعشرين سنة، وزالت بعده دولة الايوبيين من بلاد الشام. وكانت مدة تملكهم في الديار المصرية والشامية اثنين وثلاثين سنة وعدد ملوكهم عشرة اولهم صلاح الدين يوسف. واخرهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف وكان ذلك من الاتفاقات العجيبة ان يكون اسم الاخر كاسم الاول كما كان في دولة بني امية اولهم معاوية واخرهم معاوية، وكذلك في بني العاص اولهم مروان واخرهم مروان. ومثله الفاطميون اولهم عبد الله واخرهم عبد الله.

واما الملك المظفر فعندما ظفر بالتتر امر بالقبض على الملك السعيد ابن العزيز صاحب بانياس والصبيبة وضرب عنقه، وكذلك فعل بالملك تورنشاه نائب حلب الذي هو آخر أولاد الملك الناصر فأمر بقتله وقتل كل من التف على التتر. واحسن الى الذين قاتلوهم مثل الملك الاشرف موسى صاحب حمص فاكرمه وقرر له حمص واعمالها، ونائب حماة الملك المنصور أنعم

عليه وقرر له أعمال حماة وماردين والمعرّة. وبعد ذلك سار الملك المعظم الى دمشق وقتل كل من التفّ على التتر، وقتل من نصارى دمشق جماعة كثيرة فنهبوا دورهم واحرقوا كنائسهم، لانه قيل لهم ان هولاكو كان نصرانياً. ورتب الملك المظفر على دمشق واعمالها نائباً الامير علم الدين الحلبي الصالحي، ووجه الى حلب ابن نائب الموصل. وولى في سائر البلاد الشامية الولاة والنواب. ثم انه رجع الى الديار المصرية. ولما وصل الى الغربي غدر به بيبرس البندقداري وضربه بالسيف فخلع كتفه، وقضي عليه في سابع ذي الحجة. وكان الملك المظفر رجلاً شجاعاً، وكان محباً للرعايا.

الفصل الخامس

في حكم الملك الضاهر بيبرس البندقداري وهو الرابع من ملوك الترك

وتملك بعده بيبرس البندقداري وتلقب بالضاهر وهو الرابع من ملوك الترك في الديار المصرية، واما الامير علم الدين فحينما استنيب على دمشق امر ببناء القلع وما هدمه التتر، وجمع اكابر دولة دمشق وحلفهم لنفسه في السلطنة ولقب بالملك المجاهد، وخطب له في دمشق، وضربت باسمه السكة. وفي هذه السنة ثارت الفتنة بين البنادقة والجنويين بمدينة عكا.

وفي السنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م ارسل الملك الضاهر عسكر مصر مع علاء الدين البندقداري لقتال سنجر صاحب دمشق، فظهر له سنجر في ثالث عشر صفر فانكسر وهرب الى قلعة بعلبك، فحاصرها عسكر الضاهر وفتحها وقبض عليه، ثم بعد مدة اطلقه (وقد نقش الملك الضاهر تاريخ افتتاحه قلعة بعلبك في بناء جديد اضافه اليها فوق هيكل الشمس الشهير فوق السلم اللولبي الشهير ولا تزال موجودة الكتابة للآن واضحة هناك). واناب عنه في تدبير دمشق ايوجين البندقداري الصالحي. وتمت الخطبة للملك الضاهر بدمشق وحماة وحمص وحلب وغيرها. وفي ثامن رجب قدم الى مصر عرب العراق برجال سمر الالوان والمقدم عليهم اسمه احمد، وقد تحقق انه ابن الظافر لدين

الله محمد ابن الملك الناصر، وهو عم الملك المستعصم بالله وكان مسجوناً في بغداد مع جماعة من بني العباس. فلما تملك التتر بغداد اطلقوه فسار الى مصر، وخرج السلطان والقضاة والامراء الى لقاه، والعامة من المسلمين خرجوا ولاقوه بالقرآن والنصارى بالانجيل واليهود بالتوراة. ودخل الى قلعة الجبل وقرأ نسبه، وشهدوا له وبايعوه بالخلافة. وتلقب باسم اخيه المستنصر بالله جعفر المنصور. وكانت العامة تلقبه الزرانيني وهو الثامن والثلثون من خلفاء بني العباس بعد ما لبثوا ثلاث سنين ونصف بغير خليفة. ثم في مستهل شعبان قلد الخليفة السلطنة للملك الضاهر وقصد التوجه الى بغداد فسار معه السلطان الى الشام، ومن هناك توجه الخليفة ومعه اولاد صاحب الموصل، فاستولى على رحبة وعانة فبايعه اهلهما، ولما قرب من بغداد وثب عليه التتر وقتلوه وقتلوا اصحابه ونهبوا جميع ما معهم. وكانت مدة خلافته خمسة اشهر وعشرين يوماً. وفيها دخل المغول الى الشام ورئيس عساكرهم امير يسمى كوكالكي ودخلوا الى قرب حمص، ونهبوا وسلبوا وقتلوا خلقاً كثيراً وعادوا الى حلب. وكان قد انهزم جميع اهل القرى الى حلب فامر كوكالكي ان يخرجوا اهل القرى والمدن الى ظاهر البلد، وينعزل اهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدونهم ويسيرون كل قوم الى مكانهم ووطنهم، وتسلمهم المغول كأنهم يسيرونهم الى ضياعهم، وكانوا عندما يبعدونهم يقولون لهم انتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمتم من قدامنا فقتلوهم عن اقصاهم، ولم يفلت منهم غير اهل حلب لأنهم لم ينتقلوا عنها. وعاد المغول وخرجوا من الشام، ثم عاد المصريون وتملكوا الشام. وفي هذه السنة كانت وفاة الامير عامر الشهابي وتولى بعده ولده الأمير قرقماز وهو ابن جارية رومية ولم يخلف الامير عامر ولداً ذكراً غيره.

وفي السنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م قدم الى مصر ابو العباس احمد فاحتفل الملك الظاهر به وانزله بالبرج الكبير داخل القلعة، وبويع له بالخلافة وتكنى بالحاكم بامر الله بحضرة السلطان واعيان الناس، وهو التاسع والثلثون من خلفاء بني العباس، وقيل ان المبايعة كانت يوم الخميس تاسع محرم سنة ٦٦١ هـ واقام بمصر مدة حياته. وهو الثاني من الخلفاء العباسيين في الديار

المصرية والتاسع والثلثون منهم. وفيها ملك الملك الضاهر البيرة وتسلم الكرك من الملك المغيث واعطاه عوضها خبز مائة فارس بمصر، ثم بعد مدة اعدمه. وفيها قدم بين يدي الملك الظاهر مولود عجيب وهو ميت له رأسان واربعة اعين واربعة اياد واربعة ارجل فامر بدفنه. وفيها توفي كمال الدين المعروف بابن القديم الحلبي وله تاريخ مختص بحلب مشهور. وفي اخر هذه السنة هدم الملك الظاهر كنيسة الناصرة وغار على عكا وبلادها، وهدم البرج الذي خارج البلد، ورجع بغنائم كثيرة. وفيها توَّج الملك الظاهر ولده سعيداً وعمره خمس سنين.

وفي السنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م سار الملك الضاهر من الديار المصرية الى جهاد الافرنج بالسواحل فنازل قيسارية الشام (تمييزاً لها عن قيسارية الاناضول وهي الواقعة بين يافا وحيفا) وفتحها وهدمها في تاسع جمادي الاول. وفيها خرج الملك الضاهر بعساكره الى الشام وجهز عسكراً وارسله الى ساحل طرابلس الشام، ففتحوا القليعات وعرقا ونزل الملك على صفد وضايقها بالهجوم وبآلات الحصار، وكان اكثر القتل والجرح في سكانها المحاصرين من المسلمين، ففتحها في تاسع عشر شعبان وقتل اهلها عن آخرهم. وكانت مدة حصار الافرنج بها اربعين يوماً. ثم جرد العساكر الى بلاد الارمن وكان المقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماة، فداست العساكر الاسلامية بلاد سيس وعادوا بغنائم كثيرة. ولما هم الملك الضاهر بالرجوع الى مصر مر في طريقه على الكرك، فقنطرت (اي عثرت وكبت) به فرسه، فانكسر فخذه عند بركة زيرا وصار يعرج. ثم ان الملك امر بنهب قارا واستباحها عسكره وهي بين دمشق وحمص في الجبل الشرقي بقرب النبك ودير عطية لان سكانها كانوا نصارى، وكانوا يسرقون المسلمين خفية ويبعونهم للافرنج، فقتل منهم جماعة واخذت صبيانهم مماليك وتربوا بين الاتراك في مصر. وصار منهم اجناد وامراء، وكان عدد المسببين الف نفس. وفيها وقيل في سنة ٦٦٤ هـ توفي ملك التتر هولاكو ابن جنكيزخان وهو الذي اباد الامم بفارس وخراسان والرها واصبهان وقسم وقاشان والعراق

وبغداد والموصل والجزيرة وديار بكر وحلب. وكان نصرانياً ذا سطوة شديدة وهيبة عظيمة وحزم وخبرة في الحروب، ومات بمدينة مراغة بعلة الصرع.

الفصل السادس

في حكم أبافا ايلخان وهو الملك الثاني من ملوك التتر

انه بالحقيقة ملك ملك اخر قبله في زمن هولاكو مدة وهو قوبلاي قآن وقد نازع اخاه سبع عشرة سنة على المملكة ثم تملكها وغلب اخاه ولم تطل مدة ملكه اذ بقي قسم من المملكة بيد هولاكو وكان قوبلاي هذا اظهر العدل وحسن الدراية والتدبير والكفاية وكان يحب الحكماء والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والامم، وكان معتدلاً في شهواته معتدلاً في استعمال الشراب واللذات واللهو ولم يتناول من اللحوم الا الطفها. ثم انه بعد موت هولاكو اجتمع الاولاد والامراء والخواتين واتفقوا على تنصيب أبافا ابن هولاكو على كرسي المملكة لانه ذو عقل وعلم ودراية. ولما جلس وتمكن كان سعيداً منصوراً في جميع حركاته وسكناته محبوباً من جميع الخلق. وكان هولاكو قد سير رسلاً بطلب ابنة ملك القسطنطينية ليخطبها لنفسه، فلما اخذها الرسل وخرجوا بها ووصلوا الى قيسارية (يراد بها قيسارية اسيا الصغرى) بلغهم خبر موت هولاكو ولم تتمكن من الرجوع الى بلادها فوصلت الى ابنه ابافا فدخل عليها. وفيها وصل البرليغ (اي الفرمان او الامر) من ابافا الى بغداد بان علاء الدين صاحب الديوان يكون حاكماً مطلقاً لا يكون فوق يده يد. وكانت شحنة بغداد قرابوغا ونائبه اسحق الارمني يرومان اذيته، فانكفئا عنه وصارا يتحيلان له بأذى وعندما افتضح امر اسحق الارمني قتل.

يذكر بارونيوس انه بهذه السنة سار السلطان لويس ملك فرنسا الذي ظهر فيما بعد قديساً بعساكر وافرة الى مدينة قرطاجنة التي خراباتها بقرب موقع مدينة تونس، وحاصر المدينة فحدث مرض عظيم ووباء ثقيل في عساكره، ومات الملك لويس بمرض الزحير فرجعت عساكره الى فرنسا وجسده معهم في تابوت.

وفي السنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م توفي الشيخ شهاب الدين احمد ابو شامة المقدسي عالم دمشق وشيخها وله جملة تصانيف. وفيها افتتح الملك الضاهر يافا وهدمها وهدم قلعتها، وملك الباشورة. وفي ثامن عشر رجب سار قاصداً قلعة الشقيف ونزل تحتها بوادي العواميد وحاصرها فوجدها منيعة حصينة جداً ثم رحل الى اعلاها فلم يقدر عليها. حينئذ يقول ابن الحريري انه اكتشف على مائها، فلما كان الليل واهل القلعة نيام ذبح في الماء عدة من الغنم والبقر ورمى كروشها في الماء بعدما قطعها، فلما اصبح الصباح وجدوا مائهم منتناً وهو دم عبيط، فسلموا بعد حصار عشرة ايام. ويقول ابن سباط انه بعد حصار عشرة ايام ظفر الملك الضاهر بكتاب من الافرنج الذين بعكا مرسل الى النواب في الشقيف يعلمهم وينبئهم على اماكن يخاف على الحصن منها، فكتب فيه الكمندور المقيم في الشقيف ليتحذر من الوزير، وكتب مكتوباً آخر في اللغة الافرنجية الى الوزير وحذره من الكومندور ويأمره بأنه اذا احتاج الى دراهم يأخذ من فلان وسمى شخصاً كان اسمه في الكتاب، واحتال في توصيل الكتابين اليهما، فلما وقفوا على الكتب اختلفوا والجاهم الخلف الى ان كاتبوا الملك الضاهر بتسليم الحصن ولا يقتل احدٌ منهم. فتسلمه يوم الاحد وهو التاسع والعشرون من شهر رجب، فوجد فيه اربعة وثمانين رجلاً واثنين وعشرين امرأة، فركَّبهن على الجمال وارسلهنَّ الى صور، وارسل معهن من يحفظهنَّ خوفاً ممن يؤذيهنَّ. ثم ارسل اثقال الحصن الى دمشق، ورتب عليها بعض اناس، ويسمى هذا الحصن شقيف ثيرون وهو اسم الرجل الذي بناه، وهو شرقي صيدا اي بينها وبين دمشق، وبعضها عمارة وبعضها في الشقيف، وهي حصينة جداً. ويوجد برج مبني على باب القلعة، وبالقرب منها على خمس فراسخ قلعة ارنون وهي ايضاً حصينة جداً. ثم شن السلطان الغارة على

بلاد طرابلس وقطع اشجارها وجعل انهارها تغور واخرب قراها، وحصّن حصن الاكراد، وسار الى انطاكية ونازلها بغتة مستهل رمضان، وهجمت العساكر على انطاكية، وافتتحوها في اربعة ايام بالسيف فقتلوا اهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منها اموالاً جزيلة. وكانت انطاكية للامير بيومند ابن بيومند وله معها طرابلس. وكان الامير مقيماً في طرابلس لما فتحت انطاكية، واحصي من قتل بانطاكية هذه المرة فبلغ اربعين ألفاً ونيف، واطلق الاسرى الذين كانوا فيها، ثم اخذ بفراس بالامان. وفيها سير البندقدار صاحب مصر الى حاتم ملك الارمن يطلب منه الدخول في طاعته وان يحمل الجزية ويمكن الناس من مشترى الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد من بلده، وهم ايضاً يخرجون الى الشام يتاجرون ويبيعون ويشترون، فلم يجب ملك الارمن الى ذلك خوفاً من المغول. فلم يتأخر البندقدار عن ارسال العساكر والفرسان الى بلاد الارمن، فلما تحقق ذلك حاتم ملك الارمن خرج الى بلاد الروم يطلب النجدة من أمير الغول المسمى نفجي، فأجابه انه لا يمكننا أن نفعل ذلك بدون أمر السلطان آبافا. وهجم المصريون على بلاد الارمن، ولكن ملكهم لم يكن حاضراً فاجتمع اخوته واولاده وامراؤه وجمعوا اتباعهم وخرجوا ليمنعوا المصريين من الدخول الى البلد، ولما التقوا بهم عند موضع يقال له حجر سروند انكسرت الارمن، واستؤسر ولد الملك حاتم، وقتل ولده توروس. وانهزم الامراء والعسكر ونهبوا وخربوا بيعة سيس الكبيرة، وكان الخراب العظيم في سيس واياس، واقاموا هناك مدة عشرين يوماً ينهبون ويحرقون ويسبون، وبعد خروجهم من البلد وصل الملك حاتم وقد اصحب معه عسكراً من المغول والروم فما وجدوا احداً بل البلد خراباً، واشتغلوا بالاكل والشرب ومدوا ايديهم وجمعوا جميع ما كان قد تخلف عن المصريين، وقد اتموا ذلك والملك مشتغل بالهمّ والغم على ما جرى على ولديه واصحابه وبلده وكانت المضرة منهم اشد واصعب.

وفي السنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م ارسل حاتم ملك الارمن الى الملك الضاهر يعرض عليه لاستفكاك ولده اموالاً ومدناً وقلعاً بدلاً عنه، فطلب الملك زيادة اطلاق سنقر الاشقر الذي كان اسيراً عند ابافا ابن الملك هولاكو فوجهه

الى الملك، وحين وصل ارسل له ابنه. وفي هذه السنة فتح الملك الضاهر حصون الاسماعيلية، وهي الكهف والقدموس والمنفية والعليقة. وولى على الاسماعيلية وهم الاكراد نجم الدين حسن ابن الموجراني (المشغراني)، وقرر عليه ان يحمل في كل عام مائة الف درهم الى الموجرة (مشغرة) وهي قرية كبيرة نزهة كثيرة المياه، وهي بسفح جبل لبنان بين صيدا ودمشق (على طرف سهل البقاع الجنوبي) وقيل انها مشغرة وهو الصحيح وهذه الحادثة رواها المؤرخون سنة ٦٦٨ هـ وليس سنة ٦٦٦.

وفي السنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م اخذ الملك الضاهر حصن الاكراد بالسيف. وفيها جهز مراكب لفتح قبرس فتكسرت في ميناء اللامسون واسر الافرنج من كان بالمراكب. وفيها توجه الملك الضاهر الى عسقلان في شهر صفر فهدم سورها ووجد فيها كوزين ملآنين ذهباً. وملك حصن عكا ونزل الى طرابلس وصالحه صاحبها على اشياء تقررت بينهما، وعقد الصلح الى عشر سنين. وفيها يوم الاحد الموافق ثاني عشر شوال وصل الى دمشق سيل عظيم اخرب كثيراً من البنايات وزاد السيل واخذ البيوت والدواب والاموال وارتفع حتى بلغ احد عشر ذراعاً، ودخل من باب الفراديس وكان ذلك في ايام التوت وشدة الحر والشمس طالعة. وفي هذه السنة لما افضت الولاية الى الامير قرقماز استخف به بنو عمه لحدته، وكانوا لا يطيعون له امراً ولا يحفظون له عهداً، ولا يعتبرون له مقاماً ولا يطيعون احكامه بل كان كل منهم يأمر وينهي من نفسه.

وفي السنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م جاء السلطان بالعساكر الى الشام. وخيم بين قيسارية وارسون فخرجت اليه الرسل يطلبون منه الصلح، وتقررت الهدنة مدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشر ساعات. وعاد الى مصر بسبعة ايام ورجع الى دمشق في خمسة ايام.

وفي السنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م بلغ الملك الضاهر ان امراء اعبيه كاتبوا الامير صاحب طرابلس، فغضب عليهم وارسل واخذ زين الدين وجمال الدين وسعد الدين واعتقلهم بسجن مصر، وسبى حريمهم وضبط ارزاقهم. وفي هذه السنة ظهر نجم عظيم في ربيع الاول وكان يظهر عليه شعاع باهر وشرار

عجيب ويتبعه ثلاثة شهب، فكان يضيء في الليل مثل القمر ويبقى الى الصباح. ثم غاب بغتة في ليلة واحدة.

وفي السنة ٦٨٤ هـ = ١٢٧٥ م كانت وفاة الملك الضاهر ركن الدين الصالح النجمي التركي البندقداري في دمشق، وكانت مدة تملكه سبع عشرة سنة وشهرين. فكتموا امره خوفاً من ان يغزو احد مصراً ويغلبها، فأخذوا جسده من الشام الى مصر، وكان مقدم العسكر بدر الدين الخزندار، فمشى في اول موكب، ثم وصلوا وصعدوا بجسده الى القلعة من باب السر ليلاً، وعند دخوله قبل الارض وطرحه قدام ولده السعيد وعزاه.

الفصل السابع

في حكم الملك السعيد محمد ابو العلاء وهو الخامس من الاتراك

فجمع بدر الدين الامراء والمقدمين والجند وحلفهم بلزوم مبايعة الملك السعيد محمد ولقب بأبي العلاء وكان الملك الضاهر ملكاً جليلاً شجاعاً عادلاً فتح الفتوحات الجليلة بعد استيلاء الافرنج عليها، واستخلص سيس وسرستان والدراكيش وبلميس وكفردين ورعبان والمرزبان من صاحبها. وكان حدود ملكه من اقاصي بلاد النوبة الى قاطع الفرات وبنى بنايات في بلاد الشام ما لم يُبْنَ في بلاد الخلفاء ولا الملوك الايوبين وغيرهم من المساجد والحصون وبالاخص ما كان هدمه التتر، وجدد قبر سيدنا نوح في مدينة الكرك (شمالي معلقة زحلة) من أعمال بعلبك. وقد جمع الشيخ شمس الدين الذهبي سيرته التي الفها ابن عبد الطاهر وابن شداد في مجلدين ضخمين. ويذكر ابن سباط في تاريخه ان سبب موت الملك الضاهر انه استدعى الملك القاهر الايوبي وسم خمراً وامر الساقي ان يسقيه اياها ففعل كذلك. ثم أن الملك الضاهر شرب في تلك الكأس على اثر شرب الملك القاهر ناسياً، فمات بدمشق بالقصر الابلق بجوار الميدان الاخضر. وكان عمره حين توفي ثلاثة وأربعين سنة. وبعد تولي ولده سعيد اعتق الامراء الذين سجنهم والده في مصر حين احرق عسكر الشام بلاد الغرب في جوار بيروت، وكان السبب انه استقطع قطب الدين النيسابوري كفر عميه ثم قتل بها. فاتهم بقتله نجم الدين محمداً

ابن حجي التنوخي، وقيل لانهم كاتبوا صاحب طرابلس الافرنجي. وفي هذه السنة تعاهدت الامراء آل شهاب وهم الامير محمد والامير جابر ابنا عم الامير خالد والامير سليمان ابن الامير منقذ ان يغدروا بالامير قرقماز وينزعوه عن الولاية واتفقوا على ذلك سراً، وحين بلغ الامير قرقماز ما اتفقوا عليه اخذ يفتكر بنفسه كيف يجد فرصة يقضي بها عليهم. ثم في بعض الليالي بلغه ان اولئك الامراء مجتمعون في دار الأمير سليمان فجمع اليه من خواصه من يعتمد عليهم ونهض مسرعاً بخمسة عشر رجلاً من غلمانه وسار بهم سراً الى دار الامير سليمان وقصد الحجرة التي كان الامراء مجتمعين بها، فوجدهم يتشاورون في النهوض عليه. فاستل سيفه ودخل على الامراء بغتة ولم يشعروا الا والامير قرقماز واصحابه فوق رؤوسهم، وقبضوا على الامراء الثلاثة المقدم ذكرهم فذبحهم بيده، ولم يشعر احد الا بعد انقضاء الامر. ولما رجع الامير قرقماز الى داره احضر باقي غلمانه وامرهم ان يسيروا الى منازل اتباع اولئك الامراء ويقبضوا على البعض من اصحاب المشورة منهم. فلما ظهر النهار دعا باقي امراء بني شهاب واخبرهم بان الامير سليمان والامير جابر والامير محمد كان مرادهم ان يغدروا به فسبقهم الى ذلك. فقالوا له انت تعلم محبتنا لك واننا بريئون من هذه الامور، فامنهم على انفسهم وامر بضرب اعناق عشرة من اتباع اولئك الامراء المقتولين واطلق باقي المسجونين.

وفي السنة ٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م كانت سنة اختلاف بين طوائف الكرج، وبين التتر والعرب، وبين العرب وبين الفلاحين، وبين الافرنج الذين داخل البحر، وبين صاحب طرابلس وبين صاحب جبيل والزاوية، وصار الاختلاف العظيم بين الافرنج وغار بعضهم على بلاد الاخر، وقتل منهم جماعة كثيرة واختلف ايضاً عسكر الملك السعيد حتى أنهم قاموا عليه وخلعوه وحاصروه في قلعة مصر اياماً، وقطعوا المياه عنه وعملوا فيه محضراً، ثم نزل عن حكمهم واعطوه الكرك عوضاً عن الديار المصرية والبلاد الشامية، واستمر في الكرك الى ان توفي في ذي القعدة في السنة المذكورة.

الفصل الثامن

في حكم دولة الملك السعيد بدر الدين سلامس وهو السادس من ملوك الترك

ثم اقاموا بعده الملك السعيد اخا الملك العادل بدر الدين سلامس وعمره سبع سنين. وهو السادس من ملوك الترك في الديار المصرية وكان اتابك العسكر الامير سيف الدين قلاوون الصالح، وخطب لهما معاً وضربت السكة باسمهما. ثم ان امراء دمشق قبضوا على نائبها عز الدين الامير الظاهري، واقاموا بدله الامير شمس الدين سنقر الاشقر على نيابة دمشق، والامير اقوش الشمسي نائباً على حلب. وفيها تقرر على الكرك نجم الخضر ابن الملك الضاهر، ولقبوه بالملك المسعود. واما سنقر الاشقر نائب دمشق فركب في ذي الحجة وفي خدمته الامراء وساق من دار السعادة، وهجم على القلعة وكان نائبها لاجين المنصور، وجلس على تخت الملك، وحلف له الامراء وتلقب بالملك الكامل، ودقت له البشائر وخطب له بدمشق.

الفصل التاسع

في حكم سيف الدين قلاوون وهو السابع من ملوك الاتراك

وبعد اربعة اشهر وثلث. يوم الاحد في ١٢ رجب تبوأ قلاوون عرش السلطنة وخلع سلامس وتلقب بالملك المنصور.

وفي السنة ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م جهز السلطان قلاوون جيشاً من مصر لحرب سنقر الاشقر، وكان مقدم هذا الجيش علم الدين سنجر. وجمع سنقر اهل البلاد الفلاحين والعربان وقطع ما حول دمشق من الجسور (الكباري) وجمع جيشاً كثيراً الا انهم ما كانوا معه في الباطن. وفي سابع صفر اجتمع الفريقان خارج دمشق عند الجسور، فانكسر عسكر الشام وانهزم سنقر الاشقر الى حمص ومعه امراء العرب ابن مينا وعيسى ابن مهنا الحياري. واما عسكر مصر فدخل القلعة وامَّن الناس وقبض على الذين اطاعوا سنقر. وجاء مرسوم من السلطان بالصفح عن الكل، وناب بدمشق بكتون علاء الدين. وبعد شهر جاء التقليد بنيابة دمشق لحسام الدين لاجين، واستقر سنقر بقلعة صهيون وما جاورها، ثم وقع الصلح بينه وبين السلطان قلاوون على ان يكون له كفرطاب وانطاكية وافامية والشغر وبكاس وصهيون وبلاطنس وبرزية وجبلة واللاذقية والسويدية ودراكيش، وان يقيم عليها ستماية فارس، وانتظم الصلح على ذلك، ودخل سنقر تحت القلعة وعفا عنه السلطان. ثم ان سنقر الاشقر ارسل يستنجد بالتتر وملكهم ايضاً، فوردت الاخبار ان التتر قصدت بلاد الشام

فهربت اهل حلب وحماة وحمص والبلدان الشامية الى جهات دمشق وبعلبك. ولم يتخلف الا من عجز عن السفر.

وفي السنة ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م اقبل التتر كالسيل بقيادة ابغا ابن هولاكو وعبروا الفرات فجفل الخلق منهم، وكان السلطان قلاوون الملك المنصور بدمشق فخرج ومعه العساكر، وحضر الى خدمته سنقر الاشقر فاحترمه السلطان ورفع قدره. وكان اجتماع العسكر شمالي حمص نهار الخميس في رجب وكان جيش السلطان يقارب خمسين الفاً، وعسكر التتر ثمانين الف فارس ما عدا الانصار، وثبت السلطان ودام الحرب الى ما بعد العصر. وثبت الفريقان وكثر القتل، وآخر الأمر نصر الله المسلمين وركبوا اقفية التتر وبقي السلطان واقفاً في نحو الف فارس حتى المساء، وقد رجعت التتر وكسروا الميسرة فمروا بالسلطان والطبول تضرب، ولما قربوا منه حملت الخاصكية عليهم فانهزم التتر وذهبت فرقة الى سلمية وفرقة الى الوستين بأسوأ حال. ثم نزل السلطان بعد هدوء الليل مؤيداً ومظفراً ومنصوراً. ووصل الخبر الى دمشق مصباح الاحد بعد ان عاين اهل دمشق من نصف الليل الى الصباح سكرات الموت، وتودعوا من أهلهم واولادهم واحبابهم. ولما ورد الخبر زينت البلاد وعاشت العباد بهذا النصر العظيم، وقتل نحو مايتين من عسكر المسلمين منهم ازرم الرومي، وشهاب الدين نوفل ونصر الدين الكامل، وعز الدين ابن النظر. ومات من الاعداء منكوتمر من طعنة اصابته، ومات ابافا ايلخان بعده بشهرين. وكان كافراً سفاكاً للدماء مات بهمدان وعمره نحو خمسين سنة. وكان من الفرسان في هذه الوقعة مثل البيسري، والامير سنقر الاشقر، والامير علاء الدين بيبرس، وايدمش السعدي، وبكناش امير سلاح، وطارنطلي المنصوري، ونائب الشام لاجين وهو الذي جرح منكوتمر. وكان من العرب مهنا الحياري واولاد عمه، وامراء الجبال ما عدا بيت التنوخ فلم يحضروا هذه الوقعة.

الفصل العاشر

في تملك السلطان احمد وهو الرابع من ملوك المغول

(لما توفي ابافا ايلخان اجتمع الاولاد والامراء وحصل الاتفاق بينهم على مبايعة احمد ابن هولاكو من قوتاي خاتون كونه صالح للملك كما سيأتي).

وفي السنة ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م احترق في دمشق سوق اللبادين والكتبيين وسوق الزجاج والصاغة، وجميع ما فوق تلك الاسواق وما تحتها من القيساريات، وكان حريقاً مهولاً ذهب فيه من الاموال ما لا يحصى، وسلم الله الجامع، ثم بُني ذلك كله في سنتين مع الملازمة. وفيها توفي الامام الاوحد العالم الحافظ قاضي القضاة شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن سابي بكر بن خلقان بن باوك بن برملك البرمكي الشافعي الاربدي، مولده باربد، وتولى على القضاء بمصر، ثم صار قاضياً بدمشق. وكان من العلماء المشهورين له معرفة بالفقه والنحو والتاريخ والادب نظماً ونثراً، وصنف كتاب وفيات الاعيان وغيره، وله تاريخ كبير. وتوفي ثاني وعشرين رجب السنة المذكورة، ودفن بسفح قيسون وعمره اثنان وسبعون سنة.

وفي السنة ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م صارت في قبرس امطار زائدة وزلزلة حتى تشققت بعض الجبال، وتغيرت حدود الارض، وصارت وهاد عميقة عظيمة وظهرت ينابيع جديدة لم تكن اولاً، ومن زيادة السيل غرق الزرع وباد كثير من المواشي. وفيها حدث سيل عظيم بدمشق في ١٠ شعبان طلع على

جسر توما وارتفع على جسر باب الفرج نحو فامة واخرب مساكن كثيرة ومات خلق كثير، واباد اموالاً زائدة للناس، واقتلع شجراً كثيراً وكان عسكر سيف الدين قلاوون نازلاً بالقرب من نهر بردى فهلك من الخيل والعسكر وتلف من الخيم ما لا يحصى عده. ورحل السلطان سيف الدين قلاوون من الغد الى مصر. فقال بعض اهل دمشق في ذلك شعراً :

لو يدوم السيل يوماً واحداً لاتى الطوفان كالبحر المحيط

ليس هم من قوم نوح يا سما فاغلقي عنهم فهم من قوم لوط

وقد اخبر المؤرخ انه في هذه السنة وجد كتاب يخبر ان في شهر آذار (مارس) سارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشرة (بشري) شرقي طرابلس فصعد العسكر في وادي حيرونا وحاصر اهدن حصاراً شديداً، وبعد اربعين يوماً ملكوها في شهر حزيران (يونيو)، فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل. ونقلوا الى بقوفا وفتحوها في شهر تموز (يوليو) وقبضوا على اكابرها واحرقوهم في الاتون، ونهبوها وسبوا اهلها وهدموها الى الأرض. وبعد ما ضربوا بالسيف اهالي حصرون وكفرحارون في الكنيسة توجهوا الى الحدث (حدث الجبة) فهرب اهلها الى العاصي وهي مغارة عميقة. وبها صهريج (بركة) للماء فقتلوا الذين لحقوهم وخربوا الحدث. وبنوا برجاً قبال المغارة وابقوا به عسكراً يكمن لهم، ثم هدموا جميع الاماكن العاصية. واذ لم يقدروا ان يفتحوا قلعة حوقا التي قبال الحدث اشار عليهم ابن الصبحا من كفرسغاب بجر ماء النبع الذي فوق بشرة وتركيبه عليها، فملكوها بقوة الماء لانها داخلة الشير (الصخر العظيم) واذنوا لابن صبحا ان يلبس عمامة بيضاء يانس بها وان تقيم العبيد بخدمته. ولما رجع العسكر وتاب عن سوء فعله رجع الى الله، وقيل ان في هذه البلاد غرس الله فردوس عدن كما يقول حزقيال النبي ان ارز لبنان في فردوس الله، وانه عندما طرد منها ادم سكن ولداه قايين وهابيل شرقي الفردوس في البقعة وبنيا قلعة بعلبك، واستنبطا الطبول والزمور والات الطرب، وكان من نسل قايين قوم جبابرة وقصدوا الطرب وارتكبوا الفواحش وتدل على ذلك مدافن هابيل وقايين وشيث (النبي شيت في البقاع) الموجودة في هذه

النواحي. وفي هذه السنة توفي الملك المنصور محمد ابن المظفر الايوبي صاحب حماة وكانت مدة حكمه على حماة اثنين واربعين سنة، وتملك بعده على حماة ولده الملك المظفر محمود. وفيها توفي ابن هولاكو جنكيزخان (هو السلطان احمد)، وكان صاحب خراسان واذربيجان والروم والعراق وكان قد اسلم وهو صبي، ولما تملك بعد وفاة ابافا ايلخان ومنكوتمر ولدي هولاكو ارسل الى السلطان قلاوون في الصلح، وهو اول من اسلم من التتر. وفي هذه السنة ذكر ابن الحريري في تاريخه انه لما توفي ايلخان ملك التتر اجتمع اولاد هولاكو والامراء وحصل الاتفاق بينهم ان احمد ابن هولاكو من قوتاي خاتون يصلح لتدبير المملكة وهو اولى بها، فأجلسوه على كرسي الملك فاخرج من الخزائن الاموال وقسم على الاولاد والامراء والعساكر، واظهر الاحسان على جميع المغول وباقي الامم. وارسل الرسل الى سلطان مصر لاجل الصلح وكتب اليه رسالة يقول فيها (هذه نسختها) : بقوة الله تعالى باقبال قآان فرمان احمد. اما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان ارشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته. والاعتراف بوحدانيته. والشهادة لمحمد عليه الصلاة والسلام بصدق نبوته. وحسن الاعتقاد في اوليائه الصالحين من عباده في بريته. فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام. ويميل الى اعلاء كلمة الدين واصلاح امور الاسلام والمسلمين. وان الله قد افضى بعد ابينا الجيد واخينا الكبير نوبة الملك الينا وافاض علينا من جلابيب الطافه ولطائفه. ما تحقق به امالنا في جزيل الائه وعوارفه. وجلا هذه المملكة علينا. واهدى عقليتها الينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك وهو المجمع الذي تنقدح فيه آراء جميع الاخوان والاولاد والامراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد. واتفقت كلمتهم على ان ينفذ ما سبق به حكم اخينا الكبير في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الارض برحبها من كثرتهم. وامتلأت القلوب رعباً لعظم صولتهم. وشديد بطشهم الى تلك الجهة بهمة تخضع لها شُمّ الاطواد. وعزيمة تلين لها الصم الاصلاد. ففكرنا فيما مخضت زبدة عزائمهم عنه. واجتمعت اهواؤهم وارأؤوهم عليه. فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من انشاء الخير العام.

الذي يقوم بقوته شعار الاسلام. وان لا يصدر عن اوامرنا ما أمكننا الا ما يوجب حقن الدماء. وتسكين الدهماء. ويجري به في الاقطار رخاء نسيم الامن والامان. ويستريح المسلمون في سائر الامصار في مهاد الشفقة والاحسان. تعظيماً لامر الله. وشفقة على خلق الله. فالهمنا الله اطفاء تلك النار وتسكين الفتن الثائرة. والانتقام ممن اشار بذلك الرأي فيما ارشدنا الله اليه. من تقديم ما يرجى به شفاء العالم من الادواء. وتأخير ما يجب ان يكون آخر الدواء. واننا لا نحب المسارعة الى هز النصال للنضال الا بعد ايضاح الحجة. ولا نأذن لها الا بعد بيان الحق وثبوت الحجة. وقوي عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح. وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه الاصلاح. اذكار شيخ الاسلام قرَّة العارفين كمال الدين عبد الرحمن فهو نعم العون في امور الدين فاصدرناه رحمة من الله لمن دعاه. ونقمة على من اعرض عنه وعصاه. وانقذنا اقصى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين. وهما من ثقاة هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقنا. ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين كمال نيتنا وجميل سنتنا. وبينا لهم اننا من الله على بصيرة وان الاسلام يحب ما قبله. وانه تعالى القى في قلبنا ان نتبع الحق واهله. ويشاهدون عظيم نعم الله على الجميع بما دعانا اليه من تقديم اسباب الاحسان. ولا يحرمونها بالنظر الى سالف الاحوال. وكل يوم هو في شأن فان تظلمت نفوسهم الى دليل يستحكم به دواعي الاعتماد. سألوا حجة يتقون بها من بلوغ المراد. فلينظر الى ما قد ظهر من مآثرنا مما اشتهر خبره. وعم خيره واثره. فانا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى باعلاء اعلام الدين واظهاره في ايراد كل امر واصداره تقديماً. واقامة نواميس الشرع المحمدي. على قانون العدل الاحمدي اجلالاً وتعظيماً. وادخلنا السرور على قلوب الجمهور. وعفونا عن كل من اخترع سيئة واقترف. وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف. وتقدمنا باصلاح امور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس وعمارة بقاع البر والربط الدوارس. وايصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة الى مستحقها بشروط واقفها. ومنعنا ان يلتمس شيء مما استحدث عليها وان لا يغير احد شيئاً مما قدر اولاً فيها. وامرنا بتعظيم الحج وتجهيز وفده وتأسيس سبيله وتسيير قوافله.

واطلقنا سبيل التجار والمترددين الى البلاد وليسافروا حسب اختيارهم على احسن قواعدهم. وحرمنا على العساكر والشحنة في الاطراف التعرض لهم في مصادرهم ومواردهم. وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء كان سبيل مثله ان يهلك فلم نر اهراق دمه صيانة لحرمة ما حرمه الله تعالى. وانفذناه اليهم. ولا يخفى عليهم ما كان في انفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين. فان عساكرنا طال مارآهم في زي الفقراءوالنساك واهل الصلاح. فسإت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا. وفعلوا بهم ما فعلوا. ورفعت الحاجة بحمد الله تعالى الى ذلك بما صدر اذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم. فاذا امعنوا الفكر في هذه الامور وامثالها فلا يخفى عنهم أنها اخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية. واذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي النقرة التي كانت موجبة للمخالفة. فانها كانت بطريق الدين. والذب عن حوزة المسلمين. فقد ظهر بفضل الله ويمن دولتنا النور المبين. وان كان لما سبق من الاسباب. فمن يجري الان طريق الصواب. فان له عندنا الزلفى وحسن المآب. وقد رفعنا الحجاب بفضل الخطاب. وعرفنا ما عزمنا عليه من نية خالصة لله تعالى واتينا باستيفائها. وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها. ليرضى الله والرسول. ويلوح على صفائحها اثار الاقبال والقبول. وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الامة. وتنجلي بنور الائتلاف واللمة. ظلمة الاختلاف والغمة. فيسكن في سابغ ظلها البادي والغادي. وتقوى القلوب التي بلغت من الجهد الى الحناجر. ويعفى عن سائر الهفوات والجرائر. فان وفق الله تعالى سلطان مصر لما فيه صالح العالم. وانتظام امور بني آدم فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى. بفتح ابواب الطاعة والاتحاد. وبذل الاخلاص بحيث تعمر تلك الممالك والبلاد. وتسكن الفتن الثائرة وتغمد السيوف الباترة. وتحل الناس ارض الهوينا وروض الهدنة. وتخلص رقاب المسلمين من اغلال الذل والهون. وان غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة. ومنع عن معرفة قدرة هذه النعمة. فيعفو عن مساعينا وأُتلي عذرنا. وما كنا معذبين لله حتى نبعث رسولاً. والله الموفق للرشاد والسداد. وهو المهيمن على جميع البلاد والعباد وحسبي

الله ونعم الوكيل. كتب في اواسط جمادي الاول سنة ٦٨٢ هـ ويروى سنة ٦٨١.

فلما وصلت هذه الرسالة الى سلطان مصر رد الجواب الى السلطان احمد يقول به : من سلطان مصر سيف الدين ابي مظفر قلاوون. اما بعد حمد الله الذي اوضح لنا نباء الحق منهاجاً. وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله افواجاً. والصلوة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله على كل شيء نجا. وعلى آله وصحبه صلاة تنير ما دجا. ثم الرضا عن الامام الحاكم بأمر الله امير المؤمنين وسليل الخلفاء المهتدين. وابن عم سيد المرسلين. الخليفة الذي تتمسك ببيعته اهل هذا الدين. انه ورد الكتاب الكريم. الملتقى بالتكريم. والمشتمل على النباء العظيم. من دخوله في الدين. وخروجه عمن خالف من العشيرة الاقربين. ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المعلم. والحديث الذي صح عند اهل الاسلام اسلامه. واصح الحديث ما روي عن مسلم. وتوجهت الوجوه بالدعاء الى الله سبحانه وتعالى في ان يثبته على ذلك بالقول والعمل الثابت. وان ينبت حَب حُب هذا الدين في قلبه كما انبته في احسن المنابت. وحصل التأمل للفضل المبتداء بذكره من حديث اخلاص النية. في اول العمر وعنفوان الصبا والاقرار بالوحدانية. ودخوله في الملة المحمدية. بالقول والعمل والنية. والحمد لله على ان شرح صدره للاسلام. وألهمه شريف هذا الالهام. فحمدنا الله على ان جعلنا من السابقين الاولين الى هذا المقال والمقام. ويثبت اقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الاقدام. واما افضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده واخيه الكبير اليه. وافاضة هذه المواهب العظيمة عليه. وترقيه الاسرة التي طهرها ايمانه. واظهرها سلطانه. فقد اورثه الله من اصطفاه من عباده وصدق المبشرات له من كرامة اوليائه وعباده. واما حكاية اجتماع الاخوان والاولاد والامراء الكبار في قوريلتاي الذي ينقدح فيه زند الاراء. وان كلمتهم اتفقت على ما سبق به حكم اخيه الكبير في انفاذ العساكر الى هذا الجانب وانه فكر فيما اجتمعت عليه اراؤوهم اليه وانتهت اهواؤهم. فوجده مخالفاً لما في ضميره. اذ قصده الصلاح. ودأبه الاصلاح. وانه اطفأ تلك النار وسكن تلك الثائرة. فهذا فعل

الملك التقي المشفق على قومه. فمن يعي الفكر في العواقب. بالرأي الثاقب. والا فلو تركوا اراءهم حتى يحملهم الهوى لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة (قيل الكفرة). لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى. واما القول انه لا يجب المسارعة للمقارعة الا بعد ايضاح المحجة. وتركيب الحجة. فانتظامه في سلك الايمان صارت حجتنا وحجته المتركبة على من عدت طواغيه عن سلوك هذه المحجة مسكتةً. وان الله سبحانه والناس كافةً قد علموا ان قيامنا انما هو لنصر هذه الملة. وجهادنا واجتهادنا انما هو الله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول. قد ذهبت الاحقاد وزالت الزحول. وبارتفاع المنافرة. تحصل المناصرة. فالايمان كالبنيان يشد بعضه من بعض. ومن اقام مناره فله اهل باهل في كل مكان وجيران بجيران في كل ارض. واما تركيب هذه الفوائد الجمة على اذكار شيخ الاسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن اعاد الله من بركاته فلم يرو لي من قبل كرامة كهذه الكرامة. والرجاء بركة الصالحين ان تصبح كل دار للاسلام دار اقامة حتى تتم شرائط الايمان. ويعود شمل الاسلام احسن مما كان. ولا ينكر من بكرامته ابتدأ هذا التمكن في الوجود. اذ كان كل حق ببركته الى قضائه يعود. واما انفاذ اقضى القضاة قطب الدين الموثوق بنقلهما في ابداع رسائل هذه البلاغة. فقد حضرا واعادا كل قول حسن من حوال احواله وخطرات خاطره. ومناظرات منظره. ومن كل ما يشكر ويحمد ويفيض حديثهما فيه عن مسند احمد. واما الاشارة الى ان النفوس كانت تتطلع الى اقامه دليل تستحكم بسببه دواعي الامر ومصادره من العدل والاحسان بالقلب واللسان. والتقدم باصلاح الاوقاف فهذه صفات من يريد لملكه دواماً. فلما ملك عدل ولم يلتفت الى لوم من عذل. على انه ولو كانت من الافعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الالسنة فهي واجبات كلية تؤدي وهي ابكر من أنه يجر اجراً غيره به يفتخر. أو عليه يقتصر اوله يذخر. وانما يفتخر الملك العظيم بأن له ممالك واقاليم وحصوناً. وان يبذل في تشييد ملكه عن مصون. واما تحريمه على العساكر ومراكز الشحنة والشحنة بالاطراف التعرض الى احد بالاذى. وتصفية موارد الواردين والصادرين من

شوائب القذى. فمن حين بلغنا تقدمه بذلك تقدمنا مثله ايضاً الى سائر النواب بالرحبة والبيرة وحلب وعين تاب وتقدمنا الى مقدمي العساكر باطراف تلك الممالك بمثل ذلك. واذا اتخذ الامان. وانعقد الايمان بختم هذه الاحكام. ترتبت عليه جميع الحكام. واما الجاسوس الفقير الذي أُمسك ثم أُطلق. وان بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتلت جماعة من الفقراء والعلماء رجماً بالظن فهذا باب من تلك الابواب كان فتحه. وزند منه كان قدحه. وكم متزيّ بالفقر من ذلك الجانب سيروه. والى الاطلاع على الامور سوروه. وظفر النواب منهم بجماعة فرفع عنهم السيف. ولم يكشف ما غطته خرقة الفقر بلم ولا بكيف. واما الاشارة الى ان في اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم. وينتظم شمل بني آدم. فلا ريب انَّ من طرق باب الاتحاد. كمن جنح للسلم فما حاد. ومن ثنى عنانه عن المكافحة. كمن مد يد المصالحة للمصافحة. والصلح وان كان سيد الاحكام فلا بد من امور تبنى عليه قواعده. ويعلم من مدلولها فوائده. فان الامور المسطورة في كتابه كليات لازمة نعم. يفهم بها كل معنى ويعلم ان يتهيأ صلح او لم. وثم امور لا بد وان يحكم في سلكها عقداً لعهود تنظم. قد يحملها لسان المشافهة التي اذا افردت اقبلت ان شاء الله عليها النفوس. واحرزتها صدور الرسل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس. واما الاستشهاد بقوله تعالى. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً فما على السبق من الود بنسج. ولا على السبيل بنهج. بل الفضل لمن تقدم. في الدين حقوق ترعى. وافادات تسترعى. وعند الانتهاء الى جواب ما لعله يجب عنها الجواب. من فصول الكتاب وسمعنا المشافهة التي على لسان اقضى القضاة قطب الملة والدين. وانتظام عقده بسلك المؤمنين. وما بسطه من عدل واحسان. وسيرة مشكورة يكل عن وصفها اللسان. فقد انزل الله على رسوله في حق من امتن في اسلامه : قل لا تمنوا عليَّ في اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان. ومن المشافهة انه قد اعطاه الله من العطايا ما اغناه عن امتداد الطرف الى ما في يد غيره من ارض وماء. فان حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالامر حاصل. فالجواب ان ثمة أموراً متى حصلت عليها الموافقة. تمت المصادقة. ورأى الله تعالى والناس كيف يكون تصافينا. واذلال

معارفنا عند تصافينا. وكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الاب والاخ والقرابة. وما تم امر الدين المحمدي واستحكم في صدور الاسلام الا بمظاهرة اصحابه (او بمظاهرة الصحابة). فان كانت له رغبة مصروفة الى الاتحاد. وحسن الوداد. وجميل الاعتقاد. وكبت الاعداء والاضداد. والاستناد الى من يشتد به الازر عند الاستناد. فقد فهم المراد ومن المشافهة اذا كانت عزيمتنا غير ممتدة الى ما في يده من ارض وماء فلا حاجة الى إنفاذ المغترين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب لو كف كف العدوان من هنالك. وخلا للملوك المسلمين ما لهم من ممالك. سكنت الدهماء. وحقنت الدماء وما حقه ان ينهى عن خلق ويأتي مثله. ولا يأمر بشيء وينسى فعله. وقونفرتاي بالروم الان وهي بلاد في ايديكم. وخراجها يجبى اليكم قد سفك فيها الدماء وقتل وسبى وهتك وباع الامراء. وابى الا التمادي على ذلك الاضرار. ومن المشافهة انه حصل التصميم على ان يبطل هذه الاغارات ولا يفتر عن هذه الاثارات. فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء. ويعطي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك ان الاماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من اولئك القوم. وخاف ان لا يعاودها فيغادره مصرع ذلك اليوم. ووقت اللقاء علمه عند الله لا يقدر. وما النصر الا من عند الله لمن قدر لا لمن قدّر. وما نحن ممن ينتظر فلتة. ولاله الى غير ذلك لفتة. وما امر ساعة النصر الا كالساعة التي لا تأتي الا بغتةً. والله الموفق لما فيه صلاح هذه الامة. والقادر على اتمام كل خير ونعمة ان شاء الله تعالى. كتب في مستهل شهر رمضان المعظم سنة ٦٨٢ هـ ويروى سنة ٦٨١ هـ.

وفي هذا التاريخ نقل الى السلطان احمد ان اخاه قونفرتاي له كلام مع ارغون ابن أبافا وانهم يريدون قتله، فخاف وسارع الى قونفرتاي وقتله. ولما بلغ ارغون خبر قتل عمه حزن لذلك وتغير قلبه على السلطان احمد، فلما شعر احمد بتغيير قلب ارغون عليه سير اليه عسكراً عظيماً، وكبيرهم امير من المغول اسمه اليناخ فتوجهوا اليه وهو بخراسان، ولما علم ارغون بقدوم العسكر اليه باغتهم على غفلة وقتل منهم مقتلة عظيمة. وانهزم اليناخ والبعض من عسكره، ولما علم السلطان احمد بذلك غضب غضباً شديداً وجمع

العساكر الكثيرة وقصد ارغون بنفسه، فتحصن ارغون في حصن كان هناك ومعه ثلاثماية من الفرسان، فارسل اليه السلطان احمد الأمان وحلف له ان لا يؤذيه، فامن ارغون وسلم الى السلطان احمد وبقي ثلاثة ايام في الافراح، ثم تغير قلب السلطان احمد على ارغون وتفكر في قتله. فاستدعى جماعة من المغول واوصاهم ان ينتبهوا الى ارغون لئلا يهرب، واظهر انه متوجه الى اذربيجان وامرهم ان يحضروا اليه ارغون. وقال ان لم اهلكه هو وسائر اولاده لا استريح ولا ينتظم لي الملك، فلما تحقق بوغا ما في خاطر السلطان احمد (بوغا هو احد امراء ابيه أبافا) دار على جميع الاولاد وعرفهم ما قد عول عليه السلطان اي قتل ارغون، فاخذتهم الغيرة ونهضوا في تلك الليلة وقصدوا ارغون، واخرجوه، والبسوه السلاح، وركبوا جميعاً في خدمته الى الموضع الذي كان فيه اليناخ، وهجموا عليه ودخلوا اليه وقتلوه وقتلوا معه جميع الاكابر اصحابه في الخيمة، ونادوا في العسكر، ان أبناء الملوك قد قتلوا الينانخ واصحابه فكل من هو في موضع يلزم مكانه، ولا يتحرك، ولا يخاف، وركبوا في جمع عظيم ولحقوا السلطان احمد فادركوه عند امه فقبضوا عليه، ونادوا باسم ارغون ملكاً عليهم. وفيها تمردت المماليك على السلطان فغضب غضباً اعمى بصره واعمل السيف فيهم البريء مع المذنب حتى غصت الاسواق بجثثهم. وفيها خرج السلطان بالعساكر لحفر الخليج الذي بالبحيرة وهو الترعة المحمودية. وفيها كان السيل بدمشق فأخرب البيوت واقتلع الاشجار واهلك خلقاً كثيراً. وفيها انشأ الامير سيف الدين السلحدار المنصوري جامع الجميزة بشارع باب اللوق.

الفصل الحادي عشر

في حكم ارغون ايلخان وهو خامس ملوك المغول

وفي السنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م لما جلس ارغون على كرسي المملكة اتفق اكثر امراء المغول واكابرهم ان يقتلوا السلطان احمد، فكان يقول ارغون لا اوافق على قتله، بل ام قونغرتاي واولادها يعرفون به، وما يختارون ان يفعلوا به فليفعلوا. حينئذ بقي في الانتظار اياماً، وبعد ذلك قتله اولاد قونغرتاي وانتقموا منه واخذوا بثار والدهم. وكان ذلك يوم الاربعاء ثاني جمادي الآخر. ثم ان ارغون لما استقام له الامر رتب كل واحد من الاولاد رئيساً على عسكر من عساكر مملكته، ثم بلغ ارغون بأن صاحب الديوان قتل ابافا والده بسم سقاه اياه، ولما كان يطلبه من السلطان احمد لم يسمح له به ولا كان يسلمه اليه، فتحقق ارغون ان احمد اختار موت والده. فلما استقر ارغون في الملك هرب شمس الدين صاحب الديوان الى الجبال التي في الاهواز أعني الجبال التي بين الاهواز وبين العجم واحتمى بطائفة من الاكراد يسمون باللور، وكان كبيرهم شخص اسمه يوسف شاه الذي قبله قبولاً حسناً واكرمه، لانه قبل على ان يلزم صاحب الديوان ويحمله الى ارغون، وفعل ذلك والزمه به وحمله الى ارغون. ولما قدم قدَّم اموالاً كثيرة نحو مائة تومان من ذهب، ثم انهم عرضوا عليه ان يشتري نفسه بحيث لا يهرق دمه فطلب المهلة ليبيع املاكه ويقترض ويوصل ذلك. حينئذ حصل بطريق الدين من اصحابه واهله وانسبائه واحبائه

واصدقائه نحو اربعين توماناً آخر من الذهب، وقال هذا الذي قد حصل ولا يمكن ان يحصل غيره، فما تختارون فعله فافعلوه. فصدر الامر من الملك ارغون بقتله، وقتل يوم الثلثا خامس شهر شعبان هذه السنة الموافق سابع شهر تشرين الاول (اكتوبر). وكانت هذه آخرة مثل ذلك الرجل العظيم المهوب الحكيم الذي كانت الدولة باسرها طوع بنانه، وكان عنده العقل والخبرة كاملاً بجميع السياسات والتدابير والتواضع الحسن. ويقولون عنه أنه ما سبقه احد بتحية السلام بل هو كان يبتدي من تقدم اليه.

وفي هذه السنة كانت وفاة علامة الزمان ملك العلماء وتاج الفضلاء منارة الشرق غريغوريوس ابي الفرج ابن هرون الطبيب صاحب التاريخ الشهير.

وفي هذه السنة كانت وفاة الامير قرقماز الشهابي في حاصبيا وتولى بعده على الامارة ولده الامير سعد فلم تنجح امارته الا قليلاً، وفي ايامه دخلت المغول الديار الشامية حتى وصلوا الى وادي التيم وجعلوا طريقهم على حاصبيا، وقبل وصولهم ببرهة وجيزة اراد الامير سعد ان يجمع جمعاً من رجال وادي التيم ويقف بوجه المغول ويصدمهم ويذب عن بلاده، ويمنعهم عن الدخول اليها، فلم يجبه احد لذلك، بل كلٌّ داخله الخوف والرعب مما بلغوا من اخبار المغول وافعالهم، واخذت الحيرة قلوب الجميع، فلما رآهم الامير عامر تأخروا عن الممانعة والمصادمة علم ان الحضارة تولت عنهم وأُخذت الحمية منهم، واشتغل كلٌّ بتدبير نفسه ورزقه وعياله. ونهض مسرعاً واركب الحريم وحمل ما عنده من الاموال، وامر الامراء بذلك فصنعوا مثل صنيعه. ولم تكن ساعة حتى صارت العيال على ظهور الخيل خارج البلد وذلك عند غروب الشمس، ووجه اخاه الامير علياً واصحبه بمائة فارس وسير الحريم معه في ذلك الليل الى جبل الشوف، واخذت جميع اهالي بلاد وادي التيم بالرحيل. وما اصبح الصباح الا وجيوش المغول ملأت بلاد وادي التيم سهلاً وجبلاً من كل جهة، فظفروا بأهاليها ونهبوا وقتلوا وسلبوا وحرقوا وفعلوا فيها كما فعلوا بغيرها، وسبوا النساء والرجال. فنهض الامير سعد وجمع باقي اخوته واتباعه وغلمانه وفرسانه، واجتمع اليه قليل من اهل البلاد وهرب الباقون. فوقع اكثرهم في ايدي المغول، وقام الامير سعد يريد الرحيل، فلم

يقدر على المسير بلا قتال، لان المغول احاطوا به من كل جانب، وملكوا البلاد جميعها، فاخذ يدافع ويذب عن نفسه هو ومن معه وكانوا دون الالف، واجتهدوا بالقتال مدافعة عن نفوسهم فقط. وقد شكر الله وحمده على ارسال العيال في الليل الى الجبل، لانهم لو بقوا الى الصباح لكانوا سبوا. وكان الامير سعد كيف ما ادار وجهه يرى السبايا من النساء بايدي المغول، ورأى القتل والنهب، وسمع الضجة وصراخ الاطفال حتى كادت نفسه ان تذوب من الحزن والانزعاج. فاخذ يدافع ويقاتل فرقةً بعد اخرى وكتيبة بعد كتيبة، ويطلب الانصراف ولم يكن له طريق من كثرة الجيوش، ولم يزل هو ومن معه يحاربون ويقاتلون من الصباح الى الظهيرة فبلغوا مرج الشميت، وقد عقد التتر عليهم دائرة واحاطوا بهم من كل جانب، واتعبوهم بالقنا والقواضب. فحينئذٍ ايقن الامير سعد ومن معه من الامراء والغلمان بالهلاك لما رأوا من شدة الضيق وسوء الارتباك، وتزايدت عليهم فرق المغول، واندفقوا كالسيل المهول، فاشتد القتال وعظم عليهم الحال وقاتلوا قتال الاساد، وفعلوا فعل الكرام الامجاد، واختلطوا بتلك الامم الهائجة. والبحار المائجة، ولما تيقنوا الفناء وعلموا ان المنية تدرسهم بانيابها، وتهلكهم المغول بنصولها وحرابها، نادى الامير سعد اصحابه وجمعهم كتيبةً واحدة وقرأوا الفاتحة على الحملة على تلك الجيوش، وانهم لا يزالون في غارتهم بينهم حتى يخرجوا الى خارجهم وينجوا بأنفسهم أو يهلكوا باسرهم. ولما صمموا على ذلك رفعوا اصواتهم وودع بعضهم بعضاً، وقوموا الاسنة، واطلقوا الاعنة، وكروا على تلك الجيوش المزدحمة ودخلوا بينهم، وخرقوا صفوفهم وكتائبهم، وجعلوا يقاتلون من يصادمهم ويقابلهم. ولم يزالوا مكرين بين تلك الكتائب حتى خرقوا جميع المواكب، وادركوا المنى من القوم، وبلغوا الفضاء في عشية ذلك اليوم، واوسعوا في غارتهم لما خرجوا من بينهم بجملتهم ولم يقر لهم القرار حتى بلغوا صحراء كامد من بلاد البقاع، وهناك اعطوا خيلهم راحة قليلة، ثم اطلقوا الاعنة لان التتر كانوا في الاثر، ولم يزالوا مجدين بغارتهم حتى وصلوا الى النهر الذي بفيحاء (سهل) البقاع (الليطاني) فوقفوا هناك قليلاً وهم لا يعون على شيء لشدة ما اصابهم بتلك الحملة من التعب والجراحات. وكان الليل قد ارخى

سدوله على الخافقين، ووقفت التتر عن الطلب، فعندها سار الامير سعد واصحابه خبباً حتى صعدوا الى قمة الجبل، وهناك نزلوا عن خيولهم، واخذوا راحةً وامناً لانفسهم وثبتت قلوبهم وسكن روعهم. واما الامير سعد فشد جرحه وضمده وتمدد لا لامياً ولا حياً، ووقع طريحاً لا يعي من نفسه شيئاً، وباتوا الى الصباح كأنهم اشباح بلا ارواح. ولما طلعت الشمس انتبهوا وتفقدوا رجالهم وحالهم فوجدوا انه قد فقد منهم نحو سبعماية فارس واميران من اخوة الامير سعد وثلاثة من بني اعمامه، وقد جرح هو ومن بقي معه، ولم يكن منهم احدٌ سالماً بل كلهم مجرحين ومهشمين. فنهضوا وضمدوا جراحاتهم، وجلسوا ينظرون الى ناحية بلادهم فرأوا الحريق قد عمَّ جميع بلاد وادي التيم والبقاع، ولم يروا شيئاً من تكاثف الدخان والعجاج، وبقوا هناك الى ان صلوا صلاة الظهر. وبعد ذلك ركبوا وانحدروا قاصدين اهلهم. وكان الامير علي حين سار بالعيال الى جبل الشوف اختار بطحاء نهر الصفا، وضرب هناك المضارب والخيام (لربما قرب منبع النهر في قوصرايا او في جهة العديل والبصيل) وانزل العيال، وفي اليوم الثاني من نزولهم ركب واخذ معه عشرين فارساً وصعد الى الجبل ليتفقد الخبر بالنظر، ولم يبلغ القمة حتى التقى بالامير سعد واصحابه فترجل وسلم عليه، وسأله عن الخبر، فقال : دع وانظر الاثر ! اين منزلتكم ؟ قال : قريبة. ثم امره بالركوب فركب وسار امامهم الى المنزلة، وباتوا تلك الليلة صرعى من تعبهم لا يدركون شيئاً كالليلة الماضية الى الصبح. ولما كان اليوم الثالث وفد اليهم الامير بشير المعني امير الشوف يومئذٍ ومعه الانعامات والميرة فهنأهم بالسلامة وعزاهم على من فقدوا، وترحب بهم واقام عندهم يومين وفي اليوم الثالث رجع الى محله. وبقي الامير سعد مقيماً في ذلك المحل الى ان رجع المغول عن دمشق الى الديار الحلبية وخلت الديار الشامية من جيوشهم، فنهض الامير سعد واخذ معه الامراء ومن بقي عنده من الغلمان، وكان عدد الجميع دون الخمسماية. وتوجه إلى بلاد وادي التيم فرآها محروقة من المغول بلاقعاً تنعق فيها الغربان وتبكي عليها البوم، وقد علاها الدمار والاندثار، وخلت من الانيس وصارت كالقفار، وقد عمها سواد الحريق والدخان وصبغها حتى كأنها جبال السودان،

فتقطع فؤاده من الحزن والكرب. وسار الى حاصبيا فرآها تخبر عن مدائن صالح بخرابها. وتذرف الدموع على فقد احبابها، فزادت احزانه، وتقرحت اجفانه، وارتعد جنانه ولم تطاوعه نفسه على النزول فيها، فنزل خارجها، وضرب المضارب والخيام، واقام مدة من الايام يبني ما هدم، ويصلح ما عدم، ويبني ويجدد حتى اصلح له مكاناً لاجل سكناه، ثم احضر اهله ورهطه اليها وكانت غربتهم عنها نحو خمسة اشهر، وارجع معه باقي الامراء وغلمانهم. ثم شرع باصلاح الباقي، وكتب الى اهل البلاد في الرجوع اليها، وكان الذي سلم منهم من سيوف المغول وتلك المصيبة نزح الى جبل الشوف، وتفرقوا في صحاريه، ومنهم من انحدر الى الساحل المستأمن وتوطنوا هناك، ولما كتب اليهم لم يرجع احد منهم، لأن اخبار المغول كانت لم تزل متصلة، وفي كل مدة يحشدون الجيوش ويترددون الى البلاد الشامية، واستولى على الناس منهم الخوف والقلق، وكان ملوك مصر والشام كل هذه المدة لم ينظم لهم حال، بل في كل مدة يتغلب واحد ثم يقتل فيتولى غيره، ثم يقوم اخر ويخلعه، ثم يعزل وتهيج لذلك الفتن والحروب، والتتر ثائرة من جهة اخرى. فاستولى الخراب على الاقطار الشامية، فمن ثم كان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك. وقدم الى جبل لبنان في ذلك الحين خلقٌ كثير ومنهم اهل بلاد وادي التيم واستمرت ديار وادي التيم مقفرة خالية من السكان نحو خمسة اعوام، ولم يكن فيها عمار سوى حاصبيا حتى ركدت زعازع الفتن والمخاوف. فرجع البعض من أهلها وعمروا بعض القرى التي في جبل حاصبيا لا غير، وبقيت على ذلك الحال كل ايام الامير سعد. وحصل في ايامه قحط وجدب حتى اكل الناس بعضهم بعضاً. وجاء بعد ذلك وباء شديد اهلك خلقاً كثيراً. ومات الامير سعد بذلك الوباء بعد ما تولى على الامارة خمس وثلاثين سنة نقضت بالمصائب والمتاعب.

وفي هذه السنة عاد السلطان الى دمشق وجاء اليه الملك المنصور صاحب حماة، ثم عاد كل منهما الى بلاده. وفيها توفي الملك المنصور صاحب حماة وكان ملكاً حليماً واستقر بالملك بعده الملك المظفر محمود وجاءه الاذن بالولاية والحلل السنية من سلطان مصر، وامر السلطان قلاوون المماليك بتغيير

ملابسهم الى لبس رجال الحرب. وفيها زاد نهر دمشق وارتفع الى باب الفرج فذهب من اموال العسكر ما لا يحصى. وفيها انتصرت اهالي جنوا على اهالي بيزا في موقعة بحرية، وافتتح اهالي جنوا جزيرة كورسيكا.

وفي السنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م قدم الملك المنصور قلاوون الى دمشق وجمع العساكر المصرية والشامية وحاصر حصن المرقب وهو في يد الاستبار الافرنجي في غاية العلو والتحصين فنصب عليه المجانيق وامر البنائين بنقبه، فطلب اهله الامان فأمنهم على شرط ان يخرجوا ويحملوا كل ما يقدرون عليه ما عدا السلاح، ويقال انهم هربوا بنفق كان ينفذ من الحصن الى البحر. وفي التاسع عشر من ربيع اول يوم الجمعة طلعت اليه سناجق السلطان. (قال السلطان عماد الدين في تاريخه كنت حاضره وعمري اثنتا عشرة سنة وعاد السلطان الى بحيرة حمص فورد عليه الخبر بولادة ولده السلطان الملك الناصر فعاد الى مصر مسروراً فرحاً) وفي هذه السنة ركب الملك المظفر صاحب حماة بالخلعة والغاشية من السلطان قلاوون وحمل الغاشية بين يديه نائب المملكة حسام الدين طارنطاي، وفيها توفي فيليب ملك فرنسا وتولى مكانه فيليب الظريف. وفيها توفي اسكندر الثالث ملك اسكوتلاندا ووقع شقاق عظيم اعقبه حروب كبيرة بين اسكوتلاندا وانكلترا.

وفي السنة ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م جهز السلطان عسكراً مع الامير حسام الدين لمنازلة الكرك فحاصروها وتسلموها بالامان من صاحبيها جمال الدين خضر وبدر الدين سلامس (قيل سلامش) ولدي الملك الظاهر بيبرس، ثم خرج السلطان اليهما وقرَّر امرهما واحسن اليهما وعاد الى مصر. ثم بلغه بعد مدة طويلة عنهما ما كرهه فامر بسجنهما حتى توفيا.

وفي السنة ٦٨٦ هـ = ١٢٨٧ م توجه الملك المنصور قلاوون الصالحي بالعساكر الى طرابلس وحاصرها وفتحها بالسيف وغنم المسلمون مالا يحصى، ثم هدمها الى الأرض وكان لها بيد الافرنج نحو ١٥٠ سنة. وفيها قدم حسام الدين طارنطاي الى دمشق نائباً بها، ثم توجه لقتال سنقر الاشقر واخذ معه المجانيق والات الحصار، وتسلم حصن برزيه بلا قتال، وتسلم حصن صهيون بالامان واكرم صاحبها سنقر الاشقر غاية الاكرام، واخذ منه حصن صهيون

على شروط التزم له بها طارنطاي وحلف له ودخل مع طارنطاي مكرماً الى حمص، واعطاه السلطان بمصر ميرة مائة فارس وثبت فيها لبعد وفاة مولاه. واما حسام الدين فقبل ان يرجع الى مصر نازل اللاذقية واحاط بها وكان برج للافرنج في البحر فتسلمه بالامان وهدمه. وفيها ارسل السلطان عسكراً مع علم الدين سنجار متولي القاهرة الى بلاد النوبة فغزوا وغنموا وعادوا. وفيها انشأ قجاش الاسحاقي السيفي جامع ابو حريبة بشارع الدرب الاحمر.

يذكر بارونيوس انه بهذه السنة نمت دولة الاتراك المدعوة آل عثمان ابن سلجوق كما قدمنا عنهم الشرح ونسبهم يتصل بالشعوب السبطيين القاطنين جبل كوكاس (لعله قاقوسوس). ثم تغلبوا على أعمال اسيا وبلاد العجم. وبعد حروب كثيرة تملكوا تلك البلدان وتركوا عبادة الاوثان ودخلوا في دين الاسلام. وقد كانوا منقسمين الى سبع طوائف. وكانت كورة بيطينيا من قسم عثمان ابن سلجوق فتغلب المذكور بشجاعة عظيمة على الروم واستخلص منهم تلك الكور القريبة منه. وتملك منهم مدينة برصا وجعلها كرسي ملكه.

وفي السنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م توفي شيخ الاطباء علاء الدين ابن النفيس الدمشقي وكان الف كتاب الموجز في الطب وله تصانيف كثيرة غيره وتوفي بمصر. وفيها مات الامير الافرنجي صاحب طرابلس، وخرج السلطان قلاوون بالجيوش المصرية واجتمعت اليه عساكر الشام ونازل طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الاول، فنصب عليها المجانيق الكبار والصغار من جهة الشرق وشدد عليها الحصار والقتال نحو ثلاثة وثلاثين يوماً حتى فتحها بالسيف، وقتل منها خلقاً كثيراً من المسلمين، وقتل السلطان غالب رجالها وسبيت ذراريهم وغنم العسكر غنيمة عظيمة. ولم ينج من الافرنج الا القليل فقصدوا الميناء، وبعد ما نهبها العسكر امر السلطان بحرقها، وهدمها ودكها الى الارض. وهربت الناس من الميناء الى الجزيرة التي كانت بقربها كنيسة القديس توما. يقول صاحب التاريخ المختصر ابن ايوب الذي كان حاضراً، واقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة، فقتلوا جميع من بها من الرجال وغنموا الاموال والنساء والصغار. وكان لطرابلس في يد الافرنج مائة وخمسة وثمانين سنة استولوا عليها في احد عشر ذي الحجة

بعد حصار خمس سنين وكان فتح طرابلس في ٢٦ نيسان (ابريل) سنة ٥٠٣ هـ وبقيت في ايديهم الى اوائل هذه السنة، وبعدما احرقها السلطان وهدمت بنيت على بعد نصف فرسخ من محلها الاول وسكنها المسلمون. ولكون سكان كسروان والجرديين نزلوا الى نجدة الافرنج امر حسام الدين لاجين نائب دمشق قراسنقر ان يجمع العساكر الشامية ويزحف بهم الى كسروان وجرده لاستئصال اهلها كما ذكر ابن سباط. ومن جملة اوامر حسام الدين انه كتب لامراء غرب بيروت الامير جمال الدين حجي ابن محمد التنوخي والى زين الدين ابن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة الى جهة كسروان وجرده فليتوجها اليه بجموعهما وقوتهما. وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً. ومن احضر منهم رأس رجل فله دينار. وان سنقر توجه لاستئصال الاعداء ونهب اموالهم وسبي ذراريهم وقتل رجالهم.

وفي السنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م توفي سلطان الاسلام سيد الترك الملك المنصور سيف الدين قلاوون ابو المعالي الصالحي النجمي في شهر ذي القعدة. وقد جاوز الستين سنة من العمر. وكان يلقب بالالفي لانه بيع بالف دينار. وكان فارساً شجاعاً وبطلاً خبيراً ذا سياسة مهوباً تام الشكل حسن الصورة كثير الوقار. دريء اللون مستدير الوجه خفيف اللحية قد بدا الشيب بعارضيه، عليه جلالة وعظمة كانه خلق للملك. وكان احد الامراء الاعيان يوم وقعة عين جالوت، ثم كان من اكابر المقدمين في دولة الملك الظاهر، ثم عمل نيابة السلطان للملك العادل سلامس، ثم استقل بالسلطنة وكانت مدة دولته احد عشر سنة واربعة اشهر.

الفصل الثاني عشر

في حكم السلطان الاشرف خليل وهو الثامن من ملوك الترك

ثم تولى على السلطنة بعده ولده الملك الاشرف صلاح الدين خليل، وذلك في مستهل ذي القعدة السنة المذكورة فقبض على طرنطاي واهلكه. واستولى على امواله الكثيرة، فوجد عنده اموالاً عظيمة من الذهب الف الف دينار وستمائة الف دينار، فاخذها السلطان جميعها. وكان عمر طرنطاي دون الخمسين سنة، وولى على الوزارة بعده شمس الدين محمد ابن السلعوس وعلى النيابة بدر الدين بيدراً، وولى على دمشق حسام الدين لاجين، وعلى حلب قراسنقر. ومن آثار السلطان خليل ابن قلاوون جامعه الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء مستشفى المجانين الذي يشاهده المار في شارع النحاسين، ومن آثاره خان الخليلي المشهور.

وفي السنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م يقول ابن الحريري ان الملك الاشرف خليل توجه لغزو عكا ونازلها رابع شهر ربيع الاول بجيوش الاسلام وبامم لا يحصى عددهم، وجدوا في الحصار فاعانهم عسكر قبرس، وثبت فيها الافرنج ثباتاً عظيماً. فجاء الملك المظفر صاحب حماة وعساكره ومعه الملك الافضل، واصحبوا معهم من حصن الاكراد المنجنيق العظيم الملقب بالمنصوري حمل على مائة عجلة. ولكون الامر حدث في فصل الشتاء فقد قاسوا مشقات كثيرة من الامطار والثلوج في جره من حصن الاكراد الى عكا.

فصرفوا نحو شهر مع ان المسافة ليست باكثر من سفر ثمانية ايام، وجمعوا بقية آلات الحصار والمجانيق الكبيرة والصغيرة مما يجمع الى غيرها. وعمل السلطان طبولاً عظيمة وكانت ثلثماية حمل لان الافرنج كانوا تقووا ولم يغلقوا اغلب الابواب، فزحف الجيش الى عكا سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادي الاول فارتجت الارض بضرب الطبول واشتد عليها الحصار، وحين لاصق المسلمون السور هربت الافرنج الى البحر، وارتفعت رايات الاسلام ونكست رايات الافرنج، وعمل السيف فيهم عند طلوع الشمس. وهدمت ابراج عكا واسوارها، وغنمت العساكر غنائم كثيرة، وقتلوا الافرنج الذين مسكوهم عن آخرهم، ولم يفلت الا الذين هربوا في المراكب. وامر السلطان بهدم المدينة الى الارض فدكت دكاً، وكان هذا الفتح في ١٩ جمادي الآخر. وقد كانت عكا اخذت اولاً سنة ٤٧٨ هـ، ثم اخذتها الافرنج بالسيف سنة ٤٩٦ هـ، ثم اخذها منهم صلاح الدين يوسف سنة ٥٩٣ هـ، ثم اخذها الافرنج ودامت في ايديهم الى هذه السنة ٦٩٠ هـ فلما بلغت اخبار عكا الافرنج الذين في السواحل اخلوا البلاد وهربوا، وكانت البلاد حصينة منيعة الى الغاية. فأقبل عليهم الرعب وقدمت البشائر الى السلطان بأن الافرنج خرجوا من صور، فأمر باخلائها وهدمها. وكان في صور خلق كثير من عوام المسلمين، فلم يقبلوا واقاموا بها وكانت صور بيد الافرنج مدة ماية وسبعين سنة. ثم توجه السلطان الى دمشق مؤيداً منصوراً فقبض على حسام الدين لاجين نائب السلطنة بدمشق وولى عليها موضعه علم الدين سنجر الشجاعي، وقبض ايضاً على ابن جرص فحبسهما. ثم سارت فرقة من الجيش الى صيدا، وكان لها قلعتان عظيمتان احداهما قبلية والاخرى شمالية، وكان لها جزيرة في البحر بالقرب منها فدخلتها الاسلام واخربوا المدينة والجزيرة والقلعتين، ودكوها الى الارض. ثم ان علم الدين سنجر الشجاعي اخذ الجيش وتوجه الى بيروت. وكان اهل بيروت متمسكين بهدنة وكانوا قد عملوا حيلة على امراء الغرب الساكنين بالقرب منهم حتى اوقعوهم وقتلوا اكثرهم غدراً. فلما قدم سنجر الشجاعي اغلقوا المدينة خوفاً، فحاصرها سنجر الشجاعي واخذها في آخر رجب واسر اهلها انتقاماً منهم لما فعلوه بالامراء المجاورين لهم، وهدمت اسوارها ودكت

قلعتها وكانت حصينة منيعة جداً. وأمّا اهل عتليت فلما نظروا ما صار بعكا وصور حملوا الذي قدروا على حمله وهربوا بالبحر واضرموا النار فيها، وكان ذلك في مستهل شعبان. وفي خمسة عشر منه نازل الشجاعي طرسوس فسلمها الافرنج بالآمان، وكان من سعادة هذا السلطان ما لم يتفق لغيره بفتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب، وأمر بخرابها فخربت عن آخرها، ونظفت السواحل من الافرنج بعد ما كانوا اشرفوا على ملك الشام والديار المصرية، والبعض من الافرنج سكنوا في جبل لبنان والباقي عادوا الى بلادهم في المراكب. وفي هذه السنة بنى الشجاعي نائب دمشق دار قلعة دمشق والطارمة وزخرفها واكملها بسبعة اشهر. وفيها كمل قراسنقر بناء قلعة حلب، وكان لها ثلاث وثلاثون سنة خراباً منذ خربها هولاكو سنة ٦٥٨ هـ. وفيها امر الشجاعي بالتهديد على كل امرأة تلبس طاقية طويلة ام حُلى وتخرج بها الى المقابر. وفيها اطلق السلطان الاشرف خليل اسرى بيروت، وكانوا نحو ستماية اسير، واطلق لاجين وسنقر الاشقر والبيسري وسنقر الطويل وتقصوا. وفيها امر الخليفة الحاكم بامر الله العباسي بالركوب الى اخذ بغداد من ايدي التتر.

وفي السنة ٦٩١ هـ = ١٢٩١ م دخل الملك الاشرف خليل دمشق، ثم صلى بالمقصورة نهار الجمعة على الخطيب القازوفي. ثم سار الى حلب ودخلها في جمادي الاول. ثم سار بالعساكر في جمادي الآخر الى قلعة الروم، وحاصرها شهراً وثلاثة ايام وفتحها وقلعتها بالسيف وامن الناس على ارواحهم، واسرهم واخذ اموالهم، ولما عاد السلطان عزل قراسنقر عن حلب واخذه معه، وولّى مكانه تلبان الطباخي. وعزل علم الدين سنجر الشجاعي عن دمشق وكان ولاه عليها عند حصار عكا عوضاً عن حسام الدين لاجين، وولى عز الدين ايبك الحموي عوضاً عنه. وامر بهدم قلعة الشوبك ثم قتل لاجين وتقصوا وسنقر الاشقر وكانوا من اعظم الامراء وافرسهم. ثم رجع السلطان، الى مصر بعد شهرين وفيها حصلت محاربة بين فرنسا وانكلترا. وفيها كان مولد ابن الوردي المؤلف المشهور.

وفي السنة ٦٩٢ هـ = ١٢٩٢ م (ذكر الوليد ابن الشحنة انه بهذه السنة

توجه السلطان الاشرف من مصر الى الشام ونزل قريباً من حمص، فجاء مهني ابن عيسى واخواه محمد، وفضل، وولده موسى فقبض على الجميع وارسلهم إلى قلعة الجبل ثم عاد الى مصر وفيها كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة الشريفة في ايام الملك المنصور ابن الملك الناصر محمد قلاوون، وكان بناؤه بعد ما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة. وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق التي على شاطي البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم ما يلي قبليه على هذه الصورة مكتوب : الامير ادوار قيصر مارقوس اوريوس انطونيوس، الحليم السعيد اوغسطس كبير الجرمانيين الحبر الاعظم، قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا، ونهج الطريق مسهلاً، ولقبه بالطريق الانطونياني. وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعد ما اصلح انطونيوس الملك الطريق نصب به الكفرة قايمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب، وقيدوه بسلسلة حديد في الصخر، وجعلوا قدامه نقيراً لاجل الطعام. وقيل ان الشيطان دخله وصار رصَداً متى قصدوا ان يغزوا سواحل الشام بالمراكب كان الرصد ينبح ليستعدوا لقتالهم، وما زال مستمراً على ذلك حتى قصده البحرية ورموا النصب في البحر ثم قطعوا رأس الكلب. وهذا سبب تسميته بنهر الكلب واسمه القديم نهر ليقا. وفي هذه السنة توفي الامير علم الدين سنجر الحلبي وكان من الموصوفين بالشجاعة والفروسية، وكان كبير الدولة وتسلط على دمشق اياماً بعد هولاكو وتلقب بالملك المجاهر، وسجن قهراً، ثم اخرجه الملك الاشرف وانعم عليه وكان عمره ثمانين سنة. وفيها طلب الملك الاشرف صاحب حماة وصاحب دمشق الى مصر فحضرا وانعم عليهما، ثم صحبهما الى جهة الكرك، ثم الى دمشق. وفيها سار الملك الافضل من حلب الى دمشق وتوفي بها.

وفي السنة ٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م استرجع امراء الغرب ولايتهم على بلادهم بعد ما كانت خرجت الخلعة الطرابلسية (اي لاهل طرابلس)، ثم ترتبوا

منقسمين الى بدلات، وجعلوا بهذه السنة على درك بيروت تسعين فارساً تقسم ثلاث بدلات كل شهر بدل. ثلاثون فارساً يقيمون في بيروت، وفي انقضاء الشهر يحضر غيرهم. واما ارباب الاتراك فكانت اجناد حلقة بعلبك تتجرد الى بيروت ابدالاً كل بدل عشرون فارساً، وجعلوا لبيروت مناظرة للبحر (منارة) وحمام بطاق الى مدرج دمشق وخيل بذيل. وكانت النار للحوادث في الليل، وحمام البطاق للحوادث بالنهار، والبدل للاخبار وما يتجدد ذلك من خوفهم من الافرنج لئلا يرجعوا. فجعلوا الطريق من بيروت الى دمشق اربع بدلات بدل الى خان الحسين. والثاني الى قرية الزبداني والثالث الى خان معسنون (ميسلون) والرابع منه الى دمشق. ثم قرروا ايضاً ناراً تصل الى دمشق في ليلة واحدة فجعلوا يشعلونها من ظهر بيروت في مكان معلوم فتجاوبها في رأس بيروت العتيقة ومنها الى جبل بوارش (او جبل الكنيسة) ومنه الى بيدس ومنه الى جبل الصالحية ومنه الى قلعة دمشق. وفي هذه السنة خرج للصيد الملك الاشرف صلاح الدين خليل الى تروجة فركب عليه مماليك ابيه بيدر وحسام الدين لاجين الذي كان نائباً بالشام وقرأ سنقر الذي كان نائباً بحلب فلحقوه وهو راكب يسير بقليل من خواصه، فضربه بيدر ثم لاجين حتى قتل. ثم حمله والي تروجة الى القاهرة، ودفنه بمدرسته التي بناها بقرب السيدة نفيسة، وقد هدمها الفرنساويون في غزوة بونبارته سنة ١٣١٤ هـ، واليه ينسب الخان الخليلي. واجتمعت مماليك السلطان، وتبعوا بيدراً وقتلوه، ورفعوا رأسه على رمح، واما لاجين وقراسنقر فاختفيا. وكانت مدة دولة السلطان خليل ثلاثة سنين وشهرين. وفيها اكتشف روجير وباكون بارود المدافع.

الفصل الثالث عشر

في ملك الملك ناصر الدين محمد ابن قلاوون وهو التاسع من ملوك الترك

وجلس بعد السلطان خليل على سرير السلطنة اخوه السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن قلاوون في العشر الاوسط من شهر محرم وهو التاسع من ملوك الترك بالديار المصرية، وقبض على بهادر رأس النوبة، وقوش الموصلي، وطارنطاي الساقي وغيرهم من الامراء المشاركين بقتل الملك الاشرف، فامسكوا جميعاً وقطعت ايديهم وارجلهم ثم صلبوا. وحصلت الشفاعة في حسام الدين لاجين وفي قراسنقر فظهرا واستترا ولم يطلع لهما خبر حتى تسلط الناصر فاخذ لهما الامان واعطاهما الاقطاعات العظيمة، وذلك من نائب الملة الذي ولاه على النيابة وهو زين الدين كتبغا.

الفصل الرابع عشر

في ملك زين الدين كتبغا الملقب بالملك العادل وهو العاشر من ملوك الترك

وفي السنة ٤٩٤ هـ = ١٢٩٤ م انحط الملك الناصر ابن قلاوون عن السلطنة نهار الأربعاء تاسع شهر محرم، وتولى على السلطنة بدله زين الدين كتبغا التركي المنصوري وتلقب بالملك العادل، وخطب له بمصر والشام وزينت له البلاد، وضربت السكة باسمه وهو العاشر من ملوك الترك. فجعل نائبه حسام الدين لاجين، وضبط الملك الناصر محمد ابن قلاوون في قلعة الجبل وحجب الناس عنه. وفي هذه السنة نقص النيل نقصة عظيمة فتبعه الغلاء، وحدث بعده وباء وفناء عظيم. وفيها ثارت الفتنة ما بين نصارى بلاد جبيل من جهة الانشقاق الذي وقع بينهم، وسارت اليهم عساكر الاسلام من نواحي الشام، وحين بلغ الامير يوحنا صاحب جبيل ذلك هرب في البحر واقلع في الليل. وعند الصباح وصلت عساكر الاسلام وحاصرت جبيل، ثم اجتمعت اهل الجبال نحو ثلاثين الف مقاتل وضربوا عسكر الاسلام، وهجم خالد مقدم قرية مشمس، وقتل مقدم عساكر الاسلام، وهزموهم عند مدينة جبيل، فوقعت الاسلام بيد الكمين الذي كان في نهر المدفون الى قرب البحر فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً وشقعوا رؤوسهم كالقلعة. ومن ذلك الوقت سميت تلك الأرض الشقعة (رأس الشقعة)، وقبورهم باقية للآن.

وفي السنة ٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م كان القحط المفرط بمصر لسبب نقص النيل بحيث بلغ اردب الحنطة ماية وستين درهماً، واكل الناس الجيف وعظم الوباءُ، ومات الخلق في الطرق من الجوع، وبلغ الخبز بمصر كل خمس اواق بالدمشقي بدرهم. وصار الغلاءُ بدمشق فبلغت الغرارة مائة وخمسين درهماً، ويقال انه احصي من مات في مصر في شهر صفر فبلغ ما ينوف عن مائة الف، ثم عقبه الرخص في جمادي الاول من هذه السنة. وفيها في ذي القعدة قدم السلطان كتبغا الى دمشق وزينت دمشق لقدومه وسار الى جهة حمص، فاشترى قرية جوسية وهي خراب على طريق بعلبك من حمص وجدد بنائها. ثم عزل نائب الشام ايبك الحموي وولى موضعه مملوكه سيف الدين عزلو. وقبل هذه السنة بأيام عيّن امراءُ الغرب تسعين فارساً، وانقسموا ثلاث بدلات كما سيأتي في اخبارهم. وفيها قدم نحو عشرة الآف من التتر فانزلهم الملك العادل بالحسينية واكرمهم وهم المعروفون بالاويرانية.

وفي السنة ٦٩٦ هـ = ١٢٩٦ م عندما قصد السلطان كتبغا العودة من حمص ومن دمشق الى مصر مع حسام الدين لاجين النائب ومعهما العسكر، وبينما هم سائرون في وادي حماة وثب حسام الدين على تبخاص وبكتون وقتلهما، وكانا جناحي السلطان. ثم ساق لاجين الجيش والخزائن وتبوأ قهرا عرش السلطنة، وبايعوه كلهم ودخل ونزل قصر كتبغا فزينت له مصر.

الفصل الخامس عشر

في ملك الملك المنصور لاجين وهو الحادي عشر من ملوك الترك

وعند وصول حسام الدين لاجين الى مصر اجتمع اليه الامراء فحلفوا له وبايعوه بالسلطنة، وتلقب بالملك المنصور وهو الحادي عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وجعل نائبه بدمشق سيف الدين قبجق المنصوري، وفي مصر مملوكه منكوتمر الحسامي، وفي حلب مملوكه اباغدي شقير، وارسل الملك الناصر محمد ابن قلاوون الذي كان في قلعة الجبل الى الكرك. واما السلطان العادل كتبغا فحينما رأى ما فعله لاجين خاف على نفسه ورجع من وادي حماة هارباً الى دمشق ومعه خمسة مماليك، فخرج عزلو مملوكه الذي كان نائباً على دمشق الى لقاه وادخله الى قلعة دمشق، ثم انه خلع رداءه وكتب الى لاجين طالباً منه الامان، وموضعاً يتآوى فيه فاعطاه صرخد، فسار اليها كتبغا واستقر بها.

رسالة الملك المنصور حسام الدين ايده الله تعالى. ملك بسيفه ربع الأرض المسكون ولم يبلغنا في تاريخ من التواريخ من ادم عليه السلام الى يومنا هذا ان ملكاً ملك من الاقاليم ما ملكه. ولا تيسر له من التأييد ما تيسر له. ونحن سادس ملك من صلبه (كان الكاتب من نسله) وكان قد سبق في تقدير الله تعالى ان يصيب اولاده ممن سلف قبلنا عين ناقدة فوقع بينهم الاختلاف وطال التنازع سنين كثيرة. فاجتمع من بقايا سيوفهم امم مستخلفون يستترون في

الكنف، ويتغيبون في ابعد المضائق. وكان منهم سكان مصر والشام واجتمع بهم من المماليك والخوارج زمرة غرتهم سلامتهم من المغول المشتغلين عنهم، وطفقوا كل مدة يختارون من بينهم مملوكاً من ارذل الاجناس فيملكونه على الاسلام ويحكمونه على رقاب العباد. وحسبوا ذلك غاية تدبير الملك. ولم يعرفوا سبيل النجاة من سبيل الهلاك حتى وصلت نوبة الملك الينا، وزفت عروسها الينا. زين الله قلوبنا بالايمان. وابهجها بانوار السلام وكان من الواجب على المماليك ان يهنئونا بما وهبه الله تعالى لنا من الملك العظيم وهدانا الى الصراط المستقيم. ويرسلون الينا رسلهم بتحف السلاطين، ويجدون في استجلاب مونتنا اوضح القوانين. ولما علموا اننا دخلنا في الاسلام راغبين حسبوا أنهم اذا فتحوا لنا طريق المودة جاءنا اكثر عسكرهم هاربين. ولم يكن لهم من التمييز ان يعلموا ان الملك لله يؤتيه لمن يشاء من عباده. وقد ملك كثير من الكفار اكثر بلاده كما بلغهم عن جنكيزخان، وعن كثير ممن كان. ولو كان الملك بالقوى لكان بنو فاطمة بالخلافة احق واقدر واولى. ولم يرضوا بذلك حتى سلكوا من الهجوم والاقتحام اقبح المسالك. وذكروا ان هذه الطائفة من المماليك لهم اربعون سنة يقصدون الحصون والمدن الضعيفة فيخربونها. حتى انهم خربوا كثيراً من البلاد، وقتلوا عدداً من العباد، ما يعادل اهل مصر والشام. واوضحوا ذلك بنقل الكلام اذ قالوا والمصلحة اننا نشنّ الغارات على الشام من غزّة الى الفرات، ونقتل من فيها، ونبني ما خربوا لنقابل الفاسد بمثله، فما قبلنا مشورتهم وقلنا نحن لا نرضى بفعلهم لئلا نماثلهم، واعرضنا عن ذلك. وقد ارسلنا الى اهل القلاع والجبال والاعراب والاكراد والعشائر بكتب الآمان حتى يكونوا في امان الله تعالى واماننا، واذ رجعت هذه العساكر عن هذه البلاد ردّ كلٌ الى وطنه ورجع الى سكنه، وقصدنا مصلحة الرعايا وحمايتهم فرتبنا مولا جيجك وبشقا ونقا وهلاجر وقرابغا وهلادر مقدمين على الف فارس، وتركناهم على غزة والغور، وامرنا الامير سبا ان يقيم على حلب وحماة في عشرين الف فارس. واعطينا الامير سيف الدين قبجق نيابة السلطنة بدمشق، وبكتمر نيابة السلطنة بطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا والسواحل كلها وصفد، وجعلنا ملك الوزراء، والامراء

ناصر الدين يحيى ناظراً على الدواوين في هذه الاقاليم كلها، فكل من اعطاه اماناً فهو اماننا، وكل جندي اراد خدمتنا فهو آمن وقد امرنا الحكام ان يعينوا الرعية وليتقوا ما اودعه الله لهم في قلوبنا من الرحمة وحسن النية ليطيعوا هؤلاء الامراء طاعة الرعية الموفقة، ولا يتخلف عن طاعتهم احد. فقد اخذنا عليهم العهود بالعدل والشفقة، فان خالف احد وعصا، فلا بد ان يرى ويذوق كاس الردى، والله يجمع قلوب رعايانا على الهدى وان شاء الله تعالى والسلام.

ثم ان غازان اقبل في جيش عظيم وعبر الفرات، وخرج اليه السلطان المنصور لاجين، فكانت المعركة في سابع عشر ربيع الاول من هذه السنة بوادي الخزندار، وهي على ثلاثة فراسخ من حمص فقتل فيها ما فوق العشرة الاف من التتر ولاحت امارة النصر، وثبت السلطان بمماليكه ثباتاً حسناً، ثم انكسرت ميمنة السلطان وخذلوا، وهرب السلطان ومن معه وساروا الى ناحية البقاع، واستولى غازان على دمشق، ودخلت التتر اليها وشرعوا في المصادرة والفسق والظلم، ونهبوا الصالحية وسبوا اهلها، ووقع الحريق، فاحرقوا جامع العقيبة وما حوله وعدة اماكن اخرى، واسروا من الصالحية نحو اربعة الاف نفس. وعملوا المجانيق والثقوب وحاصروا القلعة، فاحرق اهل القلعة دار السعادة ودار الحديث والعادلية والنورية، وخربت تلك الناحية كلها وهرب اهلها، وبقي باب البريد اسطبلاً فيه الزبل نحو ذراع، وحاصر القلعة حصاراً عظيماً ولم يقدر عليها. وصادر اهل دمشق حتى العامة واللحامين، واخذ من الاموال ما لا يحصى عدها. وقتل من اهل دمشق خلقاً كثيراً. وقد جرى على دمشق ما تعجز الاقلام حصره والالسن عن وصفه، وغلت الاسعار وافتقر الخلق، فانا لله وانا اليه راجعون. فيا لها من مصيبة وما اعظمها. ثم رجع غازان من دمشق بالسبي والمكاسب، وقد استغنى عسكره وترك قبجق نائباً بها، وعجز عن اخذ القلعة لشدة عزم نائبها علم الدين ارجواش، ودامت التتر بالشام اربعة اشهر. فهذا ما كان من الملك غازان.

واما السلطان فانه دخل الى مصر مكسوراً ومعه بعض الجيوش المصرية والشامية. وقد ذهبت اموالهم وسلاحهم واثقالهم، وتلفت اكثر خيلهم وتضعضعوا وتفرقوا ونقصوا. ثم ان السلطان فتح بيوت الاموال وانفق على

الجيش نفقة ما سمع بمثلها قط، واشترى الخيل والسلاح وتراجعت العساكر بعضها الى بعض، ووصل السلطان الى العريش والناس في حال شديد، وخاف الغني والفقير واغلقت دمشق وازدحم الخلق بالقلعة واقتسموها بالشبر، وهلك خلق كثير من الثلج والغلاء لا سيما في حلب، وبيع رطل اللحم بدمشق بتسعة دراهم. واشتد الخطب وهربت الخلق وليس الخبر كالعيان، وخرج من دمشق نائبها قبجق وبكتمر السلاحدار، وحضرا الى السلطان فعفا عنهما. ووردت بطاقة السلطان بحفظ اسوار دمشق، فأنا لله وانا اليه راجعون. ويا لها من محنة ومن مصيبة ما اعظمها. ثم انه كانت الحرب بينهما على كتف المسري نهاري السبت والاحد، فانكسرت التتر بحمد الله تعالى وعونه. وجاء النصر وولى التتر مدبرين، وذاعت البشائر، وزينت دمشق. فاين سرور يوم الاحد من غمة السبت. وذلك في ثاني شهر رمضان، والله ما ذاقت اهل دمشق يوماً احلى منه، ولا امر يوم مثل الذي قبله. وكان عدد التتر نحو خمسين الفاً. وكان مقدمهم خطلوشا نائب غازان، وكان غازان في حلب ولم يرجع اليه من عسكره الا دون الثلاثة آلاف لسبب الحفاء والجوع والذل الذي لا يعبر عنه وتفرقوا لبعد المسافات. ووصل السلطان الى دمشق وكان الخليفة معه مؤيداً منصوراً، ودخل دمشق بالسبايا والاموال وردها الى اربابها، وعيّد عيد الفطر بدمشق، ثم سافر الى مصر ودخل قلعة الجبل اخر شوال.

وفي السنة ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧ م جهز السلطان لاجين عساكره الى بلاد الارمن وفتحت جميعها الا سيس. وفي ١٨ شوال توفي القاضي العلامة جمال الدين محمد ابن سالم ابن واصل قاضي القضاة الشافعية بحماة ومولده سنة ٦٠٤.

وفي سنة ٦٩٨ هـ = ١٢٩٨ م وثب جماعة من المماليك الصغار على الملك المنصور حسام الدين لاجين اول الليل وهو يلعب بالشطرنج وقتلوه في ١١ ربيع الثاني. وقتلوا نائبه منكوتمر، وجلس موضعه في النيابة طغجي الاشرف مقدم المماليك وكانت مدة ملكه سنتين وثلاثة اشهر.

الفصل السادس عشر

رجوع الملك الناصر محمد ابن قلاوون
الى الملك ثانية

ثم اجتمع الامراء وقتلوا طغجي النائب واعادوا الملك الناصر محمد ابن قلاوون من الكرك، واستقر على الملك رابع عشر جمادي الاول، فاتفق مع الامراء على ان يكون سيف الدين سلار نائباً على السلطنة بمصر، وفوض نيابة دمشق الى جمال الدين اقوش الافرم. وفي هذه السنة توفي الملك المظفر محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب، وحين ذل بيت ايوب اعطى السلطان حماة لقراسنقر فسار اليها من الصبيبة. وفي هذه السنة سار الملك الناصر الى بلاد غزة. فأقام هناك حتى نهاية السنة، وكان يتفقد المملكة سلاروالجاشنكير استاذ الديوان. وفيها هرب قبجق وبكمتر السلحدار ولحقا بغازان ملك التتر فأكرمهما، ووعدهما بقتل السلطان ونائبه واضطراب الامور فعوَّل على المسير الى بلاد الشام.

وفي السنة ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م لما سمع غازان (وروي قازان) بن ارغون بن ابغا ملك التتر باختلاف الامراء والعساكر سار بجموع عظيمة من المغول والكرج والمرتدة، وعبر الفرات وداس بجموعه بلاد حلب وحماة ووادي مجمل المروج، وخرج اليه السلطان محمد قلاوون في عساكر مصر

والشام والعرب والتركمان. وفي سابع وعشرين ربيع اول من هذه السنة كانت الحرب بوادي الخزنادار وهي في شرقي حمص على بعد ثلاثة فراسخ، واحاطت التتر بعسكر السلطان وهزموه هزيمة عظيمة. وتبعهم التتر الى ناحية البقاع حتى الى الديار المصرية، واستولى غازان على بلاد الشام. ودخلت التتر الى دمشق وغزة والقدس وبلاد الكرك، وحكموا على كل الشام ما خلا قلعة دمشق التي حاصروها اشد حصار، ونائبها الامير سيف الدين ارجواس المنصوري اقام بحفظها اتم قيام ولم يسلمها (هنا يذكر الامير حيدر خبراً عن أعمال التتر وعن حال الشام والغلا بالحرف الواحد لفظاً نظير ما ذكره عن حرب لاجين للتتر ولا نعلم هل حدثت مرتين او حدثت مرَّة واعادها بالغلط فلم نر لزوماً لمراجعتها) ثم انه حينئذ صارت المصالحة بين الملك الناصر ابن قلاوون وبين سلار والجاشنكير والالبكي. فلما بلغ ذلك التتر اخلوا الشام وساروا الى بلادهم فاحسن الملك الى من حضر اليه من الولاة والعساكر، وقرر امور الشام، ورتب النواب في دمشق وحلب وحمص وحماة وغيرها، ثم عاد الى الديار المصرية. وفي هذه السنة توفي الملك عثمان الغازي وكانت مدة ملكه سبع وعشرين سنة وقد ذكر قصته تحت سنة ٦٨٦ هـ فلا لزوم لمراجعتها هنا.

وفي السنة ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م عاد التتر وقطعوا الفرات وعاشوا في بلاد حلب، فجفلت اهل حلب وحماة وهربوا نحو الشام، ودخلت التتر بلاد سرمنة والمعرة وغيرهما. فخرج السلطان بالعساكر المصرية والشامية الى العوجاء. ومن شدة الامطار وزيادة الوحول عجزت العساكر عن المسير فرجعوا الى مصر، وبقي التتر نحو ثلاثة اشهر بنهب وقتل في بلاد حلب، ثم شهر ايار (مايو) رجعوا الى بلادهم بغنائم كثيرة. وفي هذه السنة وصل الى القاهرة وزير المغرب وهو في طريقه الى الحج، فاكرمه واحترمه جميع امرائها وتحدث معهم عن اليهود والنصارى، وقال أنهم في بلادنا بغاية الذل وانهم لا يركبون سائقة ولا يستخدمون بوظيفة في الحكومة، ونصارى بلادكم ويهودها يلبسون افخر الملابس ويركبون البغال والخيول الجياد، ويستخدمون في اجل المناصب ويحكمون على رقاب المسلمين، وان عهد ذمتهم قد انتقض من

اول سنة للهجرة. وذكر لهم كلاماً كثيراً من مثل هذا وما يشبهه، فاثر كلامه في السلطان وارباب الدولة. ولما كان يوم الخميس الكبير جمع النصارى واليهود ورسم عليهم ان لا يستخدموا في الاعمال السلطانية ولا عند الامراء ما لم يسلموا وعزل المستخدمين منهم، وان يغيروا عمائمهم فيلبس النصارى عمائم زرق، واليهود عمائم صفراء، وعيّد النصارى بمصر عيداً مشوماً وكان القائم في ذلك ركن الدين الجاشنكير، ثم امر بغلق الكنائس بمصر والقاهرة، وضربوا على ابوابها الخشب والمسامير، فاسلم منهم جماعة كبيرة. ثم امر السلطان ان يكتب بذلك الى جميع انحاء السلطنة من دنقله الى الفرات. واما اهل الاسكندرية فلما وصلهم هذا الامر سارعوا الى خراب كنيستين عندهم ذكروا عنهما انهما مستجدتان في عهد الاسلام، وكان فيها دور كثيرة من دور النصارى واليهود اعلى من دور المسلمين فهدموها. ووصل المرسوم الى دمشق بذلك، فجمعوا النصارى واليهود وقرأوا عليهم المرسوم، ومنعوهم من الخدمة. ومن ركوب الخيل والبغال ولبسوهم الغيار (علامة اهل الذمة في ذلك اليوم) الازرق للنصارى والاصفر لليهود والاحمر للسامريين، وثاني يوم ظهروا بذلك الزي الغريب. وفيها توفي عز الدين ايدمز وهو الذي كان نائباً على الشام في ايام الملك الظاهر. وفيها سقط بماردين برد على صورة حيات وعقارب وطيور ورجال واسود. وكتب في ذلك محضر وقريء على قاضي ماردين ونقل ثبوته الى قاضي حماة. وفي جمادي الاول توفي امير المؤمنين الحاكم بأمر الله احمد العباسي بمصر، ودفن عند السيدة نفيسة، وكانت خلافته اربعين سنة وشهراً وكان عالماً فاضلاً خطيباً بارعاً، وخلفه ابنه امير المؤمنين المستكفي بالله، واسمه سليمان وكنيته ابو الربيع ولقبه المستكفي بالله وهو تمام الأربعين من خلفاء بني العباس. والثالث منهم بمصر. عهد بالامر اليه ابوه، وقرئ تقليده بعد مأتم والده، وخطب له على المنابر وذلك في جمادي الاول، وفيها جاء جراد الى دمشق لم يسمع بمثله ترك غالب اشجار الغوطة عصياً مجردة ويبست اشجار لا تحصى، وصقع الزرع من مطر لم يعهد بمثله وصقع دود القز كله.

وفي السنة ٧٠١ هـ = ١٣٠١ م نزل الافرنج الى نهر الدامور بين صيدا

وبيروت وقتلوا هناك الامير فخر الدين ابن جمال الدين التنوخي، واسروا اخاه شمس الدين عبد الله فاستفكه الامير ناصر الدين الحسين ابن خضر بثلاثة الآف دينار. ثم قدموا الشكوى الى نائب دمشق ضد الجرديين واهل كسروان، فجمع جمال الدين الافرم نائب دمشق النواب من حماة وطرابلس وخرج بالعساكر من دمشق لقتال الجرديين والكساروة. فاجتمع مقدمو الجبال ولاقوهم الى نواحي جبيل ولم يكن الّا ثلاثماية شخص من كسروان، ونصارى بلاد جبيل الجرديين، وكانت الحرب بينهم عند مدينة جبيل، وكان المقدمون المعروفون من الجبال خالد مقدم مشمش، وسنان واباه مقدما ايليج، وسعادة وسركيس مقدما لحفد، وعنتر مقدم العاقورة، والبعض من كسروان. فكسروا عساكر الشام وطرابلس وغنموا مالهم وخيلهم، ثم قدمت الاكراد من الزواق لنجدتهم فوقعوا في كمين الجرديين على الفيدار، فلم يخلص منهم الّا القليل. وكان مع جيش المسلمين امراء الغرب التنوخيون، فقتل نجم الدين التنوخي واخوه شهاب الدين احمد ولدا جمال الدين حجي، ثم غزا الجرديون بلادهم فاحرقوا عين صوفر. وشمليخ وعين زونية. وبحطوش وجيرتها من بلاد الغرب. وقتل في هذه الوقعة من الجرديين بنيامين مقدم حردين فدفنوه عند باب الاركان في جبيل. ومن شدة حزنهم عليه لم يرفعوا علماً ولا ضربوا طبلاً ولا نفخوا في بوقٍ. ثم بعد ذلك صعد الجرديون الى معاد واقتسموا الغنائم، فقصد المقدم عنتر الطمع على رفاقه، وصارت بينهم منازعة عظيمة ورجع عنتر الى العاقورة. وبعد وصوله مات.

وفي هذه السنة دخلت التتر الفرات وقصدوا بلاد الشام فخرج للقاهم نائب حلب في العساكر، وحدثت بينهم حروب عظيمة قتل بها خلق كثير من الفريقين بقرب حماة. ثم ان غازان ملك التتر استولى على حلب، وارسل خطلوشاه مع العسكر ومعه ما ينوف عن ثلاثماية طبل خانا الى دمشق، فقدم السلطان بالعساكر المصرية، واجتمع الشاميون مع العرب والتركمان خارج دمشق، ووقع الحرب بينهم وبين التتر يومين بليليهما. فقتل من الفريقين خلق لا يحصي عددهم الا الله، وكانت الهزيمة على التتر. فقصدوا التلال والجبال التي بطرف مرج الصفر، واحاطت بهم عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقاً

كثيراً، ولم يرجع من عساكرهم الى غازان في حلب الا دون الثلث. ثم رجع غازان الى بلاده. ودخل السلطان دمشق منصوراً ومعه الخليفة، وبعد ايام رجعا الى مصر ودخلا قلعة الجبل.

وفي السنة ٧٠٢ هـ = ١٣٠٢ م فتحت جزيرة ارواد وهي بقرب اللاذقية. وحوصرت يوماً، فقتل فيها من الافرنج نحو الفين، ومرّ السلطان على دمشق بالاسرى وهم نحو خمسماية اسير. وفيها رجع غازان من حلب مكسوراً بعد الموقعة المقدم ذكرها التي جرت بينه وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد ذكرت في السنة السالفة. ويوم الاضحى من هذه السنة توفي الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة بحماة، ثم نقل الى تربته بسفح قيسون وعمره سبع وخمسون سنة. وكان ديناً شجاعاً كريماً حسن الخلقة، واستقر مكانه قبجق. وفيها توفي قاضي القضاة تقي الدين محمد ابن رقيق العيد قاضي قضاة الشافعية بمصر، واستقر مكانه قاضي القضاة بدر الدين المحمودي المعروف بابن جماعة. وفيها في ذي الحجة كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام هلك بها خلق كثير (وخربت من اسوار حمص شيئاً كثيراً وبعض اسوار حماة) وطلع البحر الى وسط الاسكندرية واخذ الرجال والجمال، وغرقت مراكب كثيرة. وسقطت بمصر دور لا تحصى.

وفيها قدم امير سلاح في ثلاثة آلاف من مصر، وسار معه عسكر دمشق وقبجق في عسكر حماة وسندمر في عسكر الساحل، ونزلوا على تل حمدون واخذوها واسروا منها خلقاً كثيراً. وضربت البشائر (لا اعلم ان كانت هي بحمدون في لبنان أو غيرها والمرجح غيرها لان بحمدون لم تكن يوماً مدينة كبيرة أو حصناً يذكر حتى اجتمع عليها كل هؤلاء الامراء وعساكرهم). وفيها في شوال منها، توفي سلطان العراق غازان ابن ارغون ابن ابغا ابن هولاكو ابن نولي ابن جنكيزخان، وكانت وفاته بقرب همدان مسموماً وكان شاباً لم يكتهل (وكان تملكه ثمان سنين وعشرة اشهر) وتملك بعده اخوه خربندا محمد. وغازان المذكور هو الذي خرج على السلطان ابن قلاوون وجرى بين العسكرين من الامور ما يعجز اللسان عن وصفه. وكان قبل موته

قد جهز الفرسان للذهاب الى أعمال الشام، وعزم على التوجه اليها مرة رابعة فادركته المنية.

وفي السنة ٧٠٤ هـ = ١٣٠٤ م ارسل آقوش الافرم نائب دمشق الى الجبلية والكساروة الشريف زين الدين ابن عدنان لاجل الصلح مع التنوخيين وان يرجعوا الى الطاعة. ثم ارسل تقي الدين ابن التميمي وبصحبته بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق. فافتى العلماء ضدهم لانهم فتكوا بجيش الاسلام ولم يرجعوا الى الطاعة. (ثم طلب الشيخ تقي الدين التميمي الى مصر وعقد له مجلس فاودع السجن). فتجردت العساكر من كل بلاد الشام. ولم تزل تزداد الجموع من كل ناحية الى نهاية السنة.

وفي السنة ٧٠٥ هـ = ١٣٠٥ م يذكر ابن الحريري وابن سباط انه سار يوم الاثنين ثاني محرم اقوش الافرم نائب دمشق بخمسين الف فارس وراجل الى جبال الجرد وكسروان المقابلة مدينة بيروت، فاجتمع رجال الدروز الجرديين، وكانوا عشرة امراء بعشرة الاف مقاتل والتقوا عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم فكانت الهزيمة على الامراء، فهربوا بحريمهم وارزاقهم ونحو ثلاثماية رجل من أتباعهم، واجتمعوا في المغار غربي كسروان المعروف بمغارة تيبية وهي فوق انطلياس بالقرب من مغارة البلانة، فحموا نفوسهم بالقتال. ولم تقدر العساكر عليهم. ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا من المغارة فامر نائب دمشق ان يبنوا على باب المغارة سداً من الاحجار. ثم هالوا على بابه تلاً من التراب والاحجار، وجعلوا حارساً عليهم فهلكوا داخل الردم. ثم احاط العسكر بتلك الجبال من كل الجهات ووطئوا ارضاً لم يكن احد صعد اليها. واخربوا القرى وقطعوا الكروم. ونهبوا وقتلوا كل من وجدوه فخربت تلك الجبال المنيعة وذلت قلوب اهلها. وفي ثامن عشر جمادي الاول ركب علاء الدين البعلبكي، وسيف الدين بكتمر، وبدر الدين اختاش، وحسام الدين لاجين، وعز الدين خطاب العراقي وتوجهوا لاجل بناء الجبال المذكورة وحفظ ميناء البحر الى بيروت.وفي هذه السنة توقف المطر حتى الربيع وصار ثلج عظيم فعدمت الفواكه.

وفي السنة ٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م استقر التركمان في ساحل بيروت، وهم

ال عساف وكان حدودهم من انطلياس الى مغارة الاسد وجسر المعاملتين تحت غزير، وكانوا يمنعون من يستنكرونه عن العبور في نهر الكلب الّا بتذكرة مرور من المتولي ام من امراء الغرب، وجعل التركمان المذكورين ثلاث بدلات كل بدل مائة فارس لاجل الدرك (او الحراسة والملاحظة). وكانوا ينزلون في انطلياس وجونية وفي البرج الذي فوق نهر الكلب مما يلي القبلة، وازواقهم حوله وهي المعروفة بزوق العامرية، وزوق الخراب وزوق مصبح، وزوق مكاييل، على اسماء مقدمي الازواق. واقاموا بنايات شهيرة وبساتين في عين طورة وعين شقيق يصيفون فيها. وقيل ان جسر المعاملتين من بناء سليمان ابن معراب وهو الذي بنى حصن معراب شرقي غزير، ويسمى برج المعاملتين لانه بين برج قصيبة وبرج جونية، وكان يسمى قديماً جسر الدخلة كما سميت البلاد التي استوطنها كسرى كسروان[1]. وفي هذه السنة توقف المطر من رمضان الى رمضان فلم تمطر في فصل الشتاء ولا في الربيع فخربت حوران ومرج ابن عامر من العطش (القيظ). ثم بعد ذلك استمر المطر شهرين فصقع الزرع ودود القز ولم يحصل منهما غلة الا القليل. وفيها توفي الامير بدر الدين بكناش الصالحي امير صلاح وعمره سبعون سنة وقيل ثمانون سنة وكان قائداً لجيوش الفرات موصوفاً بالعقل والشجاعة وحب الخير.

وفي السنة ٧٠٧ هـ = ١٣٠٧ م وصل الامير حسام الدين مهنا الحياري البدوي الى القاهرة وحضر امام السلطان، فاكرمه وخلع عليه وخاطب السلطان في امر تقي الدين ابن تيمية، فأجاب سؤاله فيه. وحضر عندئذٍ بنفسه الى الجب واخرجه منه، ونزل بدار سيف الدين سلار. وبعد سفره عقد مجلساً

---

(١) جاء العسافيون التركمان الى كسروان بعد الثورات الكسروانية حيث انعم عليهم المماليك بحكم المنطقة بشكل اقطاعي. وقد شجع بنو عساف المسيحيين في الشمال للمشاركة في إعمار كسروان بعد ان فرغت هذه المنطقة من سكانها الشيعة، وبدأ مسيحيو الشمال يتوافدون الى كسروان وجبيل. ونظراً للصراع الاقطاعي الذي كان قائماً بين التنوخيين الدروز، والعسافيين السنة والذي ادى الى اضعاف الطرفين، تمكن الموارنة من بسط نفوذهم فعلياً على كسروان.

عظيماً بالقاهرة، وتكلموا مع ابن تيمية، وجهزه السلطان الى الشام فحبس في قلعة دمشق وتوفي فيها. وكانت وفاته ليلة الاثنين في عشرين ذي القعدة سنة ٧٢٧ هـ. وهو الشيخ الامام العالم تقي الدين احمد ابن شهاب الدين عبد الحليم ابن مجد الدين عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحراني الدمشقي، وتوفي بقلعة دمشق في الغرفة التي كان مسجوناً بها، وغسلوه وكفنوه واخرجوه من القلعة، وصلى عليه بباب القلعة الشيخ محمد ابن تمام. ثم اتوا به الى جامع دمشق فأقفلت جميع ابواب دمشق وامتلأ الجامع اكثر من يوم الجمعة. وحضر الامراء والحجاب وصلوا عليه صلاة الظهر، وحمله الناس على رؤوسهم وخرجوا به من باب الفرج وبعض الناس خرجوا من باب الفراديس وباب النصر وباب الجابية، ودفن بمقبرة الصوفية بجانب قبر اخيه شرف الدين وعمره سبع وستون سنة. وفيها توفي الامير سيف الدين سلار ابن عبد الله الصالحي المنصوري بقلعة الجبل (في القاهرة) ودفن في رابع وعشرين جمادي الاول من السنة المذكورة بتربته التي انشأها الجاولي ظاهر القاهرة عند الكبش. وخلف من الاموال والجواهر ما لم يتركه احد قبله، واستخلص السلطان امواله وذخائره. وقيل انها كانت ثلاثماية الف الف دينار، وشيءٌ كثير من الجواهر والحلى والسلاح وغير ذلك. وكان اولاً مملوكاً للملك الصالح علاء الدين علي ابن قلاوون، ولما مات الصالح استمر في خدمة الملك الاشرف كجك وبقي عنده مكرماً الى حين قتله، واعطاه الله من الاموال ما لا تحصره الاقلام. وذكر انه كان يدخل له كل يوم من ملكه الف دينار ومن القطائع والاجارات والحمامات تكملة ماية الف اخرى كل يوم. وكان السلطان قد اعطاه الكرك والشوبك واهتم بأمرهما، ونقل اليهما ذخائر كثيرة، فلما عاد السلطان الى الملك استوحش من الكرك وحضر الى السلطان بنفسه بجماعة قليلة من مماليكه، فعند حضوره عاتبه السلطان لكونه حضر بغير مرسومه، ورسم السلطان انه ينزل في بعض الدور، ثم جهز له السلطان طعاماً فأبى الاكل واظهر الكدر. فلما علم السلطان بذلك امر ان لا يعودوا يحضروا له شيئاً من المأكل فبقي اياماً ومات جوعاً. وفي مخازنه فوق الثلاثماية الف اردب حنطة، وقيل انهم اتوا اليه وهو في نزاع الموت فقيل له قد عفا عنك

السلطان فوقع ميتاً، وقيل انهم وجدوه قد اكل قطعة من حذائه. وكان لا يخرج عن الشرع الشريف ويسوس مملكته احسن سياسة، وكان اسمر اللون لطيف القد اصيل الجد لحيته في حنكه، وكان ظريفاً في لبسه ينسب اليه نوع من اللباس وكذلك في المناديل والقماش والخيل والات الحرب. قال المصنف رأيت بخط الشيخ علم الدين البرزالي قال : دفع اليَّ المولى جمال الدين ابن الغويرة ورقة فيها حساب بعض اموال سلار وقت الاحاطة بداره في ايام متفرقة من التحف والجواهر والاموال شيءٌ يكل عن وصفه اللسان قد اقتصرنا الشرح عنه لزيادته. هذا فضلاً عما وجد عنده من الغلال والخيل والجمال والاغنام والأملاك والمماليك والعبيد والجواري، ومع هذا كله مات جوعاً.

وفي السنة ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م في شهر رمضان خرج السلطان محمد متظاهراً انه متوجه الى الحجاز، ولما وصل الى الكرك اقام بها، وجمع خواص دولته واعلمهم بذلك، وارسل نائب الكرك جمال الدين اقوش الى الديار المصرية يعلم الناس ان السلطان كره الاقامة بمصر لتغلب بيبرس وسلار عليه وتجاوزهم الحدود، ولم يتركوا للسلطان غير الاسم وارسل مرسوماً الى مصر يأمر الناس باجتماع الكلمة والطاعة.

الفصل السابع عشر

في ملك المظفر ركن الدين بيبرس وهو الثاني عشر من ملوك الترك

وبعد ايام من وصول نائب الكرك بمرسوم السلطان اجتمع الامراء واتفقوا على تمليك بيبرس الجاشنكير على عرش المملكة وذلك يوم السبت في ٢٣ شوال، وتلقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس وهو الثاني عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وعينوا الملك الناصر نائباً بالكرك وخطب له بالقاهرة ومصر.

وفي السنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م لما بلغ السلطان محمد جلوس بيبرس على سرير السلطنة خرج من الكرك في شهر رجب وقصد دمشق ليسترد السلطنة لنفسه، فلما قرب من دمشق ارتعب نائبها جمال الدين الافرم، وهرب الى قلعة شقيف ثيرون وخرج الى لقاء السلطان محمد الامير سيف الدين قطلوبك، وبهادر، وبيبرس القلاب، وبيبرس المفتون وشرعوا في اصلاح العصائب، وارسل الامراء جمعاً غفيراً لملتقاه. وزينت دمشق وحصل لاهلها غاية السرور فنزل في القصر الاكبر، وارسل الامان الى الأفرم حيث طلبه، وحضر بعد اربعة ايام فاكرمه، واقره على نيابة دمشق. وحين قدم النواب من الولايات وهم قفجق من حماة، واستدمر من طرابلس، وقراسنقر من حلب تلقاهم السلطان بالبشاشة وخلع عليهم، ورد الذين عزلهم بيبرس الجاشنكير، وخطب له في جميع مدن الشام. ثم خرج السلطان من دمشق يوم الثلثا ثالث

رمضان ومعه القضاة والنواب وقصد مصر (ولما وصل الى غزة جاءته امراء مصر اولاً فأولاً طائعين وارسل بيبرس يطلب الامان وهرب الى جهة الصعيد وخرج سلار (وهو غير سلار الذين مات جوعاً) لملاقاة السلطان.

وجلس السلطان محمد قلاوون ثالث مرة على سرير السلطنة يوم عيد الفطر، وخرجت البشائر في كل البلدان والاقاليم. ثم ارسل الافرم نائباً الى صرخد، واستناب بمصر بكتمر خوكندار، وبدمشق قراسنقر المنصوري، وبحلب سيف الدين قفجق المنصوري وبطرابلس علياً ابن تامر الساقي، واما السلطان بيبرس، فأقره السلطان محمد بصهيون، وكانت مدة سلطنته بمصر احد عشر شهراً. وفي هذه السنة هاج بحوران اليمنية والقيسية والتحم القتال بينهما فقتل خلق كثير من الفريقين.

وفي السنة ٧١٠ هـ = ١٣١٠ م استناب السلطان بحماة عماد الدين اسماعيل الذي تلقب بالمؤيد صاحب التاريخ، وتحوَّل من صرخد الى نيابة طرابلس. وفيها تولى دمشق كرامة المنصوري عوضاً عن قراسنقر، وفي جمادي الاول تحول عنها فاستناب فيها جمال الدين اقوش الافرم الذي كان نائباً في الكرك. وفيها نزل عسكر على حدود بشرة وصار منه ضرر على القرية وجميع البلاد التي تجاورها. وكان العسكر المذكور قادماً من الشام الى طرابلس على طريق الجرد. وعاد الملك العادل من دمشق الى مصر. وحصل حرب بين انكلترا وفرنسا.

وفي السنة ٧١٢ هـ = ١٣١٢ م امر السلطان بان يتوجه جيش جمال الدين الافرم من الكرك ويصحبه عدة امراء من دمشق ويكون مقدمهم الحياري البدوي ومعه نائب طرابلس وقراسنقر نائب حلب وثلاثة امراء من مصر مع مماليكهم الى خدمة خربند ملك التتر، فلما ذهبوا ووصلوا اليه احتفل بهم واكرمهم. وفي اول رمضان زحفت التتر الى جهة بلاد الشام وعبروا الفرات فذعرت منهم الناس ودخلت اهل الغوطة والحواضر وداريا وبلبيس الى داخل البلد، ونزل خربند بالرحبة، وبعد حصار خمسة ايام بالمجانيق ملكها ورجع الى البلاد، وعيّد السلطان عيد رمضان بمصر وركب الى دمشق، ومن

هناك سار الى الحجاز ومعه الملك المؤيد. (ذهاب الملك الناصر للحج مع الملك المؤيد كان سنة ٧١٩ هـ ولعله ذهب مرتين).

وفي السنة ٧١٣ هـ = ١٣١٣ م قدم السلطان من الحجاز الى دمشق في حادي عشر محرم. وعلى يد قطب الدين والامير تنكز تأرخت الاخبار وتدونت المقاطعات بمصر والشام للامراء والمقدمين والجيوش، وحضر كل واحد منهم فتقلد وظيفته، وانصرف الى محله. ولما رجع السلطان الى القاهرة كان برفقتِه عماد الدين اسماعيل ابن الافضل نور الدين علي الايوبي صاحب حماة، فولاه عليها مكان ابيه واجداده، وان يخطب له بها، ومشى في خدمته ارغون نائب السلطنة. وعند توجهه الى حماة ارسل السلطان كتابة الى نائب دمشق والى سائر النواب ان يكتبوا لهُ « يقبل الارض » وتلقب بالملك المؤيد. وفيها وصل الخبر ان ملك الروم جهز لخربند ملك التتر شخصاً طوله خمسة عشر ذراعاً، وان المذكور لم يعرف لغة، ولم يتكلم، وانه اذا جاع بكى، واذا شبع ضحك والله اعلم. ثم وصلت الاخبار الى دمشق بحفر النهر الذي سعى فيه سودون نائب حلب، وان طوله من نهر الجاشور الى نهر قويق اربعون الف ذراع، وانه انفق عليه ثمانماية الف درهم. النصف من مال النائب المذكور. والنصف من مال السلطان. وفيها توفي خربند ابن ارغون ابن ابغا ابن هولاكو ملك التتر وعمره خمس وثلاثون سنة. وكان قبل موته قد اظهر الترفض وامر بأعمال السيف في اهل باب لازج لامتناعهم من اقامة الخطبة على شعار الشيعة، ومات بهيضة شديدة، وملكوا بعده ولده ابا سعيد. وفيها التجأ حميصة ابن ابي تمام الحسيني المكي الى ابي سعيد ملك التتر وطلب منه جيشاً حتى يغزو به مكة، وساعده جماعة من الروافض. وكان قد عين مقدماً اسمه الدلقندي ومعه اربعة آلاف فارس، وعوّلوا على ان يملكوا مكة، ويتوجهوا منها الى المدينة، ويتعرضوا لنبش ضريح ابي بكر وعمر وشاع ذلك، واغتمّ اهل السنة لذلك غماً شديداً، ثم ان الامير محمد ابن عيسى ابن مهنا الحياري جمع جمعاً كثيراً من العربان وقصد المقدم المذكور وباغته فكسر عسكره ونهبهم وشتت شملهم، واخذ الفؤوس والمعاول التي كانوا هيأوها لنبش ضريح ابي بكر وعمر، وكتب الى السلطان بذلك. وكان لمحمد المذكور

مدة ببلاد التتر، وقد خرج عن طاعة السلطان واستأذن في القدوم، فاذن له بالحضور، فحضر الى دمشق فأكرمه النائب وجهزه الى باب السلطان مكرماً. يذكر بارونيس في تاريخه انه بهذه السنة ابتدع البارود الراهب المدعو برتوليوس الطبيب من بلاد المجر، وكان اولا يصفه دواء، في حين جمع اجزاءه وبدا ينشفها على النار احترق البارود، وتحقق ان النار تصعده فابتدأوا يستعملونه في الحرب وفيها هزمت الانكليز ملك فرنسا لويس.

وفي السنة ٧١٧ هـ = ١٣١٧ م بنى الامير ناصر الدين حسين ابن خضر داراً شريفة في اسفل قرية اعبيه ببرج وحمام وجنينة اجرى لها الماء. وفيها استقرت شرقي بعلبك بعد الظهر سحابة عظيمة ذات برق ورعد ومطر غزير وبرد في السابع والعشرين من صفر سالت منها الاودية، فانقسم المجرى قسمين : قسم جرى من جهة الشرق فتجمع منه بحيرة عظيمة على السور حتى قاربت شرفاته وارتفعت وانتهت الى النهر. والقسم الثاني عم البلد من جهة الشرق بشمال بين باب دمشق وباب نحلة فخرب السور، واخذ برجاً بتمامه وكماله طوله خمسة عشر ذراعاً وعرضه كذلك حملته الماء وهو على حاله نحو خمسماية ذراع، واخرب السيل جميع ما كان في طريقه. فجعله خاوياً وللأرض مساوياً. ولم يزل حتى دخل الجامع الاعظم وهدم الجدار الذي غربي الجامع، واخذ جميع ما عليه من البنيان حتى بلغ خندق القلعة وهدم سور البلد الغربي، وخرج الى البساتين. وفي هذه السنة توجه من دمشق بدر الدين ابن معبد الى بعلبك لرؤية هذه الحادثة والكشف عنها فتحررت بخطه شهادة الشهود الذين حضروا ان السيل اخذ من البيوت والعمار والخراب نحو ثمانمائة وخمسة وتسعين بيتاً، ومن الحوانيت مائة واحدى وثلاثين، ومن البساتين اربعة واربعين. ومن الجوامع والمساجد والمدارس ثلاث عشرة، ومن الافران سبعة عشر عدا الاموال التي هلكت والناس الذين غرقوا. واخبر الثقاة أنهم رأوا في اوائل السيل عموداً عظيماً من نار ودخان نازلاً من السماء، وسمعوا من الصراخ في ذلك الان ما يضعف الابدان. وفي هذه السنة ثار ريح شديد بين الركيل وتل زبيد بقرب طرابلس وعاصف من جهة البحر كونت بالسحاب عموداً غير متصل بالجو بصورة تنين استقر على

بيوت التركمان ساعة من الزمان ينتقل يميناً وشمالاً، ولم يترك من البيوت ولا من الاثاث ولا من البشر غير ثلاثة عشر رجلاً تجرحوا من صدمات الاخشاب والحجارة. وحمل الريح جملين غاب بهما عن الابصار، وكان على جانب الزوق نازلٌ قبيلة من العرب خطفت منهم الزوبعة اربعة جمال والقتها في البحر، ثم وقع مطر وبرد على هيئة شقف حجارة مثلثة ومربعة ثقل البردة ثلاثة اواق وتحرر ذلك بخط قاضي طرابلس. وفي هذه السنة ظهر من النصيرية بناحية اللاذقية رجل داهية على الخلق ادعى انه المهدي وتبعه نحو ثلاثة آلاف رجل، فقتل منهم مائة وعشرون نصيرياً، ثم قتل هو ايضاً. وفيها بيع الورد بدمشق كل عشرة ارطال بدرهم. وفيها برزت مراسيم سلطانية بتبطيل استعمال الخمور في بيروت وصيدا وكل السواحل وقرئت المراسيم السلطانية بذلك، وكثر الدعاء للسلطان. وفيها ملكت الافرنج دمياط.

وفي السنة ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م يقول ابن الحريري انه زحف جراد عظيم، ثم تبعه غلاء وقحط مفرط في الموصل واربد والجزيرة وديار بكر ومنى حتى بيعت الاولاد للتر، واشتري كل ولد بعشرة دراهم، وباع رجل ولده برغيف، فما اكله ثم مات. وكانت تباع جرأة خبز بدرهم. وقيل الغلاء استمر بالموصل اربع سنين، وان رجلاً اكل هو وزوجته في نهار واحد بثمانية عشر درهماً، وأكلوا في تلك البلاد الجيف، ومات خلق لا يحصى، وخربت اربد وخلت القرى من سكانها بسبب الجوع. وفي هذه السنة عند طلوع الشمس جاء بدمشق سيل كثير العكر لم يُرَ سيل اشد عكراً منه، وكان الماء يشبه الطحينة. وقيل ان رطل الماء كان يحتوي على ثلاث اواقي تراب، وكان وقوع هذا السيل بأرض ابل السقي، وفي مرج بردى في شهر شعبان. ثم ان نهر بردى بقي ثلاثة اشهر ليس فيه قطرة ماء وفيها اتت نجدات للملك الكامل فاخرج الافرنج من دمياط.

وفي السنة ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م خلع السلطان على صاحب حماة عماد الدين اسماعيل ابن علي ولاه ولقبه بالمؤيد ذكر ذلك الوليد ابن الشحنة تحت سنة ٧١٩ بأنه ولاه سلطنة حماة يخطب له فيها ولا يرد عليه توقيع ولا منشور من القاهرة، واركبه بشعار السلطنة والغاشية والشبابة ومشى في خدمته ارغون

نائب الملك وامراء القاهرة في يوم مشهور، وتوجه الى حماة من يومه، ولقبه بالملك الصالح وامر النواب كما سبق ان يكتبوا له هكذا .. « يقبل الارض ». وفيها توفي شيخ الحرم امام المقام رضا الدين ابن محمد ابن ابراهيم البطري الشافعي وكان من العلماء العالمين، روى عن ابن شعيب وابن الحميري وعمره ست وثمانون سنة. وفي هذه السنة مسك السلطان وكيل كريم الدين المصري وقد ازال سعادته، ثم شنقه. وكان قد بلغ من التقدم والرفعة ما لا مزيد عليه. وكان يركب في خدمته عدة امراء وداره ملآنة من الاموال، وكان نصرانياً ثم اسلم، وكان داهية وذا كرم وسكون والله اعلم بطويته. وهو الذي بنى جامع كريم الدين بالقبوات خارج دمشق، وبنى جامع القابون. ومرض في هذه السنة قبل شنقه وعوفي، وزينت له القاهرة وتصدّق بمال جزيل، ومات بعض الناس من الازدحام على صدقته وعاش سبعين سنة. والقابون محلة خارج دمشق. وفيها كانت وفاة الامير سعد الشهابي، وتولى بعده ولده الامير حسين.

وفي السنة ٧٢٥ هـ = ١٣٢٤ م جهز السلطان محمد جيشاً الى اليمن نحو الفي فارس ومقدمهم بيبرس الحاجب، ودخلوا الى زبيد محمد المصطفى واعلموه ان الامة كفرت وزاد طغيانها، ثم انتدب له عسكراً فقتل من جمعه ماية وعشرون نصيرياً وجرت امور يطول شرحها. ثم قتل وكان خماراً خبيثاً جاهلاً. وفيها ابطلت الفاحشة وبيع الخمور في بيروت وجميع السواحل وقرئت المراسيم بذلك وكثر الدعاء لله.

وفي السنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م يوم الجمعة في الرابع والعشرين من شهر شعبان ادعى قاضي دمشق على عماد الدين ابن كثير انه قال ان التوراة والانجيل بدلا وغير حالهما عما انزلا به، وشهد عليه جماعة منهم الشيخ تقي الدين ابن التيمني، فاخرج وطوّف به ونودي عليه : هذا جزاء من قال ان التوراة والانجيل بدلا. وفيها توفي كبير الامراء بيبرس المنصوري الداوداري صاحب التاريخ. وفيها تسلم الامبراطور فريدريك القدس من الملك الكامل.

وفي السنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م صار سيل عظيم بدمشق وحمص هلك به خلق كثير، ومات في حمام ملك الامراء نحو مائتي امرأة وصبي، ودخل جماعة من الرجال ليخلصوا النساء فهلكوا. وفي عشرين محرم توفي الملك

المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة فيها. وكان عالماً ديناً له اليد الطولى في الهندسة والرياضة والهيئة اخذ ذلك عن الشيخ اثير الدين الابهري، وامتدحه الشعراء منهم الشيخ صفي الدين الحلي عبد العزيز ابن سرايا، وللشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري كتب مفردة بمدحه وللملك المؤيد عدة مؤلفات، فمن مؤلفاته نظم الحاوي الصغير، وشرحه قاضي القضاة شرف الدين. وكتاب نوادر العلم في مجلدين، وكتاب الكنائس في مجلدين، وكتاب تقويم البلدان، وكتب الموازين، وكتاب التاريخ المختصر في اخبار البشر من ادم الى سنة ٧١٦ هـ وتولى بعده ولده الملك الافضل محمد.

وفي السنة ٧٣٤ هـ = ١٣٣٣ م قدمت الى بيروت مراكب الافرنج الجنوية قاصدين اخذ المدينة، فخرجوا الى البر وقاتلوا يومين مع اهل المدينة، ودخلوا البرج واخذوا الاعلام السلطانية والمراكب، فلما بلغ ذلك امير الامراء تنكر ارسل وطلب امراء الغرب[1] الذين يقيمون بعرامون الغرب وتركمان كسروان، وعمل لهم اهانة واذية لاجل اهمالهم في المحافظة. وفي هذه السنة خدم رجل يقال له حمزة من تركمان الشرق نائب الشام تنكز، وكان جريئاً مقداماً عارفاً بأخبار ملوك القدس، فجعل يسامره، فاتصل به وعلت منزلته عنده وعمل على قتل جماعة من خواص تنكر لمعرفته باخبارهم. ثم ان المذكور تمرد وتجبر وطغا وبغا وحكم وظلم وبالغ في الفسق، وبنى حماماً عند القبوات وزخرفه فكثرت الشكايات عليه من فعلة الحمام وغيرهم، فاحضره تنكز وعذبه، واخذ امواله ورماه بالخندق وهو عريان، وحبسه بحبس باب الصغير، ثم اطلقه فتعرض الى تنكز المذكور فقطع لسانه من اصله، وقطع

(١) تعتبر الإمارة التنوخية اقدم الإمارات الاقطاعية في لبنان، وتتصل جذورها بالعباسيين. واثناء العهد المملوكي تمكنت من بسط نفوذها على رقعة كبيرة نسبياً. تمتد من صيدا الى بيروت وتشمل جزء من الشوف والمتن والغرب. الا ان الصراعات العشائرية داخل هذه الاسرة بين قيسية ويمنية قد اضعفتها، او افسحت المجال فيما بعد للمعنيين للبروز كقوة حاكمة في الشوف في مطلع العهد العثماني. كما ان الاستقرار الامني والاقتصادي الذي ظهر في عهد المماليك قد ساعد على استعار هذه الخلافات بين التنوخيين بدلاً من توحيدهم.

رباعيته، فهلك وله من الظلم ما لا يوصف. وفيها توفي ملك العرب حسام الدين مهنا ابن عيسى ابن مهنا الحياري بناحية سلمية وعمره ثمانون سنة.

وفي السنة ٧٣٦ هـ = ١٣٣٥ م توفي ملك التتر صاحب الشرف القآن ابو سعيد ابن خربند ابن ارغون ودفن بالعاصمة وعمره ثلاثون سنة، وكانت مدة دولته عشرين سنة. وكان عاقلاً ديناً عادلاً كتب المنسوب، واجاد بضرب العود، وافترق جيش الفرات بعد موته، وجرت بينهم حروب شرحها يطول وملكوا ابنه وهو صبي صغير، وقام باموره الشيخ حسن ابن الشيخ حسين ابن ابغا.

وفي السنة ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م يقول ابن سباط أنه في شهر شعبان حدثت نار في الدهشة شرقي الجامع، واحرقت سوق الوراقين والابدين من جسر الكتب الى باب الجامع، واحرقت درابزين المأذنة الشرقية. وانه في مستهل ذي القعدة وقعت النار في سوق السيوف وقيسارية الرماح، فأهلكت مالاً وخلقاً كثيراً. فاتهم المسلمون النصارى بذلك بسبب ما جرى على كنائسهم من الخراب، وانه قدم راهبان من القسطنطينية، واجتمعا بارض.حبور بناس من قسيسيهم، وصنعا بعض عيدان نفط (كبريت) والقوها في المدينة، ولسبب ذلك جمعوا رؤساء النصارى وهم كتاب الامراء الذين اتهموا بالحريق، وسمروا اربعة عشر رجلاً منهم مصلوبين، واخذوا منهم ذهباً وجواهر ما ينوف عن الف الف درهم، واخذوا من بقية النصارى مالاً جزيلاً. وفي هذه السنة في ذي الحجة جاء نائب صفد المعروف بذي الاخضر ومعه مرسوم من السلطان محمد بطلب تنكيز النائب فقيده واخذه الى القاهرة، ومنها الى الاسكندرية، واقام بالسجن دون شهر وقضى عليه لاجل فعله بما صنعه بنصارى دمشق. وكان عنيفاً صارماً انشأ بدمشق جامعه المعروف. وطالت مدته بها نحو ثلاثين سنة. وانشد في ذلك القاضي الفاضل صلاح الدين خليل ابن ايبك الصفدي

الا هل لويلاتٍ تقضت على الحمى تعود بوعد للمسرة منجزِ
ليالٍ اذا رام المبالغ وصفها يشبهها حسناً بأيام تنكزِ

وفيها نزلت نار سماوية بأعمال طرابلس الشام فأحرقت كثيراً من الشجر والزرع والخشب وثلاثة بيوت من عين الفيجة، وكثر المرض والوباء في الشام. وفيها كانت وفاة الخليفة المستكفي بالله. ونال الخلافة بعده الواثق بالله واسمه ابراهيم ابن محمد ابن الحاكم بامر الله العباسي، وكنيته ابو اسحق ولقبه الواثق بالله. وقد تلقب بهذا اللقب قبله الواثق بالله ابن المعتصم ابن هرون الرشيد وهو الحادي والاربعون من خلفاء بني العباس والرابع منهم بمصر، وبويع له في شعبان هذه السنة. ذكر نواب قلاوون على الشام وهم : عز الدين ايبك الحموي. حسام الدين قوش الافرم. سيف الدين قراسنقر. وسيف الدين كرامة. وجمال الدين آقوش نائب الكرك. وسيف الدين تنكز. واستمر نحو ثلاثين سنة وقبض عليه نهار الثلثا الثالث والعشرين من ذي الحجة. وفي اواخر ذي الحجة منها قبض السلطان على تنكز نائب الشام، وقيده ثم ارسله الى الاسكندرية، وهلك بعد ايام وعمره ستون سنة واناب بدمشق بعده الطنبغا. وفي هذه السنة وقعت الفتنة بين الامير حسين وبين المقدم محمد ابن صبح وجمعة الحرباني حاكمي البقاع لاسباب يطول شرحها. وبعد الوقعة التي حدثت بينهم في سهل عيحا قبض الامير حسين على المقدم جمعة، وهرب المقدم محمد ابن صبح الى الشوف الى الامير سعد الدين المعني وسار الامير المشار اليه الى قرية مشغرا واصلح بينهما. وفيها احتل الانكليز المقاطعات الشمالية من فرنسا. وتلقب ادوارد الثالث بقلب ملك فرنسا. وهزم الانكليز الفرنساويين في موقعة بحرية يقال لها الكوز.

وفي السنة ٧٤١ هـ = ١٣٤٠ م في سادس محرم ارسل السلطان علي الدين طنبغا الى دمشق نائباً عليها. وقبض على مماليك تنكز، ووسطهم وعقلهم على الخشب وضبط جميع اموالهم، فبلغت ثلاث كرات وثلاثين الف دينار مصرية نقداً، وعشر كرات وخمسماية الف قيمة الجواهر الثمينة واللولو الغريب الحب والنسيج المزركش، والالجمة المرصعة، والاطالس، وتحف النسيج، فحملها على ثمانمائة جمل وارسلها الى مصر مع مماليكه وجواريه وخيله الكريمة الثمينة. واما حواصل المغول فرفعها الامير علي وجاء بها الى قلعة دمشق وفيها في تاسع عشر ذي الحجة توفي السلطان الملك

الناصر ناصر الدين محمد ابن قلاوون. وكان عمره ٥٨ سنة ومدة سلطنته نحو ٤٣ سنة. قال القاضي بدر الدين الحصن ابن حبيب في تاريخه عنه جلس على سرير الملك ثلاث مرات، وظفر بما لا يعد من التهاني والمسرات وكان اول توليه سنة ٦٩٣ هـ وفيها انشأ نجم الدين دلال جامع نجم الدين خارج باب البحر بطريق بولاق، واهتم الناصر في ايصال الماء الى القلعة فامر بحفر ابار وخليج صغير واعمال قناطر تحمل الماء الى القلعة غير انه مات قبل ان يتم ذلك.

الفصل الثامن عشر

في ملك الملك المنصور وهو الثالث عشر من ملوك الترك

وقبل ان يموت السلطان قلاوون بثلاثة ايام جلس على سرير السلطنة ابنه الملك المنصور ابو بكر وهو الثالث عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وضربت له البشائر في كل اطراف السلطنة.

وفي السنة ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م امر السلطان المنصور بخلع الواثق بالله العباسي من الخلافة، ومبايعة الحاكم بامر الله احمد ابن المستكفي وهو الثاني والاربعون من خلفاء بني العباس، والخامس منهم في الديار المصرية. وبنى الملك المنصور جسر نهر الكلب وكتب له تاريخ على لوح من رخام. وفي هذه السنة في شهر صفر اجتمع كبار الامرآء وخلعوا من السلطنة الملك المنصور ابا بكر لانه تعاطى شرب الخمور والفسق، وقد زنى مع زوجة والده فنفي عن الملك وارسلوه الى قوص، وكانت مدة ملكه ثمانية اشهر. وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه واهانوهنَّ ونهبوا متاعهنَّ.

الفصل التاسع عشر

في ملك الملك الاشرف كجك وهو الرابع عشر من ملوك الترك

وجلس على سرير السلطنة اخوه الملك الاشرف كجك محمد ابن قلاوون وعمره يومئذ ثماني سنين، وهو الرابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وتولى القيام بامور السلطنة الامير قوصون. فلما سمع سيف الدين طشتمر نائب حلب بسلطنة الملك الاشرف كجك خرج من طاعته، وقام بنصرة اخيه احمد بن محمد بن قلاوون الذي كان بالكرك. ولذلك سير قوصون نائب السلطنة الامير قطلوبغا الفخري ومعه ثمانمائة مملوك لحصار السلطان في الكرك، وجهز مع طنبغا نائب الشام عشرة آلاف لمقاتلة طشتمر نائب حلب، فعندما هرب طشتمر من حلب الى درند من أعمال الروم دخل الطنبغا حلب ونهب مخازن طشتمر واموال. ثم انه وصل الخبر الى الشام بأن قوصون قتل ابن السلطان اي الملك الاشرف كجك ورام السلطنة لنفسه.

الفصل العشرون

في ملك الملك الناصر احمد ابن قلاوون وهو الخامس عشر من ملوك الترك

حينئذ تغير الرأي واتفق النواب نائب دمشق وحماه وصفد وبايعوا السلطنة للملك الناصر احمد الذي كان في الكرك، وبايعه الجيش ايضاً جميعه في عاشر شوال بعد ما خلعوا الملك الاشرف كجك، وجلس على تخت السلطنة اخوه الملك الناصر وهو الخامس عشر من ملوك الترك، وولى الفخري على نيابة دمشق وايدغمش على نيابة حلب، واعلنت البشائر وزينت البلد وخطب للسلطان بدمشق والكرك والقدس وغزة. ثم ان طنبغا رجع من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمنعه الفخري عن الدخول اليها، وجمع كل منهما جماعته فاضطر الفخري ان يسير الى مصر. وكتب السلطان الى ايدغمش امير آخور السلطنة ان يقبض على قوجون (يروى قوصون)، فقبض عليه ونهب داره وارسله الى الاسكندرية، وقبض على طنبغا وقيده وارسله الى الاسكندرية ايضاً. ولما توجه السلطان من الكرك الى الديار المصرية امر بقتل قوجون والطنبغا، ثم رجع طشتمر من مدينة راوند فامر السلطان بقتله وقتل الفخري ايضاً.

وفي السنة ٧٤٣ هـ = ١٣٤٢ م توجه السلطان احمد الى الكرك وعصى بها فاستقرّ بالسلطنة بمصر اخوه.

الفصل الحادي والعشرون

في ملك الملك الصالح عماد الدين اسماعيل

وفيها تولى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون وذلك في ربيع الاوّل، فضربت البشائر في دمشق وزينت سبعة ايام. ثم جهز جيشاً لمحاصرة السلطان احمد بالكرك. ونصب عليها المجانيق وحاصرها حصاراً شديداً. وتجهز جيش من دمشق ايضاً، ووقعت بينهما وقعة قتل فيها من الكرك نحو خمسمائة، ومن عسكر مصر والشام نحو المائتين، ووقع الغلاءُ والوباء بالكرك واستمر القتال على الكرك الى السنة التالية، واتصل الغلاء بدمشق. انا لله وانا اليه راجعون. وفي سلطنة الملك الصالح اسماعيل جرت الموقعة بين اهل البقاع واهل وادي التيم، وذلك في صفر وقتل من الفريقين جماعة كثيرة، واحرق ابن صبح من وادي التيم ثلاث عشرة قرية. ومعه جمعة الحرباني النابلسي وسلمت الكنيسة وكفرفوق وعيحا من النهب والحريق، وانقطعت الطرق بحيث لم يعد امان وانقطعت طريق الزبداني ايضاً.وفيها توفي الامير علي الدين ايدغمش ودفن بالقبوات خارج دمشق، وكان ذا سيرة حسنة. (الى هنا انتهى تاريخ الاسلام في ١٩ مجلد. واختصره تاريخ ابن عساكر في عشرة اسفار). وفيها احضر رجل ولداً له امام النائب بدمشق والولد له رأسان واربع ايادي وقيل انهما كانا ولدان احدهما ذكر والآخر انثى وان الواحد مات قبل الآخر بيومين.

وفي السنة ٧٤٤ هـ = ١٢٤٣ م حدثت الزلزلة العظيمة بمصر والشام وخرجت الناس الى الصحاري وتوالت بعدها زلازل مدة فانشد بعضهم.

زلــزلت الارض بنــا زلزالهــا وقــال كل من عليهــا مالهــا
فقـلت اذ فروا الــى صحرائهــا قد اخـرجت ارضكــم اثقالهــا

وفيها توفي الطنبغا المارداني واستقرّ مكانه يلبغا اليحياوي وبعد سنين نقل الى نيابة دمشق.

وفي السنة ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م توفي السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل وتولّى على السلطنة بعده اخوه الملك الكامل شعبان ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون وذلك في خامس عشر ربيع الاوّل وركب بخلعة الخليفة والتقليد. واستمر في السلطنة الى ان توفي وذلك في خامس عشر ربيع الأوّل. (قيل ان وفاته كانت في السنة التالية وسببها انه لما قتل اخوه احمد في الكرك احضروا رأسه بين يديه فارتعب وخاف ومرض فمات).

وفي السنة ٧٤٦ هـ = ١٣٤٥ م يذكر ابن سباط ان الناس سكان السواحل ارتعبت من ملك قبرس فأرسل الامير الكبير يلبغا الى بيروت، فامر ان يشرعوا في بناء القلع وحمالات ومراكب بعدد كثير، واقامت العساكر الشامية ببيروت والتزم ايضاً امراء الغرب ان يسكنوا في مدينة بيروت ويركبوا ليلاً ونهاراً للمراقبة والحراسة، وكان ايضاً تركمان كسروان في بيروت وطلبوا من بيدمر ان يتوجه الف رجل منهم الى قبرس. وفي هذه السنة توفي السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان وكانت مدة ملكه سنة وسبعة عشر يوماً.

الفصل الثاني والعشرون

في ملك الملك المظفر امير حاجي

وتولّى بعده على الملك ولده المظفر امير حاجي[1] فقرّر شمس الدين يلبغا على نيابة الشام وبنى الجامع المنسوب اليه تحت دمشق وارسل بيدمر البدري الى نيابة حلب وارقطاي الى نيابة السلطنة بالديار المصرية[1].

وفي السنة ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م حضر كتابٌ من السلطان بعزل ملك الامراء يلبغا عن ايالة الشام فقصد العصاوة فجردت عليه العساكر من صفد وطرابلس وحماة وحمص والقوا عليه القبض وقتلوه، واقام السلطان سيف الدين ارغون مكانه على نيابة الشام. وامر السلطان بالقبض على كثير من الامراء وقتلهم. ثم قامت المملكة عليه وخلعوه عن السلطنة وقتلوه.

---

(١) ذكر عنه الامير حيدر انه الثاني عشر من ملوك الترك بينما ذكر الثاني عشر و ١٣ و ١٤ و ١٥ قبله.

الفصل الثالث والعشرون

في ملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد

وبايعوا اخاه الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون في الديار المصرية[1].

وفي السنة ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م حدث طاعون شديد عمَّ البلدان الشامية والحلبية ولم يبق مكاناً خالياً منه. ذكر الشيخ صلاح الدين ان بعض الايام صلوا في الجوامع بدمشق بيوم واحد على مايتين وثلثين جنازة، واقفل كثير من الدور وخربت اكثر الضياع، وكان مع الطاعون غلاءٌ شديد قيل انها بيعت غرارة القمح بالف وستماية درهم، ورطل الزيت باربعة وعشرين، وغلت سائر البضائع، ثم بعد زيادة الموت وقدوم الغلال الجديدة نزلت الاسعار فقيل بذلك شعر :

قد اقبل الطاعون وهو بغرة قد جاءَ من قطنه الى بيروت
أخليت ارض الشام من سكانها وحكمت يا طاعون بالطاغوت

(١) وهذا ذكر عنه انه الرابع عشر وقد ذكر الرابع عشر الملك الاشرف كجك لذلك لم نذكره حسب ترتيبه.

وقال آخر

امـــا دمشق فانهـــا قد اوحشت من بعـد ما شهـد البريـة انسهـا
تاهت بعـجب زايـدٍ حتـى لقـــد خربت بطاعـون عظيـم نفسهـــا

ثم حدث بعد ذلك بدمشق وما حولها ريحٌ شديد اثارت غباراً عظيماً فاخضرَّ الجوُّ منه ثم احمرَّ ثم اسودَّ حتى اظلمت الدنيا نحو اربع ساعات، والناس يبكون ويستغيثون وظنوا ان ذلك يكون ختام الوباء، ولكنه ازداد شدة. ثم وقع مطر عظيم فاستبشرت الناس بانقطاع الوباء فلم ينقطع بل زاد. وصلى الخطيب يوم الجمعة سابع شعبان على مائة وثلاثين جنازة ولله الامر.

وفي السنة ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م حضر الى دمشق الامير سيف الدين نائب طرابلس وبيده اوامر، فقبض على ارغون شاه نائب دمشق وضبط حواصله وامواله ورجع به الى طرابلس. فارسل أعيان الشام يعرضون للسلطان في امره ويترجون خلاصه، فحضر لهم جواب ان لا علم له بما توقع، فاجتمع امراءُ دمشق وسادات طرابلس فقتلوا نائب طرابلس واستخلصوا سيف الدين ارغون منه.

وفي هذه السنة كانت وفاة الامير حسين الشهابي حاكم وادي التيم وكان شجاعاً غيوراً، وخلف عدَّة اولاد اكبرهم الامير ابو بكر الذي قام بعد ابيه بالامارة والولاية وكان اميراً مهوباً صفت له الاوقات واغتنم سائر اللذات. ولم يكن له منازع ولا مخاصم وفي ايامه توفي الامير سعد الدين المعني وقام بعده ولده الامير عثمان فتزوّج ابنة الامير ابو بكر وزفت له من حاصبيا. وحصل بينهما محبة زائدة وكان الامير ابو بكر يزور الامير عثمان الى الشوف ويقضي معه اللذات. وكان شريف النفس فصيح اللسان يحب الصيد، ومولعاً بالآلات الموسيقية والاصوات الرخيمة، وكان كريماً حليماً يتجنب الشر والفتنة، وهو الذي بنى خان حاصبيا وجعله صدقة لابناء السبيل.

الفصل الرابع والعشرون

في ملك الصالح صلاح الدين صالح بن محمد

وفي السنة ٧٥٢ هـ = ١٣٥١ م اختلف الامراء على السلطان الناصر ناصر الدين الحسيني وخلعوه عن السلطنة، واتفقوا على اقامة اخيه الملك الصالح صلاح الدين ابن محمد وارسلوا فاحضروه من الكرك حيث كان مسجوناً، وركب بخلعة الخليفة، وبايعه القضاة والامراء ثم قدم الامير سيف الدين ارغون الكاملي نائب حلب الى دمشق متولياً عليها.

وفي السنة ٧٥٣ هـ = ١٣٥٢ م توفي الخليفة امير المؤمنين الحاكم بامر الله بمصر، فكانت خلافته عشر سنين ونصف، ثم بويع بالخلافة المعتضد بامر الله ابو بكر بن المستكفي بالله وهو الثالث والاربعون من خلفاء بني العباس، والسادس منهم بالديار المصرية. وفي هذه السنة وقع حريق عظيم عند باب جيرون بدمشق حتى اتصل الى باب الاصفر النحاس، فبادر ديوان الجامع اليه فنزعوا ما عليه من النحاس ونقلوه الى خزائن الخزينة، ثم عادوا اليه فكسروا خشبه وكان من الصنوبر وهو في غاية القوة والثبات. وتأسفت الناس عليه لكونه كان من نحاس دمشق ومعاملها، وله ما ينوف عن اربعة آلاف سنة، ولم ير في الوجود باب اوسع ولا اعلى منه وهو من العجائب التي لم يسمع بمثلها. وكانت له مسامير نحاس كبار بارزة من عجائب الزمان، ولم ير مثله في اشهر الاماكن وعلوّ البنيان، وهو منسوب الى ملك يقال له جيرون بن سعد

بن غاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح عليه السلام. وفي هذه السنة اتفق النواب على السلطان للخروج عن طاعته، وهم بيتغاروس نائب حلب، وتكماس نائب طرابلس، واحمد نائب حماة، وطمبغه نائب صفد، وابن ابي القادر التركماني، وحيّار ابن مهنا امير العرب، جميعهم اتفقوا على العصيان والخروج عن طاعة السلطان اذا لم يمسك شيخون وطاز وهما من اعيان الدولة المصرية. وارسلوا الى ارغون نائب الشام فأبى موافقتهم، وكتب الى مصر للسلطان يعلمه بما توقع من الامراء وانزعج الناس لذلك. ولما كان يوم الاثنين من رجب جمع نائب دمشق الامراء في قصر الأبلق واستحلفهم بطاعة السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح فحلفوا على ذلك واتفقوا على الطاعة، وجمعوا اهل البقاع واهل الاقاليم لاجل حفظ تلك العقاب من هجوم العساكر الحلبية على غفلة. ويوم السبت عاشر رجب المذكور ركب ارغون نائب الشام ومعه عسكر دمشق وصار قاصداً الكسوة، ولم يبق في دمشق من الجند احد سوى الجي باغا نائب العقبة، واصبحت الناس خائفين وانتقلوا من الصالحية ومن البساتين الى داخل البلد. ونقل الامراء حريمهم وحواصلهم الى القلعة، واغلقت ابواب دمشق الى باب الفرج وباب النصر لقربهما من القلعة. ثم دخل نائب حلب ومن معه من العساكر وصحبته تكماس نائب طرابلس واحمد نائب حماة وطمبغا نائب صفد وابن ابي القادر التركماني، وحيار ابن مهنا امير العرب وجميع العساكر فدخلوا في سوق الخيل، واستعرض الجيوش الذين قدموا معه، فأُعرضوا في نظام جميل وكان عدد من معه من امراء الطبلخانات نحو ستين اميراً. ثم ساروا قرب الزوال الى الخيم التي جنوبي المسجد القديم عند قبة يلبغا، وكان يوماً مشهوراً عظيماً هائلاً، وعاين الناس من كثرة العساكر والجنود ما لم يعاينوه قبلاً. وغادر نائب دمشق الناس الذين معه لانهم لم يقدروا على قتال الاعداء، ثم ان نائب قلعة دمشق حصنها ووضع فيها الرجال والرماح والعدد، وامر اهل دمشق ان لا يفتحوا الدكاكين وان يغلقوا الاسواق فاغلقت ابواب دمشق ولم يبق الا باب الفرج لا غير. وعاش العسكر فيما جاورهم من القرى والبساتين والكروم والمزارع، ونهبوا ما وصلت ايديهم اليه. وفجروا بالنساء والبنات، ونقل اهل القرى اثاثهم وابقارهم

وحريمهم الى داخل البلد، وكل يوم كانوا يزدادون في الشر والاذى والنهب، وانتقل اهل الصالحية واهل العقيبة الى داخل المدينة، وامتلأت الطرق والشوارع والمساجد داخل البلد من الاولاد والنساء. وقال كثير من المشايخ الذين ادركوا غازان ان هذا الوقت كان اصعب من ذلك لما تركه الناس وراءهم من الغلات والاثمار والاقوات، واشتد الحال جداً اشتداداً لا يوصف. ونائب القلعة كان في كل وقت يسكن حواس الناس ويقوي عزمهم ويبشرهم بخروج السلطان واجتماعه بالجيش الدمشقي. وطالت المدة ولم يُنر الجامع ليلة النصف من شعبان، ومن نصف شعبان ارتحل بيغاروس عن دمشق بمن معه من العساكر، وتخلف عنه جماعة دمشق خوفاً من الدولة. وفرحوا فرحاً عظيماً. ثم نادى نائب القلعة قائلاً : ان اي من وجد من الحلبيين يكرم ولا يعارض، ومن وُجد من التركمان يقتل ويؤخذ سلبه. وقدم الامير حيار ابن مهنا فاراً من قبضة بيغاروس. وذكر ان ابن ابي القادر التركماني فارق بيغاروس وذهب على طريق بعلبك والبقاع. وفي اول ليلة من رمضان بات اهل دمشق خارج البلد في البيوت النافذة الى الطريق والسطوح، وزينت الطرق، وباتوا في فرح وسرور. وعند الفجر خرج الناس واهل المدينة حاملين الشموع والمصاحف والتوراة والاناجيل. ولما طلعت الشمس اقبلت القواد براياتها، والعساكر على عاداتها وترتيبها خلقٌ بعد خلق، وجيشٌ بعد جيش في ترتيب عظيم وهيئات حسنة. ثم جاء السلطان وقد ترجح الامر بين يديه، وبسطوا الشقق من الطناس من مسجد الديان الى باب القلعة، وهو لابس قباء احمر بفرو وبدلة جميلة، وتحته فرس كريمة من اطائب الخيل. وهو حسن الصورة مقبول الطلعة، عليه هيئة الملك، والناس يدعون له باعلى اصواتهم وفرح الناس وسروا به. وكان هذا اليوم يوماً مشهوراً عظيماً، ونزل السلطان بالقلعة، وقدم معه الخليفة المعتضد بالله ابو بكر العباس ونزل بالدماعية. وفي آخر النهار سار الامراء مع ارغون ومقدماهم طاز وشيخون خلف بيغاروس ومن معه. ويوم الجمعة حضر الى الجامع الاموي وصلّى فيه في المشهد الذي تصلي فيه نواب السلطنة. ثم قدم البريد من بلاد حلب ومعه سيوف الامراء المشهورين من اصحاب بيغاروس، وبعد ايام دخلت العساكر التي كانت توجهت خلف

بيغاروس ومقدماهم طاز وشيخون، وقد اسروا جماعة من الذين كانوا مع بيغاروس وهم مقيدون، فدخلوا على السلطان وقبلوا الأرض وهنأوه بالعيد ونزل طاز قبله. واما ارغون الكاملي فإنه اقام بحلب نائباً لها اذ طلب ذلك، وعيد السلطان بالميدان الاخضر، وصلّى فيه القاضي تاج الدين المناوي قاضي العسكر. وفي ثالث شوال ركب السلطان الى الطارمة، وعلى رأسه القبة والطير يحملهما بدر الدين ابن الخضير، فجلس في الطارمة ووقف الجيش تحت القلعة واحضر الامراء الحلبيين المأسورين، وامر بجلد وقتل سبعة منهم، ستة قواد وامير مقدم الف، ونائب صيدا، وتشفع في الباقين. ثم سافر السلطان الى مصر مؤيداً منصوراً واستمر في السلطنة الى ان خلع.

وفي السنة ٧٥٥ هـ = ١٣٥٤ م امر السلطان بدمشق اهل الذمة ان لا يستخدموا في الدواوين، وان يعرض مواريثهم على الاحكام الشرعية، وأن لا يزيد احد عمامته عن العشرة اذرع، وان لا يركبوا الخيل ولا البغال بل الحمير فقط، وان لا يدخلوا الحمام رجالاً أو نساءً مع الاسلام، بل يكون لهم حمامات منفردة، وان لا يلبسوا الا الازرق نساءً ورجالاً، وان يلبس اليهود الاصفر، والسمرة الاحمر.

الفصل الخامس والعشرون

في ملك الملك الناصر حسن ثانية

وفي هذه السنة اتفق جمهور امراء على عزل الملك الصالح واعادوا اخاه الملك الناصر حسن، فولَّى على طرابلس الامير منجد وعلى دمشق الامير علي المارديني، وعلى حلب الامير طاز، وقبض على سيف الدين ارغون وارسله الى الاسكندرية معتقلاً.

وفي هذه السنة قدمت مراكب الافرنج الى صيدا فقتلوا طائفة من اهلها واسروا جماعة، وقتل منهم ايضاً خلق كثير فوصل الخبر الى دمشق، فاجتمعت العساكر وبادروا الى معاونتهم فاستفكوا الاسرى من الافرنج عن كل انسان خمسماية درهم وكان عددهم ثلاثة آلاف.

وفي السنة ٧٦١ هـ = ١٣٥٩ م توفي الملك اورغان الغازي ابن عثمان وكانت مدَّة ملكه خمس وثلاثين سنة يحارب النصارى وافتتح بورصا وتولّى بعده ولده السلطان مراد وهو الثالث من آل عثمان.

الفصل السادس والعشرون

في ملك الملك المنصور صلاح الدين محمد

وفي هذه السنة توفي السلطان الناصر نصر الدين الحسن ابن محمد في مصر على يد مملوكه يلبغا الخاصكي ودفن في المدرسة الناصرية المنسوبة اليه في القاهرة وتولّى بعده الملك المنصور صلاح الدين محمد وهو الثاني والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. وبعد اربعة اشهر توفي (قيل ان خلع سنة ٧٦٤، وتولى مكانه اخوه الملك الاشرف شعبان).

الفصل السابع والعشرون

في حكم الملك الاشرف شعبان

وفي السنة ٧٦٣ هـ = ١٣٦١ م توفي الخليفة المعتضد بالله وبويع بعده اخوه الحاكم بأمر الله ابو محمد عبدالله. وهو الرابع والاربعون من الخلفاء العباسيين والسابع منهم بالديار المصرية. وفي هذه السنة ايضاً توفي الخليفة الحاكم بامر الله وبويع بعده المتوكل على الله محمد وهو الخامس والاربعون من بني العباس والثامن منهم بالديار المصرية.

وفي السنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م قصد ملك قبرس الاسكندرية بجيش عظيم في البحر، فنهبها وقتل منها خلقاً لا يحصى. وفيها توفي القاضي غياث الدين البيصوري، وتوفي ايضاً الامير نعم الدين من عيناب. وفي هذه السنة قدم الى دمشق بيدمر نائباً عليها، ثم أنه قصد العصاوة على السلطان، وتجمع اليه مقدمو البلدان وحضر اليه ابن اكلش ومعه سبعة آلاف، ومقدم الزبداني ومعه الف نفس وجرى من الامور ما يطول شرحه. فارسل اليه السلطان الجيوش، وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتلهُ.

وفي السنة ٧٧٢ هـ = ١٣٧٠ م ظهر في السماء نور عظيم ليلاً اتضحت به الطرق، وقارب ضوء النهار الى الثلث الاخير، وفيها توفي الامير علي المارداني نائب مصر وتوفي الامير جرجي نائب دمشق.

وفي السنة ٧٧٣ هـ = ١٣٧١ م رسم السلطان الملك الاشرف شعبان ان

يكون للاشراف المتسلسلين من النبي علامة خضراء في رؤوسهم تعظيماً لهم واحتراماً ولأجله قيل شعرٌ :

جعلوا لابناء الرسول علامةً ان العلامة شأن من لم يشهرِ
نور النبوّة في كريم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الاخضر

وفي السنة ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ م توفي الامير سيف الدين منجك وهو نائب مصر وكان ولي على نيابة صفد وطرابلس وحلب ودمشق ومصر، وله اثار كثيرة من البنايات فيها، منها الصهريج بالقرب من قلعة الجبل، والفنادق في الطرق المخيفة، وفي سائر الاعمال التي تولى عليها، واوقف الاوقاف الكثيرة على ذريته، ودفن بالقرب من قلعة الجبل وانشد له الوليد ابن الشحنة الحنفي على سنان رمح شعراً :

انا الاسمر الخطي اسمو الى العلا فتعجز عني المرهفات وتقصرُ
حياض المنايا من قناتي قد جرت انابيبها تهمي دماء وتهمر
وتجني ثمار النصر مني جنية فعودي لعمري ذابل وهو مثمر

وفي السنة ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م قصد السلطان الحج الشريف، فخرج من مصر في بهاء عظيم وخلق كثير، فلحقه بعض امرائه بمواطأة طشتمر الداودار، فهرب نحو القاهرة فقتلوه في عقبة ايلافي.

الفصل الثامن والعشرون

في حكم نور الدين علي الملقب بالمنصور

وتولى على الحكم بعد الاشرف شعبان ولده نور الدين علي وهو الثالث والعشرون من ملوك الترك بمصر. وفي هذه السنة توفي الامير سعد الدين خضر ابن عز الدين حسن من الغرب بقرية عرامون، وحمل الى قرية إعبيه ودفن فيها. وفيها كانت وفاة الامير ابو بكر الشهابي في حاصبيا، ثم تولى بعده ولده الامير محمد.

وفي السنة ٧٧٣ هـ = ١٣٨١ م توفي السلطان الملك المنصور نور الدين علي. وكان ظالماً محباً للمال سفاكاً للدماء. وتولى بعده من هو بلقبه ولده السلطان منصور محمد، الا انه بعد ثلاثة اشهر نظره الامراء انه اظلم من ابيه فخلعوه.

الفصل التاسع والعشرون

في ملك الملك الصالح حاجي ابن شعبان

وبعد خلع الملك المنصور محمد ولى الامراء عوضه اخاه الاصغر ولقبوه بالملك الصالح وهو الخامس والعشرون من ملوك الترك بمصر. وفي هذه السنة في زمان السلطان الملك المنصور قامت الامراء بمصر وخلعوا الملك الصالح ايضاً عن السلطنة، لانه لم يكن تبقى غيره من ملوك الترك ولم يكن اهلاً لذلك فانتهت به دولة الاتراك.



الباب الخامس

في دولة المماليك الجراكسة

ان اصل هؤلاء المماليك من ضواحي بحر قزبين، وجاؤا اصلاً من سيبيريا من ضواحي بحيرة بيكال، وكانوا يحملون من بلادهم للاتجار بهم كسائر المماليك، فاقتنى منهم سلاطين الاتراك المتقدم ذكرهم عدداً وافراً كانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة، ومن ثم يرتقون من درجة الى اخرى حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلع، فجعلوا سكناهم في الابراج ولقبوا بالبرجية. ثم تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك فتأتى لهم ذلك على عهد السلطان حاجي المتقدم ذكره لصغر سنه وضعف عزمه فخلعوه. وبلاد الجركس مشهورة بجمال اهلها، وهي الان من املاك روسيا تدعى بلاد كرجستان شمالي ارمينيا في جوار جبال قوقاسوس وعاصمتها تفليس.



الفصل الاول

في ولاية الملك الظاهر برقوق

لما قويت دولة الجراكسة وضعفت قوة الاتراك اجتمع الامراء والمماليك نواب القلع والحصون وولوا على السلطنة احد كبرائهم المدعو الظاهر برقوق ابن بدر بيك، وهو اول ملوك الجراكسة بمصر، وكان اشدهم بطشاً واعظمهم حزماً واقداماً. وقد تقلب في عدة مناصب في عهد الدولة السالفة. فهو الطنبغا الذي كان اولاً في نيابة دمشق. ولقب الجراكسة منسوب اليه لانه كان اسمه جركس. ولعلَّ جامع جركس المعروف بالقاهرة بالقرب من نظارة الاوقاف الجديدة منسوب اليه، واوّل جلوسه كان يوم الاربعاء في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ.

وفي السنة ٧٨٥ هـ = ١٣٨٣ م قبض الملك الظاهر برقوق على الخليفة المتوكل بالله وسجنه، واقام عوضاً عنه في الخلافة عمر ابن الواثق بالله وهو السادس والاربعون من الخلفاء العباسيين والتاسع منهم بمصر.

وفي السنة ٧٨٨ هـ = ١٣٨٦ م توفي الخليفة ابو حفص عمر ابن الواثق، وتولى بعده المعتصم بالله ابو يحيى. وفيها قبض السلطان برقوق على نائب دمشق وقتله وولى على نيابة دمشق الطنبغا الجوناني. وفي هذه السنة عصا يلبغا الناصري نائب حلب وخرج عن طاعة السلطان فجهز الملك برقوق العساكر المصرية، وقدم عليهم جركس الخليلي امير ياخور ووجههم لمحاربة

يلبغا، فجمع يلبغا الناصري العساكر والعربان والتركمان واهل طرابلس واهل كسروان والجردين واهل بلاد الغرب وجرت بينهم حروب كثيرة فانتصر الناصر نائب حلب، ومنطاش نائب طرابلس على عساكر السلطان برقوق وقتلوا جركس قائد الجيش، واستولوا على الديار المصرية لكون العساكر المصرية خانت السلطان. ولما تحقق السلطان برقوق خيانة العسكر اختفى. ثم ان النواب والامراء اخرجوا الملك الصالح المخلوع وولوه على الملك ولقبوه بالملك المنصور وكانت ولاية الملك الظاهر برقوق ست سنين (أوَّل مرَّة).

وفي السنة ٧٩١ هـ = ١٣٨٨ م كان القتال بين امراء الغرب التنوخية وبين اهل كسروان والتركمان. فالامراء التنوخية كانوا من حزب الملك الظاهر برقوق، واهل كسروان والتركمان كانوا من ميل منطاش نائب طرابلس وبيروت. فاستظهر اهل كسروان على امراء الغرب وقتلوا من جماعتهم نحو تسعين رجلاً واسروا عدداً غفيراً. ثم اتوا الى بيروت ونهبوا جميع ما وجدوه مما يختص ببيت التنوخ. ثم ساروا الى بلاد الغرب (اي ولاية التنوخيين من لبنان المعروفة بالغرب الاعلى والاسفل) واحرقوا عدة قرى ودكوها الى الحضيض، وهي عيناب وشملان وعيتات ومعيسنون وشترة العليا والسفلى والبيرتين العليا والسفلى. واجتمع اهل الغرب في قرية الحصن وفي قرية الدوير اي الامراء التنوخيين كافة، واتى اليهم لمعاونتهم رجال الجرد[١] والشوف[٢]. فرجعت الكساروة والتركمان والجرديون[٣] على اعقابهم. وفي هذه السنة ظهر الملك الظاهر برقوق عند الطنبغا نائب دمشق وجمع العساكر الشامية قاصداً دخول مصر، فلم يطاوعه الناصري نائب حلب لاتحاده مع الملك الصالح المنصور. ثم ان الملك الظاهر سار الى الكرك، ولما ظهر الملك الظاهر لم يعرف الناصري بظهوره، فوقع الاختلاف بينه وبين منطاش وقبض منطاش على

---

(١) يراد بالجرد بتاثر والرملية ومجد البعنا وبدغان وشارون وبحمدون ورشميا وكفرعميه وغيرها.

(٢) يراد بالشوف الشوفين وهما بعقلين وعنبال وغريفة والمزرعة والخريبة والمختارة وعماطور ونيحا وكل ما يجاورها.

(٣) يراد به جرد كسروان.

الناصري والجوناني وارسلهما الى الاسكندرية. وكتب الى الكلكي نائب الكرك ان يقتل الملك الظاهر، فلم يرضَ بقتله بل افرج عنه وخرج الملك الظاهر كدرويش يستعطي من الناس. ثم اجتمع اليه مماليكه وعسكر الكرك فركب قاصداً باكيش نائب غزة، فقتله ونهب داره وتوجه الى الشام، فالتقى بجتكمر نائب الشام، ولما تواقعا ظفر الملك برقوق به واستمر على حصار دمشق. ثم حضر اليه كتبغا نائب حلب ومعه جموع كثيرة فقوي عليه الملك الظاهر برقوق وظفر به. ثم ان العساكر الظاهرية قصدوا طومان شيخ التركمان حاكم كسروان فتواقعا في الساحل بالقرب من زوق ميكائيل، وقتلوا من الاكراد الامير علياً واخاه الامير عمراً، وجماعة كثيرة، ونهبوا زوق التركمان. ثم ان كتبغا منطاش خرج من مصر والسلطان المنصور في العساكر المصرية والتقى الفريقان وجرى بينهما حروب شديدة انتصر بها الملك الظاهر برقوق وقبض على منطاش وعلى السلطان الصالح المنصور. وفي هذه السنة يذكر ابن سباط في تاريخه انه لما كان الملك الظاهر متظاهراً بزي الدراويش جاء الى قرية اهدن شرقي طرابلس، فقام الشدياق يعقوب بن ايوب بخدمته، فكتب له صحيفة بختمه ان يكون شيخاً، ثم نزل الى دير قنوبين فاقتبله الرئيس واكرمه، فاعطاه خطاً بأن ديره يكون معفى من الرسوم وتكون له الرئاسة على جميع الاديرة، ثم رجع الملك الظاهر الى الكرك. واما دير قنوبين فبقي اكبر الاديرة وسمي قنوبين اي دير اجتماع الرهبان، وكان يقال له دير المائتي راهب، وهو الذي بناه الملك طوارسوس ملك الروم في سنة ١٠١٣ م. يذكر بارونيوس انه في هذه السنة ظهر تيمورلنك من ملوك التتر وكان متوالياً من شيعة علي بن ابي طالب، وكان ابوه راعياً للغنم. ثم أنه ارتقى الى ان تملك على التتر بعد جحدهم الديانة المسيحية. وظهرت سطوته وتملك على جميع ممالك العجم، وابتدأ يتغلب على ممالك الترك، واستولى على مُدُن كثيرة، وكان كالنار يحرق كل مملكة يجتاز فيها. واي مدينة حاصرها كان ينصب لها اولاً علماً ابيض علامة الرضى، ثم علماً احمر علامة على القتال وسفك الدم، ثم علماً اسود علامة الغضب. ولما استخلص بعض عمال السلطان بايزيد ما كان بيده من المملكة، التجأ

السلطان الى تيمورلنك وسأله المساعدة، فحياء منه اجاب سؤله لان تيمورلنك كان يحب السلطان بايزيد حباً شديداً ويدعوه ابنه. فارسل تيمورلنك له هدية فاخرة، وطلب منه ارجاع أُولئك العمال الى مقامهم. فردّ السلطان بايزيد الهدية وازدرى بها فغضب تيمورلنك وسار بالعساكر الى حصار مدينة سبسطية (السامرة القديمة) وتملكها وقتل ابن السلطان بايزيد بها، وانتقل الى حلب ثم الى حمص التي كانت تدعى اسيا (لم يسمع هذا الاسم لحمص ولربما يراد به افاميا فغيره النساخ الى اسيا والله اعلم).

وفي السنة ٧٩٢ هـ = ١٣٨٩ م حدثت موقعة بين الملك الظاهر ومنطاش وبصحبته كان الملك المنصور فاستظهر الملك الظاهر عليهما وفر منطاش ودخل الملك الظاهر الى مخيم الملك المنصور حاجي، وامسكه وجلس على سرير الملك. فصار كل من اقبل الى المخيم ووجده جالساً على عرش الملك يقبل الارض بين يديه ويخضع له. وبالحال توجه السلطان الظاهر الى مصر فوجد مماليكه قد خرجوا من السجن، وامسكوا خلفاء منطاش، ومنطاش مقيم بدمشق فدخل السلطان مصر مطمئناً، واطلق جميع الامراء الذين كان سجنهم منطاش. وجلس الملك الظاهر ثانية على تخت السلطنة وخلع عليه الخليفة والقضاة، وخلع عن السلطنة الملك المنصور حاجي وكانت مدة ولايته الثانية سبعة اشهر. واعتقل السلطان برقوق الملك حاجي بمصر وامر باخراج الناصري والجوباني من سجن الاسكندرية، واعطى الناصري نيابة حلب، واعطى الجوباني نيابة الشام. وجهزهما بالعساكر لمطاردة منطاش لانه كان سمع بأنه اقام نائباً على حلب من قبله، وحصل بينهم وقعة مهمة قرب حمص قتل فيها الجوباني وجماعة من الامراء، ثم رجع الناصري الى دمشق وهناك اتاه الامر بتقليده نيابتها. ولما بلغ ذلك كتبغا نائب حلب خاف كثيراً وابتدأ بتحصين المدينة، ولم تكن من عهد قازان بنيت وحصنت كما في ذلك الزمن. ثم وصل منطاش وعساكره الى حلب وحاصروها ولم يفوزوا بها، ثم توجه منطاش الى جهة عين ناب. وفي هذه السنة اخذ قرا يوسف بن قرا محمد امير التركمان بالشرق مدينة تبريز، وارسل مفاتيحها الى الملك الظاهر برقوق فارسل له خلعة سنية وقلده نيابتها فاستمر نائباً بها.

وفي السنة ٧٩٥ هـ = ١٣٩٢ م قدم تيمورلنك ملك التتر الى بغداد فهرب منه السلطان احمد ابن اديس سلطان بغداد وتوجه الى مصر، وتملك تيمورلنك سائر بلاد العجم والعراق وتبريز والديلم، ولما وصل السلطان احمد الى مصر خرج السلطان الظاهر برقوق وسائر امراء مصر الى لقائه ومشى الامراء في ركابه الى داخل البلد. وفي هذه السنة جمع السلطان الظاهر برقوق العساكر وخرج من مصر ومعه السلطان احمد الى دمشق لمعاونة نائبه الناصري بها على مقاومة منطاش، لانه كان بلغه ان منطاش يهاجم دمشق ويضايق الناصري بها. ولما بلغ منطاش قدوم السلطان بالعساكر هرب نحو الشرق، فقدم السلطان الى دمشق واستصحب معه الناصري، وقدم الى حلب واقام بها شهوراً. وسير العساكر صحبة السلطان احمد الى بغداد وملكها، وهزم الذي كان بها من قبل تيمورلنك. ثم ضرب السكة باسم السلطان الظاهر برقوق وخطب له ببغداد اولاً وبعده للسلطان احمد العباسي. وفي هذه الايام كان الامير محمد الشهابي والياً على ولاية الامراء آل شهاب ولكنه كان منهمكاً بالملذات وانواع الخلاعة والطرب واستولت النساء على فؤاده وعقله. وفي ايامه كان البلاء الاعظم الذي عمّ البلاد واهلك العباد، وهو قدوم تيمورلنك الى الديار الشامية.

وفي السنة ٧٩٨ هـ = ١٣٩٥ م بعد عودة السلطان برقوق الى مصر حضر اليه رُسل السلطان بيازيد ابن عثمان بهدايا فاخرة وتحف ثمينة في طلب تشريف من الخليفة بعد ما كان بيازيد حاصر سيواس وملكها وملك بلاد قرمان بان يكون سلطان الروم فأرسل له الخليفة التشريف ولقبه سلطان الروم.

وفي السنة ٨٠٠ هـ = ١٣٩٧ م توفي الملك الظاهر برقوق ابن عبد الله (قيل وفاته كانت ٨٠١ هـ)، ودفن عند الشيخ الزهوري، وبني عليه تربة عظيمة وكانت مدة ملكه ١٧ سنة صرفها اكثرها بالحروب والجهاد ضد مقاوميه، واخيراً ضد تيمورلنك وله اعمال عجيبة وبنايات غريبة، فمن آثاره في القاهرة الجامع المعروف باسمه في شارع النحاسين بجانب جامع الملك الناصر. ومن بناياته الشهيرة الجسر العظيم الذي بناه على نهر الاردن الملقب بنهر الشريعة، ونقش عليه هذا التاريخ

بنــاه الظاهــر البرقــوق جسراً باعمــدةٍ واعتــــدةٍ منيعــــة
ومهــد للــورى سبــلاً وقــد امر العباد بأن تجوز على الشريعة

وفيها ابتدئ بضرب النحاس والتعامل به، وبطل تقدير الاشياء بالمياداة. وفيها تشقق الجامع الازهر وميل مقصوراته انتدب السلطان برقوق رئيس التجار يومئذ ابراهيم بن عمر بن علي المحلي وهدم صدره بأسره فيما بين المحراب الكبير الى الصحن طولاً وعرضاً، وازال اللوح الاخضر واعاد البناء كما كان، وقيل ان منارته كانت قصيرة فهدمت وبنيت باطول منها.

وفي سنة ٨٠١ هـ = ١٣٩٨ م نودي في مصر ان صرافة كل دينار ثلاثون درهماً، ومن امتنع نهب ماله. وفيها انشأ بَرَكة مباشر ادارة الامراء جامع بركة وهو بجوار جامع طولون. وفيها في ١٥ ذي الحجة توفي السلطان برقوق وكان عمره حين وفاته ستين سنة ومدة سلطنته ١٦ سنة وبضع اشهر.

الفصل الثاني

في ملك فرج زين الدين الملقب بأبي السعادات ولقب ايضاً بالملك الناصر

وبعد وفاة السلطان الظاهر برقوق بويع بعده بكر ابنائه الملك فرج الملقب بالملك الناصر ابي السعادات. وهو الثاني من ملوك الشراكة بالديار المصرية. وفي السنة التالية ٨٠٢ هـ خرج السلطان الناصر وتوجه بالعساكر الى دمشق لانه بلغه ان تنماً نائبها عصا عليه، وارسل تنم المذكور الى اقبغا نائب حلب فوافقه وتوجه اليه فاجتمعت اليه غالب نواب الشام وامرائها. وفي مسير السلطان فرج التقى بتنم وحزبه في ارض فلسطين وتواقفا فانهزم تنم وامسك هو وجماعة من الامراء، ودخل السلطان دمشق واقام بها اياماً وقتل تنماً وايتمش واحمد بن يلبغا وجماعة من الامراء، وعاد الى مصر منصوراً. واستقرّ في نيابة دمشق خال السلطان سودون (ويروى حودون ابن اخت الملك الظاهر برقوق)، وفي نيابة حلب الامير دمرادس الخاصكي. وفيها طمع ابن عثمان ونازل ملطية وحاصرها واخذها.

وفي السنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م خرج تيمورلنك العدو الطاغي، والمنافق الباغي. قال بعض اصحاب التواريخ انه لما تملك تيمورلنك اولاً مدينة بغداد وبلغ من الدهر ما اراد ارسل الى السلطان رسولاً وصحبته كتاب، فأتوا الى رحبة مالك ابن طوق، وقد تعبوا من السير والسوق. فوجد فيها كتبغا مملوك

الامير علي نائباً، وقتل الرسول وكان اعظم النواب، وارسل الى السلطان الهدية والكتاب، وقد افتح للشر ابواب، فلما وصل الكتاب اليه وقرأه وكانت علامة الشر ظاهرة عليه. وجد فيه مكتوباً : بسم الله الرحمن الرحيم. القوة لله. قل اللهمَّ خالق السموات والارض عالم الغيب والشهادة ان تحكم بين عبيدك بما كانوا فيه يختلفون. اعلموا اننا جنود خلقنا الله من سخطه وسلطنا على من حل عليه غضبه. لا نرق لشاكٍ. ولا نرحم عبرة باكٍ. وقد نزع الله الرحمة من قلوبنا. فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا. قد خربنا البلاد. ويتمنا بها الاولاد. واظهرنا فيها الفساد. فخيولنا سوابق. ورماحنا خوارق. وسهامنا موارق. وسيوفنا صواعق. ولتوتنا (فؤوسنا) سواحق. وعددنا كالرمال. وقلوبنا كالجبال. ومن رام سلمنا سلم. ومن نال حربنا ندم. فملكنا لايرام. وجارنا لا يضام. فان قبلتم شرطنا كان لكم مالنا. وعليكم ما علينا. وان ابيتم. وفي بغيكم تماديتم فلا تلوموا الا انفسكم. فالحصون بين ايدينا لا تمنع. والعساكر لا ترد ولا تنفع ودعاكم علينا لا يستجاب ولا يسمع. لانكم اكلتم الحرام. وارتكبتم الآثام. وضيعتم الجمع وغرقتم في بحر الطمع. وسلكتم في طريق البغي والعدوان. فابشروا بالذل والهوان. فاليوم تجازون عذاب الهوان. لانكم بغير الحق في الارض تستكبرون. ودائماً كنتم تفسقون. وقد ثبت عندكم اننا كفرة. كما ثبت عندنا انكم فجرة. وقد سلطنا عليكم الهاً بيده امور مقدرة. واحكام مدبرة. فعزيزكم لدينا ذليل. وكثيركم عندنا قليل. فاننا ملوك الأرض شرقاً وغرباً. واخذون كل سفينة غصباً. وقد اوضحنا لكم طريق الصواب. فاسرعوا الينا برد الجواب. من قبل ان ينكشف الغطا. ويقع الحرب والسطا. وتوقد الحرب نارها. وترمي عليكم شرارها. ولا تبقي لكم بقية وينادي عليكم منادي الفنا. هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزاً. وقد انصفناكم اذ راسلناكم ونثرنا لكم جواهر هذا الكلام والسلام.

فأجابه السلطان بكتاب من انشاء بعض الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تولي الملك لمن تشاء. وتنزع الملك ممن تشاء. وتعزل من تشاء. وتذل من تشاء. بيدك الخير. وانت على كل شيء قدير. وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لا ينالون خيراً. وكفى الله المؤمنين القتال. وكان

الله قوياً عزيزاً. وصل الكتاب المخبر عن الحضرة الايخانية. والشدة العظيمة القانية. تقولون انكم خلقتم من سخطه. ومسلطون على من حل عليه غضبه. ولا ترقون لشاكٍ. ولا ترحمون عبرة باكٍ. وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم. فذلك من اكبر عيوبكم : وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وكفى بهذه الشهادة عليكم واعظاً، وبما وصفتم به انفسكم ناهياً وامراً. قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون. الصورة. ففي كل كتاب لعنتم. وبكل قبيح وصفتم. وعلى لسان كل رسول ذكرتم. وعندما خبركم من حين خلقتم. وزعمتم انكم كفرة لعنة الله على الكافرين. من تمسك بالاصول فلا يبالي بالفروع. فنحن المؤمنون حقاً. والقائلون صدقاً فلا يداخلنا عيب. ولا يصدنا ريب. القرآن علينا نزل. وهو رحيم بنا لم يزل. وتحققنا تنزيله. وعلمنا تأويله. انما النار لكم خلقت. ولجلودكم اضرمت. والجحيم لكم سعرت. اذا السماء انفطرت. ومن اعجب العجب تهديد الرتوت بالنتوت. والسباع بالضباع. والكماة بالكراع. فنحن خيولنا رقية. وسيوفنا يمانية ورماحنا خطية. وسهامنا خليجية. ولتوتنا مصرية. واكتافنا شديدة المضارب. ووصفها في المشارق والمغارب. فلا بد ما نأتيكم بخيل جياد. وسيوف حداد. ورماح مداد. وابطال شداد. فاذا هجموا على البحر مزقوا امواجه. او على البر الاقفر خزقوا افجاجه. قوام بالليل. هيام بالنهار. لا تهولهم السباسب ولا بعد الديار. قد نشأوا على الحروب والفراع. والفوا الفروسية من عهد الرضاع. فليس بيننا وبينكم سوى نظرة العين. وزعقة غراب البين. فان قتلناكم فنعم البضاعة. وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة. ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون. واما قولكم ان قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال. فالجزار لا يبالي بكثرة الغنم. وان كثيراً من الحطب يكفيه قليل من الضرم. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله. والله مع الصابرين الفارين من الرزايا لا من المنايا. فنحن المنية عندنا غاية الامنية. ان عشنا سعداء. وان متنا شهداء. الا ان حزب الله هم الغالبون. ابعد امير المؤمنين وخليفة رب العالمين تريدون منا الطاعة. ليست لكم ولا طاعة. وطلبتم ان يأتيكم امرنا قبل ان ينكشف الغطا. ويقع الضرب والسطا. هذا كلام في نظمه تركيك وفي سلكه تفكيك. لو

كشف الغطا لبان الصدق من الخطأ بعد تبيان. والكفر بعد ايمان. ام اتخذتم آلهاً ثانياً. لقد جئتم شيئا تكاد السموات تنفطر منه. وتنشق الارض وتخر الجبال هداً. قل لكاتبكم الذي وصف رسالته ورصف مقالته. وصل كتابه فكان كصرير الباب. او كطنين رباب. سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً. والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والسلام.

ثم تواترت الاخبار بحركات التتر، وما في عزم تيمورلنك من درس هذه الديار، ثم فترت الاخبار وتحدث الناس قليلاً وكثيراً. فتعاود الارجاف والضنك بقدوم تيمورلنك وانه ملك سيواس وملطية. قد شمر ساعد الجد لاخذ البلاد الشامية، وانه لم يبلغ يهسنا ما طلب ورحل عنها قاصداً مدينة حلب. فورد يلبغا الدوادار من الديار المصرية لتجديد العساكر الاسلامية، وقدم نائب صفد الطنبغا العثماني في العسكر القاصي والداني، وخرج سودون نائب الشام بالعساكر والاعلام، وخرجوا من دمشق في اول شهر صفر. وسعدهم قد غاب وخمولهم قد حضر. بعد ان بالغ سودون نائب الشام في الاذية من قطع معاش الامراء والرعية، واتعب الجنود والاقوام على نهر بردى ثمانية ايام، ثم رحل عنها قاصداً حمص، ثم خرج منها ودخل حلب في اول شهر ربيع الاول والعساكر طوع يديه وعليه المعول. هذا وقد فر تيمورلنك فرور العبد الآبق، ونزل على مرج دابق، فراسلهم وراسلوه، وناوشهم وناوشوه. فارسل نائب حلب تقليداً وتاجاً مرصعاً من نكلات السقطية، وسيفاً مرصعاً وتركاشاً، وبعض هدية من القماش. فقتلوا الرسل (ارسل تيمورلنك رسولاً الى المسلمين فقتله نائب دمشق). ولم يردوا له الجواب وبعثوا الى السلطان بالهدية والكتاب. ثم قدم التيمورلنك الى حلب، وانتحل لحربها سبباً بعد سبب، وحاصرها اشد الحصار بالمجانيق والنفط والنار، بعد ان قتل العساكر وافناها، واسر من اسر وسبى من سباها. ورأت اهل حلب الاهوال، واستفادت التمرلنكية بالنسيج والخيول والاموال وهدرت دماؤهم ودرست اسماؤهم، وحالت احوالهم وذهبت ارواحهم واموالهم وقيل شعراً :

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قومٍ عند قوم فوائدُ

وقال الله تعالى ما اصابكم من مصيبة فيما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير.

وقال رسوله : ثلاثة من رزقهم فقد رزق خير الدنيا والآخرة، الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء على الرخاء. وكانت التتر قد وقعت في هوَّة فزادوا بما غنموا من البلاد الشامية قوَّة واي قوَّة، واصبحت شوكتهم قوية. ويمينهم ثقيلة على البلاد الحلبية. ورحل تيمورلنك من مكانه ونزل في المطعم، ونار الحرب في جوانب حلب تضرم، وهاجم الامراءُ القلعة وصعدوا اليها بالحبال، وحصنوها بالميرة والرجال. فحاصرها الى يوم الاربعاء نصف الشهر فانخدع الامراء والنواب سراً وجهراً، ونزل اليه خيتم التركماني وسنبغا الداودار يطلبون الامان منه وسلموه القلعة في ذلك الان، فخلع عليهم وردَّهم الى القلعة، وهو نازل في مكانه في تلك البقعة. وكتب لهم الامان وامنهم، فنزلت اليه النواب والامراء بأجمعهم، وتسلم الحصن بما فيه اجمعين، وعمّ البلاءُ الصالحين والطالحين. ثم اودع النواب والامراء في القيود، وبعد ان كانوا صيادين اصبحوا مصطادين. وصعد تيمورلنك بنفسه الى القلعة، واخرج في عذاب القوم الصنعة، واستخرج الاموال، واذاقهم الاهوال. وسأل ابن القفصي عن علي ومعاوية وما كان بينهم في السنين الماضية، فكان جوابه كلاماً معناه ان الكل مجتهدون. فغضب تيمورلنك لذلك غضباً شديداً وقال : على علي الحق، ومعاوية ظالم، ويزيد فاسق. وانتم حلبيون تبع لاهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين، فاخذ الوليد ابن الشحنة في ملاحظته. قال المصنف وكلما نزل على الناس من القضاء علامة السخط لا علامة الرضا. قال الله عز وجل لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كتبوا ما ترك على وجهها من دابة. وقال النبي لولا مشايخ ركع واطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم البلاء صباً. وقال بعض السلف اذ كان الله في كل شيء عادلا فمصائب العباد لعلة فيهم والدهر يجرح ويدمل، والله يتمهل ولا يهمل. فبينما أهل دمشق في غفلاتهم وظلم ولاتهم ولا ينتهون عن منكر ولا يرون مع ارتكاب الكبائر إلا كل اية هي اكبر ينتهكون الحرمات ويجنحون الى الملذات بالذات، وقد عقدوا العقود على آنية العنقود لا يشغلهم عن ذلك شاغل، ولا يدخل على راح راحتهم داخل. ثم ورد ال دمشق الخبر بالكسرة وان العدو على المعرة، فاجفلت دمشق جفلة شديدة لا تعهد، وباتت

دمعة من يخاف الله لا تنقطع، ولا تجمد، وانتقلت اهل الحواضر الى البلد وانقلبت افراحهم الى النكد وكثر صياح النساء والصبيان في الطريق، يبكون على من في الكسرة قد مات. وكانت الائمة تتلو الصلوات وقرئ البخاري بالجوامع والمساجد، وكثر الدعاء من كل راكع وساجد، وانحصرت اهل الحواضر في المدينة، وانقلبت افراحهم الى احزان. وايقن الناس بالهلاك والعطب، وتحققوا المساواة بأهل حلب. فاجتمع الاعيان بدار السعادة، وطلبوا التجار واصحاب الاموال على العادة، وامروهم باستخدام الرجال على الاسوار، وان يهتموا بآلات الحصار. وقد وقع التفكير بعسكر الشاميين، وتحققوا عدم خروج المصريين. وايقنوا بالضيق والحصار، الى ان يحضر السلطان بالعساكر من مصر، فشرعت الناس في الهزيمة الى القلع والحصون المنيعة في الضياع، ومنهم من توجه الى قلعة ارغون، ومنهم من قصد قلعة شقيف ثيرون. وعملت الصقائل على اسوار دمشق ونصبت المدافع. (لربما المجانيق) وحضرت المضرة وغابت المنافع، وقصدت الناس الاسوار، وجروا في الخنادق والانهار. وركب الحاجب وردّ الامراء الى المرج، وكثر الناس الهرج وغلا كراء الدواب والخيل. ووقع الناس في العناء والويل، وصار كراء البغل من الشام الى بيروت بمائة، والى الرملة بثلاثمائة. فنادوا بابطال السفر بعد ذلك، وايقن الناس بالمهالك، وحارت الناس في نفوسهم بين التوجه والاقامة، فعطب من تأخر وفاز من توجة بالسلامة. ثم قدمت الاسرى فئة بعد فئة، فامتلأت من الخوف قلوب الرعية. واخبر الاسرى بما نالهم من العذاب الاليم، وما رأوه من المنكر والفسق في الحريم، وما قاسوا من مكاوي الحديد العذاب المتنوع الشديد، ففر اغلب اهل الشام منها وقصدوا الرحيل عنها. فاستدت الطرق واشتدت الطعنات بالمناخس، واشتفى منهم اللعين ابليس. وهمت الامراء بالسفر بفرج ابن منجك،فخاف ان يهلك. ثم نودي من سافر تنهب امتعته ويردوه، وعن منال ما طلب يصدوه، فتسلط الاعوام عليهم، واوصلوا الاذية اليهم، ونهبوهم وهم خارجون من الابواب، وتقاتلوا بالقسي والنشاب، فورد سنبغا الداودار الذي دار عليه الفلك الدوار، وهرب من تيمورلنك وخلص من يديه وأين يفر العبد من القضاء المقدر عليه، فوصل الى القاهرة. ومات بها والعين ساهرة.

وكان موته عند دخولها، ودفن بها عند نزولها. ثم قدم نائب صفد واجتمع بالحاجب، وجلس على باب اسطبل النائب، ونادى في العالم الفرار الفرار. لانكم لا تعرفون عدد التتر. ومن ملك منكم ثمن حذاء فلا يقيم، فانهم كالليل البهيم. فكونوا منهم على حذر، فانهم كالنار التي لا تبقي ولا تذر، ولا عادت تذكر في الدنيا حلب، وقد اتاها من الاهوال مالا يحسب، وحرض على السفر وعن فهم ما في التأخير من الضرر. وظهر بصحة فيما بعد. عند معاينتنا العساكر التي لا تحصى ولا تعد، وعذرناه في جميع ما قال. وصدقت الاسارى القادمين من بلاد الشمال وقد تواترت عليهم المصائب، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب. فنزلت الناس من الاسوار، وبطلت مداومة الحصار، وتحير حاجب الحجاب في نفسه، وامر ان لا يحمل احد قوساً ولا نشاب. وان يسلموه البلد بالامان. كما اتفق نوبة غازان. وتحققوا تفريط عسكر الشاميين وعدم خروج عسكر المصريين، وكثر قدوم الاسارى فئة بعد فئة، وتزايد الرعب في قلوب الرعية. والسعيد من الامراء، والاجناد كان ملتفاً بعباة او لباد، واحسنت اهل قارة الى من مر بهم من الاسارى، ثم قدم نائب طرابلس ونائب بيروت ابن سويدان، ودخلوا بالسلب، فضاقت على الناس المسالك، وامروهم بالسفر بعد ذلك. وقد سدت ابواب المدينة وخرجوا من باب النصر. كما تخرج الجبن بعد العصر. وتزايد القلق والطيش، وفر كاتم السر وناظر الجيش. وباقي الاعيان والأماثل. وتأخرت المساكين والاراذل، وتجهز للسفر امير حاجب، فتعلق به عند اسطبل النائب، فمشى بينهم الى حكر السماق، وحلفوه بالطلاق ان لا يسافر، وردوه الى الاسطبل وجلسوا واحاطوا به واحترسوا، وصار في اسرهم مأسوراً، وبمجاورتهم له محصوراً. فدار البلد من خارج وهم معه دايرون، واين ما توجه هم له طالبون. وصار مع العوام في اضيق مكان. وحلفوا ان لا يسافر من على الشيخ ارسلان. وقطع ما حول البلد من الجسور. وقد تقطعت من العالم الطهور، وفجروا فجوراً معهوداً من القدم، وندموا على السفر غاية الندم. ولو علموا ما هو آت لم يتأخر احد، وخرجوا مرة بعد اخرى، وفقد من البلد ما يقارب النصف من العدد. ثم وردت بطاقة نائب حمص انه تأخر في قارا فرأيت الناس كالسكارى. واخبروا ان ولدي

تيمورلنك وهما مهران شاه وماردين شاه قد نزلا على مدينة حماة فتلقتهم اهلها بالضيافة، فسكنت عنهم بعض الخوف، وقبلوا ما قدموا لهم من الهدية. وقد كان ذلك من قضاء الكائن في الازلية، ورحلوا عنهم، واستنابوا عليهم واحداً منهم. فقاموا على ذلك النائب وقتلوه، وخابت ظنونهم بما أملوه. فرد عليهم مهران شاه ونهبهم واستوفى ثأر النائب منهم، وقتل غالب اهلها وما اقال احداً لعثرة ونهب ما فيها وتركهم عبرة، واحرق غالب البلد ولم يترك فيها كهلاً ولا ولد. وحاصر القلعة عشرة ايام فلم يقدر عليها، لان غالب اهل حماة صعدوا اليها، فارسل الى ابيه تيمورلنك يطلب منه نجدة فجهز له عشرين الفاً من العساكر كاملي العدد. فاخذ القلعة بعد ذلك، والقى من فيها بالمهالك. وخرب وعلق وقتل واحرق فدرست محاسنها وتغيرت حالات اماكنها. ثم جفلت الشام لخبر هذا المصاب، وايقنها بحلول العذاب. ثم تواترت الاخبار بخروج السلطان من مصر. فقال شاعر العصر وهو الامير ناصر الدين محمد ابن الامير حسن ابن صاحب حماة شعراً :

اقول وقد دنا سلطان مصر ... الى بلد بها جزع مريبُ
فاهل دمشق لا تخشون شراً ... فان امامنا فرج قريبُ

ثم ان اهل دمشق تهيأوا للحصار، واجروا في الخنادق الانهار. ووقع بينهم الانزعاج وصعدوا الى الابراج، واهتم القاضي الشافعي الوارث العلم عن الرافعي، المشهور بالعلم والتقى. علاء الدين ابن ابي البقا، والمتفنن بامور الاسوار. فاستعمل آلات الحصار، واجرى النفقات. واشترى الزردخانات، وباع حواصل الغلال، واستخدم الرجال، وركب وشهر السيف ونشر الاعلام، ونادى بالجهاد في سبيل الملك العلام، وفرق على الناس السلاح واملى بالنجاح، فتمسك الناس بعضهم ببعض، والتجأوا الى خالق السماء والأرض. وصعد بعض الناس الى القلعة لأنها منيعة فلم يساعدهم الزمان. ثم قدم السلطان ونزل بالقلعة وحصنها. ونصب المجانيق وزينها، وحصل بقدومه عند اهل الشام فرح شديد. وعند التيمورلنك خوف شديد. وعزم على الهرب خوفاً من العطب. وكان السلطان في عسكر كثير وجمع غفير. وقيل ان تيمورلنك بات ليلة وصول السلطان على اهبة الهرب لينال بذلك الارب. فدخل على السلطان

شخص من خواصه وامرائه وخوَّفه وقال له ان تيمورلنك لا بدَّ ان يملك الشام، وان مصر تفوتك فلا تنم. وكان السلطان هو السابق بالهرب، ولم يثق بعلام الغيب، وهرب من قلعة دمشق في الليل خوفاً من البلاء والويل. وترك الشام وراءه، وسلمها لاعدائه. وذهب في طريق البقاع، وقيل انه نام بين نيحاوجباع. وسار على طريق الساحل، لكيلا يعلم به مقيم ولا راحل. ودخل الى مصر وقلعتها ولم يذكر الشام وجنتها. فلما بلغ تيمورلنك ذهاب السلطان احاط بدمشق بالامان، ونصب خيامه من قبة يلبغا الرنيم الى منسور فاشتدَّ الحصار والقتال، ورأت اهل دمشق من المصائب والاهوال ما لا عين رأته ولا اذن سمعته، ولا خطر على بال، وجرى من الحروب ما لم يجر بين الملوك الأكاسرة، والعرب العرباء والقياصرة، وخلفاء الاسلام وسلاطين العراق ومصر والشام، ولا حرب سابور مع قيصر، ولا اخشيد مع القائد جوهر. ولا لبني امية مع ابي مسلم الخراساني، ولا النعمان ابن خالد مع جبلة الغساني، ولا القائم مع بني كبداد، ولا الايمن مع المأمون ببغداد، ولا لبني بويه مع الديلمي، ولا للمستعصم مع وزيره العلقمي، ولا لنور الدين وصلاح الدين مع بني الاصفر، ولا لقلاوون مع سنقر الاشقر. ولا لبني تكش مع جنكيزخان، ولا للملك الناصر مع غازان، ولا لبيبغا ولا ليلبغا، ولا للفخري الطنبغا، ولا لايبك وطشتمر، ولا لصاحب الوقائع بدمر، ولا ادركه سمعي ولا ناظري في وقائع الظاهر مع الناصري، ما حدث على الاسلام من البلاء والضنك في وقائع الطاغي تيمورلنك. وقاتلت اهل دمشق قتالاً شديداً لا يعهد وباتت دمعة من يخاف الله لا تنشف. ولا تخمد. واشتدّ القتال وكبرت الاهوال وزاد الوبال وراحت الارواح والاموال. فيالها من مصيبة ما اعظمها، ومن محنة ما أولمها ! ثم دخل تيمورلنك المخذول الاعرج المشلول الى دمشق واوطاها، وداس اعلاها واوطاها، واهان ازمانها، واذل اعيانها، ونهب وفتك، وفضح وهتك، وشتت وفرَّق الاحشاء، وحرق الجامع الاموي وسائر المساجد والمدارس والمعابد، وتركها اطلالاً بلاقع، لا اسواق ولا جوامع، وقطع اشجارها، واباد اثمارها. وهدم قلعتها، ودرست بقعتها، وتغيرت محاسنها، وذهبت اماكنها. وبالجملة يضيق هذا المختصر عن ذكر كل ما فعله

تيمورلنك ببلاد الشام من القتل والكسر والحريق والنهب والفسق في الحريم والبنات والاولاد، وقتل الاطفال، واخذ الاموال. وقيل عنه أنه كان يجمع الاطفال فيرميهم في بئر ويستمر يرمي فيه حتى يمتلئ البئر من الاطفال، ثم يرمي فوقهم الحجارة العظيمة، فتسمع لهم صرخة اليمة. وكان يجمع الاولاد احياناً ويضعهم في الخنادق ثم يدوسهم بالخيل والبقر. ثم استمرَّ تيمورلنك في دمشق حتى جاء جرادٌ عظيم غطى السماء وملأ السهل والوعر، واكل النبات والاثمار، والاقوات، فامتلأت العيون والانهار ويبست الاشجار، ووقع الغلاء العظيم، واكلت الناس بعضها بعض، وتضرعوا الى خالق السماء والأرض. واكلت الناس اولادهم وجواريهم وعبيدهم، وعدم القوت اصلاً، فلما عاين تيمورلنك ذلك فرَّ منها، ورحل في الحال عنها، فاستمرَّت دمشق بغير ساكن، ولم يقم بها ولا قاطن. اللهم عامله بعد ذلك فإنه من اهلك برحمتك وفضلك. قال : وبقيت دمشق سبعة ايام لم يوجد فيها ديّار، ولا نافخ نار. لانه لما كان تيمورلنك فيها اخلاها اهلها.

وفي السنة ٨٠٤ هـ = ١٤٠١ م بعد ما جرت تلك الامور على دمشق من تيمورلنك وارتحل عنها قدم نائباً عليها الامير اقبغا الجمالي من قبل سلطان مصر، وشرع في تجديد بنائها، واستناب السلطان في حلب الامير رقاق الخاصكي، وشرع في تجديد بناء ما هدمه التتر. وفيها بلغ تيمورلنك وهو بقراباغ ان بايزيد ابن عثمان مشى على ارزنكان واخذها فتوجه تيمورلنك اليه عند ذلك ومشى على بلاده. فخرج عليه ابن عثمان والتقى الجمعان في مدينة انقرة وحصل بينهما قتال عظيم، وانكسر ابن عثمان ومسكه تيمورلنك وبقي عنده الى ان مات. (ذكر هذا الخبر الامير حيدر نقلاً عن بارونيوس تحت ٨٠٨ هـ ولكن عموم المؤرخين يذكرونه في هذه السنة) يذكر بارونيوس انه في هذه السنة تجدد الحرب بين تيمورلنك وبين السلطان بايزيد السلجوقي في سهل جبل طورس، وكانت عساكر تيمورلنك اربعماية الف فارس وستماية الف ماش. ولما انتشب الحرب انتصر تيمورلنك على بايزيد وقبض عليه، ولما احضروه امامه اكرمه كرامة ملك واجلسه الى جانبه. وقال له : قد نظرت اعمالي معك. فقال السلطان بايزيد : نعم. فقال تيمورلنك : لو ظفرت انت بي

ماذا كنت تصنع معي ؟ فقال بايزيد : كنت اضعك في قفص من حديد وكنت في كل وقت اركب من فوقه. فقال تيمورلنك وهكذا اصنع معك. وبقي كذلك الى ان مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاده. وفيها ارسل تيمورلنك قصاده الى سلطان مصر مع هدية عظيمة يطلب منه اميراً من امرائه اسمه الطندي، كان قد امسكه من عدة سنين قرا يوسف وارسله الى الملك الظاهري برقوق واستقرَّ من جملة امراء مصر محجوراً عليه.

وفي السنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٢ م عادت رسل تيمورلنك وانعقد الصلح بينه وبين سلطان مصر، واعتذر له عما ابداه في دمشق الشام من الجور والمظالم، وصار بينهما مودة ومهادنة، فارسل التيمورلنك لسلطان مصر هدية نفيسة وفيلاً. وفيها في ١٥ جمادي الثاني توفي السلطان بايزيد خان وعمره ٤٤ سنة ومدة سلطنته ١٣ سنة.

وفي السنة ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ م ولد السلطان مراد خان الثاني ابن السلطان محمد خان، ونودي على الفلوس ان يتعامل بها وزناً سعر كل رطل منه بستة دراهم، وكانت قد فسدت حتى صار وزن الفلس ربع درهم بعد ما كان مثقالاً. وفيها انقطع من مصر اسم الدينار والدرهم وظهر البندقي والفندقلي، وكان اول ظهورهما في القسطنطينية. وفيها حدثت زلزلة عظيمة بحلب وبلاد اخر كثيرة، وتبعها زلازل عديدة اخف منها. ذكر المؤرخون انه بهذه السنة خرب اكثر بولاق وتلاشى امرها، وخربت المهمشة ايضاً لربما بسبب الزلازل المذكورة. وحصل غلاء شديد بمصر بسبب نقص النيل، فكابد منه اهالي الصعيد ما لا يوصف، فمات في مدينة قوص ١٧ الف نفس، وفي مدينة اسيوط ١١ الف نفس بسبب الجوع، وكانت مدينة اصوان بدون حاكم عرضة لغارات العرب عليها.

وفي السنة ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ م انشئ الجامع الاتربي بجهة الخرنفش بحارة برجوان في القاهرة. وفيها توفي تيمورلنك في اورنادة ببلاد تركستان وعمره ٧١ سنة، فاغتنم فرج تلك الفرصة للتخلص من سلطة التتر. وفي هذه السنة كان اختراع البرانيط (اخترعها رجل سويسري في فرنسا). وفي هذه السنة توفي الامير محمد ابن الامير ابي بكر الشهابي وكان كثير الخلاعة

فاستولت النساء على عقله فاستخف به اهله وطمع به بنو عمه، فكان كل منهم يحكم بذاته، ويفرض ما يشاء من المظالم حتى انقسموا فرقاً والامير محمد مشتغل بذاته لا يسأل عن شيء، وكان اذا ارتفعت اليه قضية يقلد الحكم بها الى غيره ويبتعد عنها. فمن ثم لم تحمد ايامه وحصلت المظلمة على الرعية. وفي ايامه كانت الداهية العظمى في قدوم التتر فرحلت اهالي وادي التيم الى جبل لبنان وتفرقوا فيه ثم قدم الجراد والقحط والغلاء.

وفي السنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م توفي الخليفة المتوكل على الله محمد وبويع بالخلافة بعده الى ولده العباس، ولقب بالمستعين بالله، وهو الثامن والاربعون من خلفاء بني العباس والحادي عشر منهم في الديار المصرية. وفيها خرج نصير ابن مهنا الحياري البدوي على اعمال الشام، فأخرج يلبغا العساكر وتواقعا بالقرب من قرية غدارة (لربما عندارة) خارج دمشق، فانهزمت عساكر الشام وامراء غرب بيروت، واستولت العرب على الشام، وزادوا في الجور والظلم. ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب ودخل السلطان دمشق، وبنى ما كان هدم، وبنى الجامع الاموي بعد حرقه، وامر الناس بالرجوع، ثم رجع هو الى مصر. وفيها ضرب الناصر فرج دنانير عيارها اقل من عيار الدنانير القديمة. وفي ١٦ ربيع اول خلع المصريون فرجاً بعد ان حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يوماً، وولوا مكانه اخاه عز الدين عبد العزيز ولقبوه بالملك المنصور. وبعد شهرين مالوا بكليتهم الى فرج ابن برقوق ثانية واعادوه الى منصبه الاول، ونفوا اخاه عز الدين الى الاسكندرية. وفيها اكتشف باتنكور جزائر كناريا واستولت اهالي فلورنسا على بيزه.

وفي السنة ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م توفي الامير محمد الشهابي، وتولى بعده ولده الامير قاسم. وفيها توفي عز الدين عبد العزيز ابن برقوق في الاسكندرية.

وفي السنة ٨١٠ هـ = ١٤٠٧ م تولى السلطان محمد بن بلدار على الناحية الشمالية وابطل القتال بينه وبين اخوته، وفيها جرت حروب كثيرة بين الخاصكي وبين امراء دمشق.

وفي السنة ٨١١ هـ = ١٤٠٨ م انشأ الامير جمال الدين الاسندار الجامع

المعلق او الجمالي بالجمالية تجاه القره قول، وفي ٢٧ جمادي ثاني قتل الامير يلبغا خنقاً وهو صائم في السجن. وفيها كان تأسيس وانشاء كلية ليبسك.

وفي السنة ٨١٢ هـ = ١٤٠٩ م زاد فيضان النيل عن حده واضر كثيراً اذ غرق اكثر من مائتي قرية وعدة بساتين، ووصل الماء الى دور الحسينية من نزول الأرض. وفيها كان اختراع رسم الصور بالزيت.

وفي السنة ٨١٣ هـ = ١٤١٠ م ظهر بمصر القاهرة ثورة دينية اساسها الشيخ المحمودي والامام المستعين بالله، وفيها قتل الامير موسى حلبي اخاه سليمان الاول وهو سكران، واقتسم السلطنة مع اخيه السلطان محمد.

وفي السنة ٨١٤ هـ = ١٤١١ م جمع غروز البدوي جيوشاً كثيرة واستولى على الشام وقتل اعيانها فحضر الملك الناصر بالعساكر من مصر ودخل الشام ونزل في القلعة، ثم قتل برقوقاً نائب القلعة، ووقع الاختلاف بين الملك الناصر والامراء والشام فاعدموه خارج دمشق، واتفق رأي الامراء وبايعوا المستعين بالله بالخلافة والسلطنة فسار من دمشق الى مصر، وجلس على عرش الملك في قلعة الجبل. وفي ٨ ربيع اول ولى الشيخ المحمودي على نيابة الملك فتمرد الشيخ على المستعين بالله ولم يخلعه بل سجنه في القلعة.

الفصل الثالث

في ملك الشيخ المحمودي الملقب المؤيد هو الرابع من الجراكسة

لما سجن الشيخ المحمودي المستعين بالله جلس على عرش الملك وتلقب بالملك المؤيد وهو التاسع والعشرون من الاتراك والرابع من الملوك الجراكسة (حسب الملك عز الدين برقوق الثالث مع أنه ملك فقط بضعة اشهر ولذلك لم نحسبه وحسبنا المؤيد الثالث). في الديار المصرية، وكان مدبراً فطيناً. وقيل انه كان بين ابن العيني الذي بنى قصر العيني في مصر وبين شهاب الدين ابن حجر مناقضة، وكان للملك المؤيد جامع بمصر، فأوقف العيني مناظراً على بنايته. فكتب ابن حجر رقعة الى الملك المؤيد وهي :

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته تزهو على الفخر والزيني
تقول وقد مالت عليّ ترفقوا فليس على حسني اضر من العيني

فلما قرأ الملك المؤيد تلك الرقعة ناولها الى ابن العيني، ففهم انها نظم ابن حجر فكتب هذين البيتين :

منارة كعروس الحسن قد جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا اصيبت بعين قلت ذا خطأ وانما هدمها من خيبة الحجر

فلما بلغ السلطان بغضهما الواحد للآخر اصلح فيما بينهما ثم حضر الى دمشق. وفيها دخل علم الجبر من بلاد العرب في اوروبا.

وفي السنة ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م انشأ الامير الشيخ المحمودي جامع الضوة امام باب القلعة بالمنشأة (المنشية) وفيها اغارت العرب الهوارة على مدينة اصوان فانتصروا على اولاد الكنوز ونهبوا المدينة.

وفي السنة ٨١٦ هـ = ١٤١٣ م خرج الملك المؤيد بالعساكر المصرية الى مقابلة نوروز، (يظهر انه نائب الشام وكان احب ان يستقل بحكمها) وجرت بينهما حروب كثيرة بظاهر دمشق تغلب فيها الملك المؤيد، واخذ دمشق وقبض على نوروز وقتله، وقهر اعداءه، وتولى السلطنة بالديار المصرية والشامية. وفيها توفي السلطان بايزيد بصاعقة، وتولى بعده على تخت الروم ولده السلطان محمد، وهو الخامس من آل عثمان في مدينة بورصة وكانت مدة ملكه اربع عشرة سنة وتوفي مسجوناً عند تيمورلنك وفيها امر الملك المؤيد شيخاً بضرب الدراهم المؤيدية.

وفي السنة ٨١٧ هـ = ١٤١٤ م بنى السلطان المؤيد في دمشق المدرسة المؤيدية والسوق المنسوب اليه، وعندما دنت الافرنج في المراكب الى سواحل البحر توجه لمقاتلتهم على نهر الدامور بين صيدا وبيروت، فظفر بهم ورجع في طريقه فبات في وادي الفريديس على نهر قرية الباروك بسفح جبل لبنان ثم دخل دمشق. وفيها راجت الدراهم البندقية والنوروزية وسر الناس بالتعامل فيها. وفيها انشأ الاستاذ شمس الدين ابو محمود محمد الحنفي جامع الحنفي بخط الحنفي بين سوقية اللالة وسوق مسكة (الموسكي). وفيها ظهر ميل في منارة الازهر فهدمت وعمل بدلها. وفيها كانت معارضة يوحنا هس اراء الكنيسة الرومانية، وحكم عليه بالحرق في مجمع قسطنسية.

وفي السنة ٨١٨ هـ = ١٤١٥ م صار خلع الامام المستعين بالله من السلطنة والخلافة، ونفيه الى الاسكندرية واقامة اخيه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله. ووقع بمصر وباء وغلاء واستمر الى سنة ٨٢٣ هـ وفيها ابتدئ بامر المؤيد بحفر اساس جامعه وانشأ في هذه السنة المعتقد احمد بن سليمان المعروف بالزاهد جامع الزاهد بشارع سوق الزلط بجوار منزل الشيخ العروسي. وفي هذه السنة كان نزول الانكليز في اراضي نورمانديا وهزيمة الفرنساويين في ازنكور.

وفي السنة ٨١٩ هـ = ١٤١٦ م هم السلطان المؤيد بتغيير التعامل بالفلوس وان يضرب غيرها ويرجعها الى ما كانت عليه في الايام الظاهرية. وفيها شرع الملك المؤيد ببناء جامع المؤيد عند باب زويلة. وفيها احرق جروم من مدينة براغ لمناداته باصلاح الديانة المسيحية.

وفي السنة ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م انشأ الامير فخر الدين عبد الغني ابن الامير تاج جامع البنات وهو بين قنطرة الموسكي وقنطرة الامير حسين. وفيها ظهر شخص اسمه بدر الدين سماويه وادعى السلطنة وجمع جمعاً عظيماً لخلع السلطان محمد زاعماً أنه هو الامير مصطفى ابن السلطان بايزيد، وكان حقيقة يشبهه، فهزمه السلطان محمد وحاصره بمدينة بالمونيكي من الروم.

وفي السنة ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ م رجع السلطان المؤيد من دمشق الى مصر مملكته. ورتب عند رجوعه الدروس الشافعية والمالكية والحنبلية بجامع المؤيد وكان ذلك بحضور السلطان.

وفي السنة ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ م وقف النيل عن الزيادة فارتفع سعر القمح، فنادى السلطان بصوم ثلاثة ايام، فلم يزد شيئاً، ثم خرج السلطان والخليفة والقضاة وصلوا صلوة الاستسقاء فزاد قليلاً فاروى فقط نصف اطيان مصر فحصل الغلاء. وفيها هدم السلطان المؤيد جامع المقياس، ووسع بناءه ومات قبل فراغه. وفيها اكتشف اهل البرتوغال جزائر ماديرا بواسطة تريستان فازوزاركو.

الفصل الرابع

في سلطنة الملك المظفر أحمد والملك الظاهر[1] سيف الدين

والملك الصالح ناصر الدين وهم الخامس والسادس من ملوك الشراكسة بمصر.

وفي السنة ٨٢٤ هـ = ١٤٢١ م في ثامن شهر محرم توفي الملك المؤيد الشيخ المحمودي الخاصكي بالقاهرة وكانت مدة سلطنته ثمان سنين ونصف. وتولى بعده ولده الملك المظفر احمد وعمره يومئذ سنة وسبعة اشهر وهو الثلثون من ملوك الترك والخامس من الشراكسة بمصر. وبعد عشرة اشهر طمع وصيه وحميه سيف الدين بالمملكة فملك وتلقب بالملك الظاهر وهو السادس من ملوك الشراكسة بمصر وبعد بضعة اشهر توفي الملك الظاهر وبويع ابنه ناصر الدين ولقب بالملك الصالح محمد. وكان ابو السعادة برسباباي المتكلم عنه ووصيه لانه كان صغيراً. وفي هذه السنة توفي السلطان محمد ابن السلطان بايزيد سلطان الروم بصاعقة، وتولى بعده السلطنة ولده السلطان مراد وكانت مدة ملكه تسع سنين وهو السادس من ملوك الروم في مدينة بورصة.

---

(١) لكونه لم يبقَ في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر لم يُعدّ من الملوك، وكذا الملك الصالح ناصر الدين.

الفصل الخامس

في ملك الملك الاشرف

وفي السنة ٨٢٥ هـ = ١٤٢١ م خلع ابو السعادة برسباباي السلطان الصالح محمد عن الملك وجلس مكانه وكان وصيه، وتلقب بالملك الاشرف وهو الحادي والثلثون من ملوك الترك والسادس من الشراكسة بالديار المصرية. وفي هذه السنة انتهى تاريخ شمس الدين محمد الزلكاني الذي سماه « عمدة الظرفاء في اخبار الخلفاء ». وفيها كانت الحروب بين الامبراطور مناويل والسلطان مراد الذي سار وحاصر القسطنطينية، وتحت امرته مايتا الف شخص فقاومتهم المدينة لانها كانت منيعة واسوارها حصينة، فتركها السلطان وتوجه الى آسيا لتسكين الفتنة التي اضرم نارها الاروام.

وفي السنة ٨٢٦ هـ = ١٤٢٢ م ابتدأ الملك الاشرف ببناء جامع الاشرفية تجاه سوق العطارين، واكمله في السنة التالية. وفيها حصلت تجارب في النقش والرسم على الخشب والنحاس في فلورنسا.

وفي السنة ٨٢٧ هـ = ١٤٢٣ م اكمل بناء جامع الاشرفية. وهدمت منارة جامع الازهر حيث مالت وكادت تسقط ثم اعيدت. وفيها ابتدئ بعمل الصهريج الموجود بوسط الجامع الازهر.

وفي السنة ٨٢٨ هـ = ١٤٢٤ م قدمت مراكب قبرسية الى ناحية شطوط مصر وملكوا مركباً كبيراً فأمر السلطان الاشرف ابو السعادات بأن تخرج

العمارة من ميناء طرابلس، وارسل ثلاثة امراء من مصر وامير من الشام وامير حلب وامير صفد مع امير طرابلس بأربعين مركباً الى قتال ملك قبرس، فساروا اولاً الى جهة الماغوصة، ثم الى الملاحة فالتقوا باثني عشر مركباً وعمارة كبيرة صحبة الكندس اخي سلطان قبرس، وانتشب بينهما الحرب فكانت الكسرة على اهل قبرس، فنهب المسلمون مدنهم واسروا منهم سبعمائة اسير، واخذوا خمسين عجلة بمدافعها. ثم قصدت عساكر السلطان الاشرف حصن اللماسون، فنهبوه وهدموه واسروا من به ثم رجعوا الى مصر. يذكر بارونيوس انه بهذه السنة صار حرب عظيمة بين ملك الانكليز وملك فرنسا، فملك سلطان الانكليز مملكة فرنسا، ثم استنقذها منه ملك فرنسا وجعل نيشاناً ثلاث زهرات لجنوده الغالبين (هذا كلام مجمل عن هذه الحرب وغلبة الانكليز على الفرنساويين ثم استرجاع الفرنساويين بلادهم فان ذلك يمتد الى عدة سنوات ولم يحصل في سنة واحدة كما سيأتي). وفيها انشأ الامير جانبك الداودار جامع جانبك بشارع المغربلين. وحصلت بمصر زلزلة مهولة.

وفي السنة ٨٢٩ هـ = ١٤٢٥ م خرج السلطان الاشرف في العمارة المصرية الى قبرس، وتواقع الجيشان، فقتل من القبرسيين نفر لا عدد لهم، وقتل القندس اخو ملك قبرس، واحرق المصريون دار الملك ودوراً كثيرة واسروا ونهبوا وعاد الملك الى مصر بغنائم كثيرة، فترتبت جنود مصر منقسمة الى صفين امام باب القلعة. ودخل الملك الاشرف بين الصفوف، وملك قبرس مقيداً على بغلة، والنهب والأسارى تنساق قدامه. فأمر السلطان بوضعه في السجن. ثم بعد مدة فدى نفسه بمائتي الف دينار فأمر السلطان الاشرف باطلاقه، وجعل عليه ضريبة يحملها كل سنة، وخلع عليه خلعة عظيمة واعطاه فرساً بسرج ذهب. وعندما سافر خلع عليه ايضاً، فسار ملك قبرس الى الاسكندرية ومن هناك الى قبرس. وفيها استقر الامر على ابطال التعامل بالدنانير البندقية.

وفي السنة ٨٣٠ هـ = ١٤٢٦ م انتصر الدنيماركيون على الانكليز في مونتاركيز وفيها انتزع السلطان مراد الثاني اقليم مصر من القرالات (القواد) المتسلطين عليه.

وفي السنة ٨٣١ هـ = ١٤٢٧ م استعملت الدنانير الاشرفية بدلاً من الدنانير البندقية وغيرها. وفيها حاصر الانكليز اورليان.

وفي السنة ٨٣٢ و ٨٣٣ هـ = ١٤٢٨ و ١٤٢٩ م حصل غلاء شديد لعدم وفاء النيل وعقبه وباءٌ شديد مات فيه امير المؤمنين المستعين بالله ابو الفضل العباسي. وفيها ظهرت سانت جان دارك ابنة فرنساوية لمحاربة الانكليز وتخليص بعض اقاليم فرنسا. وفيها وجد في النيل اسماك ميتة طفت على وجه الماء، وقد صبغت بالدم الاحمر وكان بعده الطاعون. وفيها كانت ولادة السلطان ابي الفتح محمد خان.

وفي السنة ٨٣٤ هـ = ١٤٣٠ م حدثت زلازل عظيمة في لسبوت عاصمة البرتوغال، وفيها تتوج هنري السادس ملكاً على الفرنساويين وهو في باريس. وفيها حتم السلطان الاشرف على الباعة والتجار بأن لا يتعاملوا الا بالدراهم والدينار الاشرفية، وان الدرهم يساوي عشرين فلساً، والدنانير الذهب يساوي مائتي درهم نحاساً، ومنع المعاملة بالفضة التركية وغيرها.

وفي السنة ٨٣٥ هـ = ١٤٣١ م فتح العثمانيون بانية. وفيها كانت محاكمة سانت جان دارك واعدامها حرقاً (احرقها الانكليز).

وفي السنة ٨٣٦ هـ = ١٤٣٢ م قلد الملك الاشرف نيابة الرها الى ابي النصر ينال العلائي الذي صار سلطاناً على مصر سنة ٨٥٧ هـ

وفي السنة ٨٣٦ هـ = ١٤٣٢ م صار طرد الانكليز من باريس.

وفي السنة ٨٤٠ هـ = ١٤٣٥ م انشأ القاضي يحيى زين الدين الاستداري جامع القاضي يحيى عند قنطرة الموسكي.

وفي السنة ٨٤١ هـ = ١٤٣٦ م توفي الملك الاشرف بعلة الاستسقاء بعد ان حكم ١٧ سنة و ٨ اشهر و ٦ ايام، فبويع بعده ابنه جمال الدين يوسف ولقب بالملك العزيز.

ثم بعد ثلاثة اشهر من ولايته قبضوا عليه وسجنوه في قلعة الجبل وفيها كان دخول كارلوس السابع الى باريز، وحصل فيها قحط ايضاً.

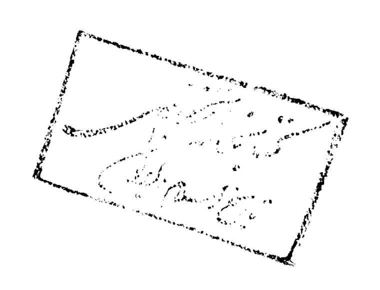
(تنبيه : اننا فيما يأتي لا نذكر ملوك الشراكسة بفصول كما سبق لان دولتهم ابتدأت بالانحلال وترى ان الملك يجلس على تخت الملك بضعة اشهر ويعزل او يقتل وقويت مملكة الاتراك العثمانيين ولذلك نبتدي في ذكر الملوك العثمانيين فقط).

وفي السنة ٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م في ١٩ ربيع اول عزل الملك العزيز وبويع رئيس جيشه سيف الدين جقمق ابن عبد الله ولقب بالملك الظاهر، فاضطربت المملكة من ولايته من القاهرة الى حلب وقصد العصيان الامراء الآتية اسماؤهم: قرمش نائب حلب، واينال الجكمي نائب الشام، وقراقاش في القاهرة، فقبض السلطان عليهم وقتلهم ثم ارسل الى نيابة الشام جلبان فعدل في الرعية.

وفي السنة ٨٤٣ هـ = ١٤٤٠ م انشأ جوهر المنجكي جامع جوهر بشارع الحبالة تحت القلعة. وفيها كان اختراع فن الطباعة في المانيا.

وفي السنة ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م ارجع السلطان مراد الثاني اقليم السرب الى القرالات التي كانت متسلطة عليه.

وفي السنة ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ م توفي الامام المعتضد، واوصى بالخلافة بعده لاخيه فبايعوه ولقبوه بالمستكفي بالله. وفيها تعصبت العبيد في بر الجيزة، واقاموا لهم سلطاناً ووزراء فصار القبض عليهم وبيعهم في المملكة العثمانية. وفيها توفي الامير قاسم ابن الامير محمد الشهابي، وكان اميراً جليلاً مخالفاً لطباع ابيه، وعاش في الولاية عيشة حسنة واطاعته أولاد عمه واهالي البلاد. وحين قدمت الافرنج الى الدامور قدم الى جبل لبنان بعساكره وسار مع الامير قاسم المعني لقتال الافرنج فظفر به الافرنج ظفراً تاماً. وبعد وفاته تولى على الامارة بعده ولده الامير احمد وتزوج ابنة الامير ملحم المعني امير جبل الشوف وكان اسمها ريحانة النفوس. وفيها تولى ابو النصر ينال نيابة صفد.



انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث
من ظهور دولة بني عثمان حتى نهاية المعنية

